الدكتور أحمد عبد الرحمن

في رحاب السيرة العطرة

افتراءات المضلين في ضوء الحق المبين

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
في رحاب السيرة العطرة
افتراءات المضلين
في ضوء الحق المبين
اسم المؤلف: الدكتور أحمد عبد الرحمن
الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٢٤٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ١٥١٥١/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي: .I.S.B.N
977-17-9283-0



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد الرحمن، أحمد
في رحاب السيرة العطرة: افتراءات المضلين
في ضوء الحق المبين/ أحمد عبد الرحمن. ط١
القاهرة: أحمد عبد الرحمن، ٢٠١٠
القاهرة: سي. جي. ويرامنتري؛ ٢٠١٠.
٢٤٠ ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ١٧ ٩٢٨٣
١ - السيرة النبوية - دفع مطاعن.
أ - العنوان

ديوى ٢١٦,٣٩

إهداء

إلى كل من يحرص على طهارة

عقله وقلبه من الافتراءات ...

أهدي هذه الدراسة.

أحمد عبد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

[النحل: ١٢٥]

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[يوسف: ١٠٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حدثت صدامات وتوترات بين المسلمين و بين غير المسلمين في الشرق والغرب في السنوات الخمسين الماضية، ومنذ الحروب الصليبية كانت التوترات تطل برأسها من حين إلى حين، وكان وقوع البلاد المسلمة تحت نير الاستعمار الغربي سبباً في استمرار التوتر والصدام، إلى أن تحقق الجلاء و استردت البلاد المسلمة استقلالها السياسي.

لكن الاستعمار ترك وراءه نزاعا ثقافيًّا واسعاً، أدى إلى شق صفوف المسلمين إلى معسكرين متناحرين، أحدهما يعمل لتغريب المجتمع، والآخر يسعى إلى استعادة الهوية العربية الإسلامية له، ولعبت الدول الغربية دوراً فعالاً في نصرة معسكر التغريب، بغية تحقيق التبعية للغرب.

وكان شخص النبي ﷺ ضحية لهذا الانقسام. فمن أجل صرف المسلمين عن الإسلام وإقناعهم باعتناق المسيحية، أو الفلسفة الغربية المادية، تناول النقاد السيرة النبوية بالنقد العنيف، وشككوا في صدق النبي ووصفوه بأقذع الصفات. وردد المتغربون تلك الشكوك في الجامعات ووسائل الإعلام وعبر الفنون المسرحية والسينمائية.

و بعد أن فُتحت أبواب الهجرة إلى الغرب، تكونت جاليات مسلمة كبيرة في كل دولة غربية، وحافظ معظم المسلمين على الالتزام بدينهم، وشرعوا في الدعوة إليه. واستجابت لهم أعداد من الوطنيين، وعدد من النخبة المثقفة أيضاً، وشعر كثير من الغربيين بالقلق من تنامي الوجود الإسلامي في بلادهم، ووقعت احتكاكات نتيجة

لتلك الأوضاع. وكانت شخصية النبي محمد ﷺ ضحية لذلك، فكثرت الكتابات والرسوم الكاريكاتورية التي تسيئ إليه، الأمر الذي أثار غضب المسلمين في أوربا وفي العالم الإسلامي عامة.

وعلى المستوى النظري تنبأ الكاتب الأمريكي الشهير "فوكوياما" بـ"صدام الحضارات"، وصدام الحضارتين الغربية والإسلامية خاصة، ورفض نظريته هذه معظم العلماء في الشرق والغرب، ونادوا بمبدأ مضاد هو: "حوار الحضارات"، وبعد مؤتمرات الحوار العديدة بين المسلمين وبين الغربيين، كان من المنطقي أن تخمد الحملة على شخص النبي ﷺ تبعاً لذلك، لكن ذلك الأمل لم يتحقق، وتضاعفت الافتراءات على "النت" وفي الصحف والمجلات، على شخص النبي محمد ﷺ.

وفي المقابل ألّف كُتاب كبار من الغربيين الكتب ونشروا المقالات التي تنصف النبي وتبرئه من تلك الافتراءات، وفي مقدمتهم "أنَّا ماري شيمل" الألمانية، والدكتورة "كارين أرمسترونغ" البريطانية و "الدكتور مايكل سيلز" الأمريكي، وغيرهم كثيرون.

وهكذا أتيح لقطاع من المواطنين الغربيين أن يعرفوا الإسلام ونبيَّه وأمته معرفة صحيحة.

وهذه الدراسة إسهام متواضع لبيان بعض جوانب الشخصية المحمدية، تلك التي ثار حولها الجدال في وسائل الإعلام الغربية، وعلى "النت". إنها ليست تاريخاً شاملاً لنبي الإسلام، ولا لأي حقبة معينة من حياته.

ومنهجنا في هذه الدراسة هو المنهج العلمي الموضوعي الصارم الذي لا يعترف بغير الحقائق.

وأملنا أن تصل هذه الحقائق إلى أكبر عدد من غير المسلمين لوضع حد للافتراءات التي تعكر صفاء تفكيرهم وتقودهم إلى إصدار أحكام خاطئة على المسلمين واتخاذ مواقف عدائية منهم كأفراد وكأمة وديانة وثقافة وحضارة تمهد للصدام بين الفريقين.

أحمد عبد الرحمن

الفصل الأول

من الميلاد إلى الهجرة

محمد قبل البعثة

وُلد محمد في مكة، عاصمة الجزيرة العربية، وكانت مدينة كبيرة، يحج إليها العرب لزيارة البيت الحرام، كما كانت مركز التجارة بين اليمن والشام وفارس.

ووالد محمد هو عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[١] وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً[٢].

قال ابن هشام صاحب السيرة النبوية، بعد أن تابع النسب الشريف إلى آخره: "فرسول الله ﷺ أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً، من قِبل أبيه وأمه ﷺ"[٣].

وقد مات عبد الله، والد محمد، قبل أن يولد، فلم ير والده، ولم يراه والده[٤] كان يزور أخواله من بني النجار في يثرب، فمات هناك.

وقد اختُلف في تحديد يوم ميلاد محمد، فقيل إنه ولد في ١٢ ربيع الأول، وهو الأرجح، (أي في ٢٠ أبريل ٥٧١م).

وبعد وفاة والده كفله جده عبد المطلب وأسبغ عليه حبه ورعايته، وكان يدعوه ولده، فيقول ابني ذهب وابني جاء، وكان عبد المطلب يتولى الرفادة و السقاية في الحرم، وهو يومئذ أشرف منصب في مكة[٥] قال ابن هشام: "كان يوضع لعبد المطلب

---

(١) فتح الباري؛ رقم ٣٨٥٠ - ٧ / ١٦٢، حيث النسب الشريف بتمامه.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٥٦.
(٣) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١١٠ والطبقات الكبرى لمحمد بن سعد؛ ١ / ٧٥.
(٤) فتح الباري؛ رقم ٣٨٥١ - ٧ / ١٦٤.
(٥) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٣٦ - ١٤٢.

فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليهم، لا يجلس عليه أحد إجلالاً له." وأما رسول الله، وهو لا يزال غلاماً، فكان يجلس عليه فيؤخره أعمامه، فإذا رأى عبد المطلب ذلك منهم قال "دعوا ابني، فوا لله إن له لشأناً، ثم يُجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يصنع." ولهذا حزن رسول الله ﷺ لوفاته، وكان لا يزال صغيراً في الثامنة من عمره(١).

وكان عبد المطلب يوصي ابنه أبا طالب برعاية محمد، وقد احترم وصية أبيه وكفل محمدا بعد وفاة أبيه خير كفالة.

وقد توفيت أمه قبل وفاة جده، حين كان محمد في السادسة من عمره؛ توفيت بـ"الأبواء" بين مكة والمدينة ودفنت هناك. وكانت قد سافرت مع ولدها الصغير - محمد - إلى يثرب لتزيره أخواله من بني عدي بن النجار، فماتت وهي راجعة إلى مكة(٢).

واشتغل الصبي محمد بعمل عِمه وكافله أبي طالب الذي كان رجلاً تاجراً. وحين بلغ حوالي العشرين استأذن عمه في ممارسة تجارة خاصة مستقلاً عن تجارة عمه، فأذن له وشجعه. وكانت بضاعة محمد هي الملابس، وقد شارك رجلاً اسمه السائب ابن أبي السائب، شهد له ﷺ بأنه كان: "لا يدارئ ولا يمارئ" أي أنه كان على وفاق مع شريكه لا يعارضه ولا يجاريه بالباطل.

وتعبيراً عن امتنانه لعمه أبي طالب، استأذنه محمد في أن يضم إليه ولده عليًّا، لتخفيف أعباء الحياة عن العم الطيب، ووافق أبو طالب فصار علي ربيب رسول الله وتلميذه النجيب.

ويلاحظ المشتغلون بسيرة محمد ندرة الأخبار عن حياته قبل البعثة، وغزارتها

(١، ٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٧٩

بعدها، وأبرز الأخبار عن تلك الفترة هو خبر زواجه من خديجة، وقد ذكر هو نفسه بعض الأخبار عنها. ومن ذلك أنه في سن الرابعة عشر شهد ما يسمى "حرب الفجار". وقال عليه الصلاة و السلام عنها وعن إسهامه فيها: "كنت أنَبِّل على أعمامي" أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، وكانت الحرب بين قريش وبين قيس عيلان(١).

وأسهم محمد فى نقل الحجارة لإعادة بناء الكعبة (٢)، وقد ساعده على ذلك بنيان بدنه القوي. ولقد صارع "ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب" الذي عرف عنه أنه كان أشد رجالات قريش قوة، وذات يوم قال النبي لـ" ركانة " الذي لم يكن قد آمن به بعد " : أرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق ؟" قال نعم. ثم صارعه النبي، وهزمه (٣).

ثناؤه على حلف الفضول

وكان حلف الفضول بين قبائل قريش لمنع الظلم وإنصاف المظلومين مأثرة نادرة لهم، وقد شهده رسول الله ﷺ وأثنى عليه لما يهدف إليه من قيم، وقال: "ما أحب أن لي به حمُر النعم، ولو أدعَى به في الإسلام لأجَبْت"(٤).

– وطبق محمد ﷺ أهم بند في ذلك الحلف النبيل، وهو منع الظلم، فقد جاءه رجل من "إراش" يشكو إليه أبا جهل، أحد زعماء مكة الكبار، الذي ابتاع منه إبلاً، ثم أبَى أن يعطيه ثمنها، وعلى الفور ترك النبي المسجد، وتوجه إلى بيت أبي جهل، وضرب عليه بابه، وخرج أبو جهل، وفوجئ بمحمد يقف في مواجهته! وامتقع لونه واضطرب! وأمره النبي أن يعطي الرجل حقه، ففعل دون جدال، وذلك لما كان لمحمد من المهابة لدى الجميع(٥).

---

(١) سيرة بن هشام؛ ١ / ١٤٨ - ١٨٦ .
(٢) البخاري؛ فتح الباري؛ رقم ٣٨٢٩ - باب بنيان الكعبة؛ ٧ / ٤٥ .
(٣) سيرة بن هشام؛ ١ / ٣٩٠ ، ٣٩١ . (٤) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٥) نفسه؛ ١ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

الأمين

وأراد الله تعالى أن يكون تكريم محمد على أيدي الجاهليين أنفسهم! فحين اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه بعد تجديد بناء الكعبة المشرفة، وكادت الحرب تشتعل بينهم، قال أبو أمية بن المغيرة للناس: لندَع لأول مَن يدخل من باب هذا المسجد أن يقضي بيننا، فرضوا بذلك، ثم كان محمد ﷺ هو أول مَن دخل، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين! فأمرهم بإحضار ثوب، ثم قال بعد أن وضع الحجر فيه: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً"، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بَنى عليه" (١).

وهكذا شهد له القوم بالأمانة، وتم الأمر بسلام، وزال شبح الحرب.

زواجه من خديجة

وفي سن الخامسة والعشرين تزوج ﷺ خديجة بنت خويلد، وكانت امرأة تاجرة ذات مال وشرف، وكانت خديجة قد استخدمت محمداً ليدير لها تجارتها، بعد أن عرفت عنه الأمانة والصدق وكريم الأخلاق، ولا بد أنها عرفت عنه أيضاً أنه صاحب خبرة تجارية، لأن سمو الأخلاق وحده لا يكفي لنجاح التاجر.

وخرج محمد بمال خديجة إلى الشام، وعاد بأرباح وفيرة.

ومالت نفس خديجة إلى محمد، فأرسلت إليه تخبره أنها ترغب في الزواج منه، وكانت خديجة في ذلك الوقت من أرفع نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً. وكان أشراف قريش يتمنون أن تقبل الزواج بأحدهم.

وأنجبت خديجة من محمد: القاسم، والطيب، والطاهر، ورقية، وزينب وأم كلثوم، وفاطمة(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٩٢.

(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٩٠.

وكانت خديجة رضي الله عنها رفيقة محمد في الحياة، وفي الجهاد من أجل الإسلام حتى ماتت، وكانت أعظم نسائه وأحبهن إلى قلبه.

وقد رضي بها ﷺ على الرغم من أنها كانت تكبره بأكثر من عشر سنوات، فأثبت أنه كان رجلاً رزيناً حكيماً منذ أن كان في العقد الثالث من عمره.

لقاء جبريل

واستقرت حياته مع خديجة، وقد اعتاد أن يقضي بعض وقته في شهر رمضان كل عام في غار حراء، وكان الفقراء يقصدونه ليتصدق عليهم، وفي ذات يوم جاءه الملاك جبريل بأول آيات من القرآن ثم انصرف، وعاد محمد إلى بيته مرتعداً، وأخبر خديجة الخبر فصدقته دون تردد، وقالت: "أبشِر يا ابنَ عم واثبت! فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة."[١] وفي خبر آخر قالت: "والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"[٢].

فكان مبعثه في ١٧/ ٩ (رمضان) من سنة ٤١ من ميلاده الشريف (٦/ ٨/ ٦١٠م)[٣]

فهذا برهان أخلاقي، لا إعجازي، ولا غيره، فعند خديجة رضي الله عنها، صاحب هذه الفضائل الأخلاقية الرفيعة لا يمكن أن يكذب أو يخادع، ولا يمكن أن يخزيه الله تعالى.

وشرع النبي ﷺ في الدعوة سرًّا، خشية أن يصطدم بجبابرة الشرك في مكة. وقد آمن به عدد قليل من الرجال على رأسهم أبو بكر بن أبي قحافة، الذي دعا عثمان

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٣٨ .
(٢) البخاري؛ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .
(٣) الندوي؛ السيرة النبوية؛ ص ١٠٢ .

ابن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيد الله، ثم جاء بهم إلى رسول الله ﷺ ليبايعوه على الإسلام.

ومن المهم أن نتذكر أن ثقة أولئك الرجال المرموقين في صدق محمد هي التي أقنعتهم باعتناق الإسلام، فلم يكن قد تنزل من القرآن إلا آيات قليلة، ولم يُؤثَر عن أحد منهم أنه قال: إنني آمنت بمحمد نبيًّا لأنني وجدت في آيات القرآن إعجازاً بيانيًّا أو براهين عقلية على صدقه وصدق رسالته!

وتلا تلك المجموعة من أشراف قريش مجموعة أخرى لا تقل عنهم في المكانة والشرف، منهم أبو عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون وعبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وسعيد بن زيد وخباب بن الأرت وعبد الله ابن مسعود وعمار بن ياسر وصهيب وأبو سلمة؛ وعمير بن أبي وقاص ومسعود ابن القاري، وأسماء وعائشة ابنتا أبي بكر.[1]

الدعوة من الخفاء إلى العلانية

وبعد ثلاث سنوات من التخفي بالدين الجديد أمر الله تعالى نبيه بإظهاره فقال تعالى ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الحجر: ٩٤). وقال أيضًا ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

يقول القرطبي: "لما نزلت هذه الآية - رقم ٢١٤ من سورة الشعراء - دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعَمَّ وخصَّ فقال: "يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار! يا فاطمة!

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٠ - ٢٥٥.

أنقذي نفسك من النار! فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبُلُّها ببَلالِها."(١).

وأحسب أن النبي ﷺ قد بدأ دعوته بقراءة بعض آيات القرآن الكريم، لأن ذلك هو منهجه في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فالخبر فيه اختزال وحين قابلوه بالرفض دعاهم إلى إنقاذ أنفسهم من النار. والقرآن الكريم يسجل هذه المواجهة، فقال جل شأنه: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

(الأنعام: ٦٦)

وقال أيضاً: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (فاطر: ٢٥).

وقال جلَّ شأنه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ (الفرقان: ١١)

وأخبر الله تعالى نبيه وواساه فذكر له أن أنبياء الله من قبله واجهوا التكذيب مثله. قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٥)، وقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ (ص: ١٢).

فتكذيب الصادق مؤلم للنفس أشد الألم، لكنه يتخفف من الألم حين يعلم أنها سُنة إلهية، وتجربة دينية عاشها الأنبياء كما يعيشها هو.

ولم يقف المشركون عند حدود التكذيب، بل تعدوه إلى العدوان على المسلمين والأذى لهم، وقتْل بعضهم. ولم يجد النبي ﷺ مفرًّا من البحث عن مَحضنٍ آمنٍ لهم، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم إلى يثرب، ثم هاجر هو نفسه بعد أن هاجر معظم أتباعه إلى إخوانهم هناك.

ومن المؤسف أن أعداء الإسلام عبر العصور كذبوا النبي ﷺ بالحجج نفسها التي رددها الجاهليون مع بعض الزخارف التي راجت في ثقافة كل عصر، كفكرة التطور في عصرنا(٢).

---

(١) القرطبي؛ تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

(٢) راجع كتابي: نقد أعلام الفكر المصري المعاصر نشر مكتبة وهبة - القاهرة؛ ص ٥ - ٤٢.

التعذيـــب

انتشر الإسلام انتشاراً محدوداً في مكة، وغضبت قريش من ذلك، وحرضت كل قبيلة على مَن أسلم من أبنائها: "فوثبت كل قبيلة على مَن فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم"(١). وذلك لعجزهم عن الدفاع عن الوثنية بالحجج العقلية.

ولم يَسْلَم نبي الله ﷺ من الأذَى، فقد: " أَغْرُوا برسول الله ﷺ سفهاءَهم فكذبوه وآذَوْه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون."

وذات يوم حاول بعضهم قتله،(٢) لولا تدخل أبي بكر الذي صرخ في وجوههم قائلاً: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟" ونال الصديق يومئذ أذى كبير من كثرة ما جذبوه بلحيته! (٣).

- وفي يوم آخر مَرَّ أبو جهل برسول الله ﷺ وهو عند الصفا: "فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره." ولم يرد عليه النبي. ولَمَّا علم حمزة بن عبد المطلب بالأمر غضب وضرب أبا جهل بقوسه ضربة شجت رأسه.(٤) وأعلن حمزة إسلامه، فكان قوة كبيرة قادرة على الدفاع عن النبي وضعاف المسلمين رضى الله عنه.

ومن أشهر حوادث التعذيب ما صنعه أمية بن خلف ببلال بن رباح رضى الله عنه، حيث كان يأخذه وقت الظهيرة إلى بطحاء مكة ثم يطرحه على ظهره، ويضع الصخرة العظيمة على صدره، بُغْية إثنائه عن الإسلام (٥). ولم يرحمه من ذلك العذاب الأليم إلا أبو بكر الصديق، وذلك بأن اشتراه وأعتقه.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
(٢) نفسه؛ ١ / ٢٩٠ .
(٣) نفسه؛ ١ / ٢٨٩ .
(٤) نفسه؛ ١ / ٢٩٢ .
(٥) نفسه؛ ١ / ٢١٧ ، ٢١٨ .

وعن عبد الله بن عباس قال إن المشركين كانوا يضربون الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ : "ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضُّرِّ الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنه، حتى يقولوا له: أللات والعُزى إلهك من دون الله؟! فيقول: نعم! حتى إن الجُعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجُعل إلهَك من دون الله؟! فيقول: نعم! افتداءً منهم مما يبلغون من جَهْد."(١).

ومات أبو طالب قبل الهجرة بثلاث سنوات. وماتت خديجة في السَّنة نفسها، فسُميَ ذلك العام عام الحزن، وبفَقْد عمه خسر النبي والمسلمون قوة كبيرة كانت تكبح جماح المشركين، فتجاسرت قريش على رسول الله ﷺ وضاعفت الأذى له ولأتباعه من المؤمنين؛ وبلغت جسارتهم عليه أن اعترضه يوماً أحد سفهائهم ونَثَرَ على رأسه تراباً!(٢).

ولكن لماذا كذَّبت قريش النبي وهو الذي شهدت له بالأمانة، ولم تعهد أنه كذب على أحد؟!

كان أهم أسباب التكذيب أنه بشر وليس ملاكاً؛ وقد سجل القرآن الكريم قولهم ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٤). وقالوا ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ (التغابن: ٦). فَمَنْ كان منهم يعترف بالملائكة كان يريد أن يتنزل عليه مَلَكٌ من السماء! ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة إلى الله هم الأصنام!(٣).

والسبب الثاني للتكذيب هو الإيمان بالبعث والحساب و الجزاء في الآخرة، فقد كان العرب يؤمنون" بالطبع المحيي والدهر المفني"، ولم يستطيعوا تخيل إمكان الحياة بعد الموت، وهذا هو الموقف نفسه اليوم عند الفلاسفة الماديين الغربيين،

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٣٢٠ - والجُعل هو الجعران.
(٢) نفسه؛ ١ / ٤١٦.
(٣) الشهرستاني؛ الملل والنحل؛ ٣ / ٨١.

الوضعيين والماركسيين والوجوديين والبراجماتيين. وقال الجاهليون العرب، كما سجل القرآن ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء: ٩٨). ورد عليهم القرآن بقول الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨، ٧٩).

والسبب الثالث هو المخاوف من صعود نجم بني هاشم فوق غيرهم من قبائل قريش والعجز عن منافستهم، لأن من المستحيل أن يأتوا بنبي كنبي بني هاشم!

والسبب الرابع هو المصالح الاقتصادية التي هددها الدين الجديد بما بشر به من تحريم الربا والميسر، وإنصاف الرقيق، وجعل التقوى معياراً للمكانة الفردية، ونبذ العنصرية القبائلية، وغير ذلك من المبادئ.

والسبب الخامس هو عقيدة التوحيد، وقد صُدم الوثنيون صدمة شديدة حين طالبهم النبي ﷺ بتحطيم أصنامهم والإيمان بإله واحد لا شريك له وقالوا ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص: ٥) وعز عليهم أن يقال إن عَبَدَةَ الأوثان من آبائهم مصيرهم جهنم وبئس المصير، والحق أن أهل الفترة من المشركين لن يعذبوا لقول الله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥) ولكن يبدو أنهم لم يعرفوا هذه الحقيقة.

وكان من أسباب نفور المشركين من محمد ودينه أنه كان يدعو إلى التقيد بعقائد جديدة عليهم، وإلى الالتزام بقيم أخلاقية رفيعة، كانت تصادم العادات الجاهلية السائدة، وكان أدعياء النبوة على علم بهذه الحقيقة، ولذلك لجأوا إلى إعفاء الناس من بعض الواجبات والقيم لإغرائهم باتباعهم، هذا ما فعله مسيلمة الكذاب، الذي أعفى قومه من صلاتي العشاء والفجر، في نهاية عهد النبوة المحمدية، وما فعله القادياني في الهند في العصر الحديث حين حرم الجهاد ضد الاستعمار البريطاني.[١]

---

(١) أبو الأعلى المودودي؛ ما هي القاديانية؟ ص ١١٠، ١١١.

وما فعله نبي البهائية الزائف الذي خفف العقوبة على الزناة بجعلها تسعة مثاقيل من الذهب! [1].

فشل الإغراء بعد فشل التعذيب!

بعد فشل التعذيب والقتل لجأت قريش إلى الإغراء، فأرسلت عتبة بن ربيعة أحد أبرز زعمائها إلى النبي ﷺ، ليحاول إثناءه عن الدعوة.

قال عتبة للنبي: " يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمتَ من السِّطَة في العشيرة (أي الشرف) والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم وسفّهتَ به أحلامهم، وعبْتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرتَ به مَن مضى من آبائهم! فاسمع مني أعرضُ عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال (الراوي): فقال له رسول الله ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمَع!" قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً! وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك! وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا! وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ..".

ورد رسول الله ﷺ قائلاً: ﴿ **حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ (فصلت: ١-٥) إلى قوله تعالى ﴿ **فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ** ﴾ (فصلت: ٣٨). وفي هذا الجزء من السورة من الوعد والوعيد ما تهتز له الجبال! فعاد عتبة إلى قومه ينصحهم بترك محمد وشأنه [2].

---

(١) صالح كامل وعبد العزيز شرف؛ أضواء على القاديانية؛ ص ٢٠٨.

(٢) سيرة ابن هشام؛ ١/ ٢٩٣، ٢٩٤.

الصمود العظيم على مواصلة الدعوة

ولما دعاه عمه إلى الكف عن الدعوة لتجنب الصدام مع المشركين قال ﷺ : "ياعم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته"(١) .

بهذا الإصرار العظيم والإرادة الفولاذية الماضية، رد النبي ﷺ على أبي طالب حين طلب إليه الكف عن الدعوة لدين الله، اجتناباً لأذى قريش.

المقاطعة

ولم يتوقف المشركون عن حربهم ضده، وظلوا يعذبون كل من يسلم، ويسجنون بعضهم. ثم لجأوا إلى المقاطعة الشاملة للمسلمين، وكتبوا وثيقة بألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم. **ثم علقوا الوثيقة أو الصحيفة في جوف الكعبة**.

وصمد محمد ﷺ وأصحابه ولم يهتزوا أمام قوة المقاطعة التى استمرت عامين.

وثار بعض أشراف قريش ضد الصَحيفة، وتحللوا من المقاطعة، وقد وجدوا أن الأَرَضة أكلت الصحيفة ولم يبق منها سوى اسم "الله".

وانتصر المسلمون وعادوا لممارسة حياتهم الطبيعية.

ويعد ذلك الصمود العظيم للنبي ﷺ دليلاً قويًا على صدقه، ولو كان كاذباً لكان تراجع قليلاً، أو كثيراً، وهو يرى أتباعه يتساقطون من شدة الجوع، ويوشكون على الارتداد عن دينهم، لكنه لم يتزحزح عن دينه قيد أنملة وكذلك أتباعه العظام المجاهدون الصابرون.

الهجرة النبوية إلى يثرب : حكمة ومعجزة

وتعتبر هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى يثرب أنموذجاً للشجاعة في مواجهة

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٦٦

الخطر، وفي دقة التخطيط والتدبير، وقد اشترك في تنفيذ الخطة خمسة أفراد تحت إمرة النبي ﷺ، هم: علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وأسماء بنت أبي بكر، وأخوها عبد الله بن أبي بكر، وعبد الله بن أريقط، وعامر بن فهيرة.

ومن المدهش حقًّا أن يظل أمر الهجرة سرًّا على الرغم من تعدد المشاركين فيها، ومنهم رجل مشرك – هو عبد الله بن أريقط – وعلى الرغم من الثورة التي اشتعلت في قلوب المشركين في مكة، وتهديداتهم لأسرة أبي بكر، وعلى الرغم من الجائزة الكبرى التي رصدوها لمن يدلهم على محمد! وإذا كان علي بن أبي طالب أعظم مِنْ أن يُفشي سرًّا للنبي، فإن أسماء بنت أبي بكر وهي فتاة رقيقة، كان من الممكن نظريًّا أن تضعف أمام التهديدات والضرب، وتقول شيئاً يوقفهم أو يكف أذاهم عنها. وكذلك عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، لكن الجميع كتم السر كتماناً تامًّا، وكان ذلك هو سر النجاح.

والنبي ﷺ هو الذي اختار أولئك الأفراد، ومعه صديقه أبو بكر الصديق، من بين كثيرين من الرجال والنساء في مكة المكرمة.

وكان عبد الله بن أبي بكر عُرْضةً لانكشاف أمره، لأنه كان يتردد على غار ثور يحمل أخبار المشركين إلى النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، والأرجح أنه كان مُراقَباً من قِبل المشركين.

وكانت أسماء مثل أخيها، تتردد على الغار حاملة الطعام إليهما، وتتعرض للملاحقة والانكشاف.

ومن المثير للإعجاب والدهشة أن أحداً لم يكشف أمرها أو أمر أخيها! وقد كانت غالباً تحت المراقبة اليقظة.

وربما كان دور عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، هو الذي غَشَّى على حركة

أسماء وعبد الله، فقد كان يرعى الأغنام في الطريق إلى الغار لكي يمحو آثار أقدامهما.

يقول المسلم المؤمن بنبوة محمد: إنها رعاية إلهية تلك التي ضمنت النجاح للهجرة، والقرآن الكريم يقول﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ (التوبة: ٤٠). وهذا هو التفسير الوحيد الممكن لكل الغرائب التي حدثت في الهجرة.

ويقول غير المسلم إنها الحكمة المحمدية التي دبَّرت وخططت، واختارت الرجال والنساء، وحددت المواقيت والغايات بدقة، ولذلك أفلح محمد وأخفق أعداؤه. لكن هذا لا يفسر ما أشَرتُ إليه في أعمال أسماء بنت أبي بكر وعبد الله وعامر بن فهيرة. وفضلاً عن هذا، هو لا يفسِّر ما جَرى في الغار، وخصوصاً إغلاق العنكبوت لباب الغار.

ولا مفر أمام الباحث الموضوعي من الاعتراف بدقة التدبير، والتنفيذ، على أسس واقعية احترمت الأسباب والمسببات، ولكنها كانت مشمولة برعاية إلهية عبَّر عنها القرآن الكريم بالجنود الذين أيَّدوا النبي دون أن يراها البشر.

أي أن الحكمة المحمدية دُعِّمَت بمعجزة إلهية[١].

ولقد عاش محمد ثلاثة وستين عاماً، خالط فيها المئات من العرب واليهود والنصارى، فلم يحدث قط أن اتهمه أحد بالكذب.

وقبل أن يلقى الرفيق الأعلى كان قد أنشأ دولة وأسس أمة، وبعيد وفاته وقع الزلزال الأكبر في بناء الأمة، إذْ ارتدت معظم القبائل وتمردت، لكن تلاميذ محمد

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٤٨٠ - ٤٩٢، والطبقات الكبرى لابن سعد؛ ١ / ٣٢٠.

العظام تصدوا للردة، وحفظوا للأمة كيانها بقيادة الزعيم العظيم أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

حياة محمد والكمال الإنساني

وفي ختام دراسته العلمية الدقيقة العميقة، الشاملة، يقول الدكتور محمد حسين هيكل إن النبي محمد عاش "حياة إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القَدَر أن يحاول بلوغ الكمال الإنساني من طريق الإيمان والعمل الصالح، وأي سمو في الحياة كهذا السمو الذي جعل حياة محمد مضرب المثل في الصدق والكرامة والأمانة كما كانت بعد الرسالة: كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به، تضحية استُهدِفت حياته من جرائها للموت مرات، فلم يصده عنه أن أغراه قومه، وهو في الذروة منهم حسباً ونسباً، بالمال وبالملك وبكل المغريات"(١).

* * *

---

(١) حياة محمد؛ ص ٥٨٣ .

الفصل الثانى

الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

الحكمة منهج أساسي في دعوته

يأمر القرآن الكريم رسول الله ﷺ، بأن يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فيقول ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (النحل: ١٢٥).

ويقول القرطبي إنها تعني الدعوة إلى دين الله وشرعه "بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف"(١). ويجب أن نضيف المنطق العقلي واعتبار مآلات العمل إلى معنى الحكمة.

وقد ورد لفظ الحكمة في القرآن الكريم عشرين مرة، وتنص الآية الثانية من سورة الجمعة على أن تعاليم النبي هي الحكمة، فيقول الله تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ (الجمعة: ٢). فالحكمة هنا تعني السنّة، والله تعالى أعلم، فمنهج النبي ﷺ في الدعوة هو التزام بالحكمة، لأنه استند إلى القرآن الكريم وإلى سنته النبوية، وهما مصدر كل حكمة.

وإذا كانت الحكمة تعني ضمنًا **الأدلة العقلية والحوار المتزن الرصين الهادئ**، فإن الموعظة الحسنة تخاطب المشاعر والقلوب، فتحرك عواطف الأذكياء وتزلزل كيان البلداء الخامدين، والجدال بالتي هي أحسن حوار تتكامل فيه الحكمة الرصينة بالموعظة

---

(١) الجامع؛ تفسير الآية.

الجميلة، وآيات القرآن الكريم هي الأنموذج الأعلى لتكامل الحكمة والموعظة الحسنة، وهذا هو ما تبيّنه سُنة النبي ﷺ على امتداد حياته الشريفة، وفي منهج دعوته منذ اليوم الأول لبعثته المباركة.

قال الطفيل بن عمرو الدوسي إن رسول الله ﷺ عَرَض عليَّ الإسلام: "وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه. قال: فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق"(١).

والتقى رسول الله ﷺ في مكة بجماعة من يثرب منهم أنس بن رافع ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فقال: "هل لكم في خير مما جئتم له؟" فقالوا: وما ذاك؟ قال: "أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليَّ الكتاب." قال: ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن"(٢) فأسلموا وبايعوا.

فبالقرآن الكريم - دائماً - كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام؛ والقرآن الكريم عامر بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان رسول الله ﷺ يمزج بينهما في محاوراته مع المدعوِّين، بالتي هي أحسن: في المعنى وفي اللفظ وفي اللهجة.

وحين بعثَ رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، مع وفد العقبة الأولى، إلى أهل يثرب، أمره أن يقرئهم القرآن (٣) وبذلك يضمن الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وأفلح مصعب باتباع المنهج النبوي الشريف فأسلم على يديه خَلْق كثيرون. ودراسة ما دار في لقاءات مصعب بن عمير تكشف عن جوانب الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال الرصين البارع الذي أجاده الداعية الأول في يثرب.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٣٨٣.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٤٢٧.
(٣) نفسه؛ ١ / ٤٣٦.

ومن آيات الحكمة والموعظة الحسنة: **اختيار الوقت المناسب، والأسلوب المناسب للدعوة في هذا الوقت أو ذاك.**

فعن ابن مسعود قال: "كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا"(١).

وكان ﷺ رقيقاً رفيقًا في الدعوة، لكنه كان أحيانًا يغضب! فعن ابن مسعود الأنصاري قال: قال رجل يا رسول الله! لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوِّل بنا فلان! فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ! فقال: "أيها الناس! إنكم منفِّرون! فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة"(٢).

وقد اختار ﷺ وقت جنازة: "في بقيع الغَرْقَد"، ليعلِّم المشيِّعين درسًا في غاية الخطورة! قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه إن النبي ﷺ أتى الجنازة: فقعَد، وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ (عود). فَنَكَّسَ فجعلَ ينكتُ بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس مَنْفُوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة أوالنار، وإلا قد كُتبت شقيَّةً أو سعيدة، فقال رجل: يا رسول الله! أفَلا نتكل على كتابنا ونَدَعُ العملَ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال: أما أهل السعادة فَيُيَسَّرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فَيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاوة." ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (الليل: ٥)"(٣).

فهذا وقت تخيم على الناس فيه رهبة الموت، فتستعد قلوبهم لاستيعاب الدرس على خير وجه، وهو درس مَهُول، درس الكتاب المكتوب على كل فرد من البشر،

---

(١) أخرجه البخاري؛ كتاب العلم - باب ١١ - رقم ٦٨.
(٢) نفسه؛ باب ٢٨ - رقم ٩٠.
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح؛ فتح الباري؛ ٢٣ كتاب الجنائز - باب ٨٢ - رقم ١٣٦٢

يحدد مكانه من الجنة أو النار، وهذه هي القاعدة الأولى، **والدرس الثاني هو واجب العمل، وخطأ الاتكال على المكتوب**. وهذا الجواب النبوي الكريم هو الذي حار الفكر الفلسفي في العثور عليه، فذهب بعض الفلاسفة إلى تبني الجبرية وذهب آخرون إلى تبني الحرية، وتردد غيرهم بين الطرفين في لجاج طويل كثيف لا جدوى منه!

ومع امتداد الزمن وكثرة المذاهب الفلسفية والدينية التي عالجت مسألة القضاء والقدر، كانت هذه الموعظة النبوية الكريمة هي الفائزة في أية مقارنة علمية موضوعية بينها وبين تلك المذاهب.

الدعوة بالحجة والبرهان

والدعوة المحمدية بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، تستند إلى: العلم، وإلى الحقائق، والبراهين المقنعة، خصوصاً إذا توجهت إلى غير المسلمين. وهذه بدهية. لكن إذا توجهت إلى المسلمين وَجبَ إسنادُها إلى القرآن والسُّنة، وإلى حقائق العلم والمنطق جميعًا.

ولقد ادعى بعض الناقدين للإسلام أنه يستند إلى المعجزات والخوارق، لا إلى المنطق العقلي المبني على قوانين السببية. وهذا غير صحيح، وقد أكد القرآن الكريم أن الظواهر الفيزيائية والاجتماعية تخضع للسنن الإلهية المطردة الثابتة، ولم يستند النبي ﷺ في دعوته إلى الخوارق والمعجزات؛ وهذا واضح جلي في رسائله إلى ملوك عصره، فلم يذكر لهم كلمة واحدة عن الخوارق والمعجزات.

ويشرح ابن القيم مكانة السببية في نظام الكون فيقول: "بالأسباب عُرف الله، وبها أُطيع الله، وبها تقرب إليه المتقربون، وبها نال أولياؤه رضاه وجواره في جنته. وبها نصر حزبه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرَّع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي ومهتدٍ وغوي، فالوقوف معها والالتفات إليها والنظر إليها هو الواجب شرعًا كما هو الواقع قدرًا"[1].

---

(١) مدارج السالكين؛ ٣ / ٤٠٧ - ٤١٠.

وهذا الشرح أساسه قول الله تعالى ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (الأحزاب: ٦٢؛ الفتح ٢٣؛ فاطر ٤٣).

وأما الأناجيل فهي التي تعتمد على الخوارق والمعجزات، لا إلى براهين عقلية. مثال ذلك أن المسيح أمسك بيد امرأة محمومة وأقامها، فتركتها الحمى[١] وركب سفينة، وكادت الريح تغرقها، فأمر الريح أن يسكن، فسكن[٢] وقد أحيا الميت[٣] وكثر الخبز[٤]، بهذه المعجزات يراد للناس أن يؤمنوا بأن المسيح ابن الله أو هو الله! ولهذا وجدنا المسيحيين الغربيين يرتدُّون عن المسيحية بأعداد كبيرة بعد انتشار التعليم والاقتناع بالمنطق العقلي والمنهج العلمي الدقيق.

احترام المخالفين

ودعوة محمد ﷺ لغير المسلمين، بالحكمة والموعظة الحسنة، تُوجب التأدب في الحوار، واجتناب السباب والإهانة، حتى المشركين يجب اتباع هذا المنهج معهم، فيقول الله تعالى ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ (الأنعام: ١٠٨)

ويقول المودودي: "إن على المسلم أن يدعو الناس جميعًا إلى الإسلام بكل جرأة وحماسة، ولكن بدون أن يؤلم غيره ويجرح قلبه، أو يشاتمه أو يلاعنه أو يتحامل على عقائده، أو يحول بينه وبين مزاولة طقوس دينه ومراسمه أو يُكرهه على اعتناق دينه قبل أن يقنعه بصحته"[٥] ومخالفة هذه القواعد انتهاك صريح لمقتضيات الحكمة والموعظة الحسنة، وتورط في الجدال الممقوت بالتي هي أسوأ!

ومن المؤسف أن كثيراً من الكُتاب الغربيين لم يلتزموا بهذا الأدب في تعاملهم

(١) إنجيل مرقس - ١، ٣١ - ٣٢.
(٢) نفسه؛ ١، ٤، ٣٧ - ٣٩.
(٣) إنجيل لوقا - ٧، ١٢ - ١٦.
(٤) إنجيل يوحنا - ٦، ٩ - ١٣.
(٥) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة؛ ص ٤١.

مع ديننا وكتابنا ورسولنا ﷺ، **وأوغلوا في السباب الهابط المسف** إلى أحط الدرجات. يقول "إميل درْ منْجمْ": "لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هُوة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة، **ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف**، فمن البيزنطيين من أوْقَرُوا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم – فيما خَلا جان داماسيين – مؤونة دراسته."[١] ثم أورد سلسلة من السِّبَابِ المقذع الغليظ الذي ردده الكتاب الغربيون، يعف قلمي عن تسطيرها هنا. **ويعترف "وات" المؤرخ الذي كتب كتاباً عن "محمد في المدينة" أنه من بين جميع رجال العالم العظماء لم يُصَوَّر أحد بمثل هذه الصورة القبيحة، ولم يُؤذَ أحد كما صُور رسول الله وكما أوذي**[٢].

والحق أن تحسناً طرأ على كتابات الغربيين ضد الإسلام ورسوله منذ منتصف القرن العشرين تقريباً، لكنهم لم يتوقفوا عن الاتهامات الرعناء ضد الرسول ﷺ وضد الإسلام، وما قاله الجنرال الأمريكي "بوكين" في نهاية أكتوبر سنة ٢٠٠٣ لن يكون آخر السباب المنحط، وللأسف، رفضت الإدارة الأمريكية اتخاذ موقف من رجلها العسكري، وقد صوروا النبي إرهابيًّا في الرسوم الكاريكاتورية، في عدد من الصحف والمجلات الغربية.

وموقف الطرف غير المسلم في الجدال يؤثر على نوع الجدال المشروع، قال تعالى ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

نعم للحوار، لا للإسفاف!

ولقد رفض المسلمون كل انحطاط في الحوار، وفَنَّدُوه، لكنهم لم يتورطوا في

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل؛ حياة محمد؛ مكتبة النهضة المصرية؛ ط ٩ ص ١٠.
(٢) الدكتور محمد ماهر حمادة؛ مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ؛ نشر دار العلوم بالرياض؛ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م؛ ص ٥٥.

الشتائم المُسِفَّة والاتهامات الزائفة، والإهانات البذيئة، واحترموا ضوابط المنهج القرآني الذي ينهى عن سب المخالفين، على الرغم من أنهم سَبُّوا الله ورسوله، ولا يزالون يفعلون، وهذا الموقف يجسِّد الحكمة النبوية في أرقى صورها.

ولقد يقال إن المسلمين ترفعوا عن سب موسى وعيسى عليهما السلام لأنهم يؤمنون بهما بحكم القرآن الكريم، غير أن المسلمين لا يؤمنون بـ"متى" و"يوحنا" و"لوقا" و"يهوذا" و"إرميا" و"حزقيال"، وكان من الممكن أن يكتبوا عنهم بالأساليب المنحطة ذاتها التي كتب بها الغربيون عن رسول الله ﷺ، في القديم والحديث.

لكن هذه العفة اللسانية الرفيعة لا تمنعنا نحن المسلمين من بيان الخطأ في أية ديانة تزاحم الإسلام، وهذا ما حدث أحياناً، فقد تطاول قس مصري على الإسلام وحاول التشكيك في السُّنة النبوية، فتصدى له الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله وأفْحمه، وأظهر ضعف الإسناد في نصوص الأناجيل، بل عدم وجودها، الأمر الذي يشكك في نسبة الأناجيل إلى المسيح عليه السلام، فَنَّدَ أبو زهرة اتهامات القس إبراهيم سعيد بكل موضوعية وإنصاف، وأظهر تهافتها إظهاراً قويًّا، دون أن يهبط إلى حضيض الشتائم الذي وَلَغَ فيه كثير من كتاب الغرب المتعصبين (١).

وحتى في عصر الاحتكاك العنيف بين المسلمين والنصارى في الأندلس – في القرن الخامس الهجري – لم يتجاوز الإمام ابن حزم – رحمه الله – في نقده للنصرانية حد التكذيب، كقوله: "فما كان "يوحنا" و"متى" و"بولس" إلا كفاراً كاذبين، وما كانوا قط من صالحي الحواريين"(٢).

---

(١) راجع كتابه: محاضرات في النصرانية؛ دار الفكر العربي؛ ط ٤ سنة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م؛ ص ١٠٢ – ١١٠ – الفقرات من رقم ٥٨ إلى رقم ٦٢.

(٢) راجع كتابه: الفصل في الملل والأهواء والنحل؛ تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر والدكتور عبدالرحمن عميرة؛ نشر دار الجيل؛ بيروت (بدون تاريخ)؛ ١ / ١٢٧.

الحوار مع أهل الكتاب

وكان النبي ﷺ يواجه أهل الكتاب من اليهود والنصارى منذ فجر الدعوة. وقد نزلت في ذلك آيات بينات تنظم الحوار معهم، من ذلك قوله تعالى ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ (االشورى: ١٥). قال ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما: الخطاب لليهود[١] فالحق تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ بأن يدعوهم إلى الإسلام، وأن يستقيم في فكره وعمله كما أمره الله تعالى، وينهاه عن اتباع أهوائهم، مع الإعلان عن إيمانه بما أنزل الله تعالى من الكتب على أنبيائه السابقين صلوات الله وسلامه عليهم. فلا يجعل مخالفتهم له سبباً في رفض الإيمان بما أنزل من كتب على أنبيائهم، وهو يُعْلنهم بأنه لن يظلم أحداً منهم، لأنه مأمور بالعدل بينهم، وإذا مَضَوا في المخالفة والعناد، فلنا أعمالنا ولهم أعمالهم، فكل إنسان مسئول عن عمله أمام الله تعالى، ولا يبقى بيننا مجال للجدال والمحاجة مادمتم معاندين ومصرين على الكفر بما جئتكم به من كتاب.

إلامَ ندعو أهل الكتاب؟

ويحدد القرآن الكريم العقيدة الدينية التي يجب أن ندعو أهل الكتاب إليها فيقول رب العزة لنبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقد عمل النبي ﷺ والمسلمون من بعده بهذه الآية الكريمة، فدعوا أهل الكتاب إلى عقيدة التوحيد، فتقبلها بعضهم، ورفضها البعض الآخر، وكان المسلمون هم الحكام السياسيين، أصحاب السلطان، وعلى الرغم من ذلك لم يحاولوا قهر أحد على

(١) القرطبي؛ الجامع؛ تفسير الآية ١٥ من سورة الشورى.

اعتناق التوحيد، امتثالاً لهذه الآية الكريمة، ولقوله تعالى ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) . وعاش أهل الكتاب في وسط المجتمع المسلم في أمن وأمان، وحرية، يمارسون شعائر دينهم، وينشطون في مجالات التجارة والمال، إلاَّ في أوقات استثنائية سادها التوتر والاضطراب .

والسيرة النبوية تشهد بأن النبي ﷺ لم يكف يومًا عن الجدال بالتي هي أحسن، في سبيل الله، أليست المفاوضات التي أجراها النبي مع اليهود في المدينة، ومع زعماء غطفان من حلفاء قريش واليهود، وعلى رأسهم عيينة بن حِصن قد اتخذت شكل محاورات وجدال؟ وقد ذهب سنة أربع هجرية إلى بني النضير من اليهود، يفاوضهم، ويستعينهم في دية قتيلَيْن، وقد أعلنوا الموافقة، بعد جدال لم يسجله التاريخ، لكن من الطبيعي أن تكون قد جرَت بين الطرفين مفاوضات أو مجادلات .

وجرت مجادلات عديدة بين المسلمين والمسيحيين في الشام واليمن ومصر والأندلس، فلم يستعمل المسلمون سلطانهم لقمع المتجادلين من أهل الكتاب . وتحولت المحاورات إلى جدال عنيف أحياناً، وسجل التراث الإسلامي الكثير من ذلك، فكان الجدال مكوناً أساسيًّا في تراثنا الإسلامي القديم والحديث، ولعل من أبرز المؤلفات في مجادلة أهل الكتاب كتاب "الفُصَل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم الظاهري رحمه الله . لكن أصل الجدال والأنموذج الأعلى له جدال رسول الله ﷺ .

كشف تناقض الطرف الآخر مع نفسه

ولقد دخل ﷺ "المِدْراس" – وهو المكان الذي يتدارس اليهود فيه التوراة، فسأله النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : **"عَلَى أيِّ دينٍ أنت يا محمد؟ فقال لهما** رسولُ الله ﷺ : عَلَى مِلَّةِ إبراهيم ودينه ." قالا : فإن إبراهيم كان يهوديًّا . فقال لهما رسول الله ﷺ : **"فَهَلُمَّ إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم ."** فأبيَا عليه (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٥٥٢ ، ٥٥٣

فكان ﷺ يريد الاحتكام إلى كتابهم. ولكنهم رفضوا لعلمهم أنه لا يقول إن إبراهيم كان يهوديًّا.

وهذا المنهج لا يزال صالحاً اليوم. ففي مسائل عديدة يخالف اليهود والنصارى كتبهم مخالفات حادة؛ وبعضهم ارتد ونبذ التوراة والإنجيل، كذلك يخالف الأوربيون والأمريكيون المبادئ التي تقوم عليها فلسفاتهم ودساتيرهم مخالفات جسيمة في تعاملهم مع المسلمين. وتثور هذه الأيام مشكلة أسْرَى "جوانتانامو" الذين أسَرَتْهم أمريكا في أفغانستان وترفض تطبيق القوانين الأمريكية والدولية عليهم، وترفض محاكمتهم، أو سماع أقوالهم، وتوكيل محامين للدفاع عنهم.

لكن محكمة الاستئناف الفيدرالية في سان فرانسيسكو قضت بأن الأشخاص الذين تحتجزهم السلطات الأمريكية للاشتباه في أنهم إرهابيون لهم الحق في الحصول على تمثيل قانوني والمحاكمة تحت طائلة القانون الأمريكي، وقضت بمثل هذا الحكم محكمة استئناف أخرى في كاليفورنيا(١) وتحت ضغوط داخلية وخارجية بدأت السلطات الأمريكية تتحدث بلغة أقل تشدداً، وشرعت تبحث حالات خاصة لمساجين من جنسيات غربية، توطئة للإفراج عنهم، وأفرجت عن بعضهم في يوليو سنة ٢٠٠٤م.

وتسعى أمريكا لاستثناء جنودها من حكم القوانين التي تجرم كثيراً من الأفعال الحربية، لكي يعيثوا فساداً دون رادع، وتخالف الإدارات الأمريكية الكثير من المُثُل الأمريكية نفسها، وكانت الجالية المسلمة عُرْضَةً لاعتداءات إجرامية عديدة، مارستها السلطات بحكم ما يسمى قانون الإرهاب وقانون الأدلة السرِّية، وهما قانونان غير شرعييْن لتنافيهما مع المواثيق الدولية لحقوق الإنسان.

---

(١) نشرت الخبر صحف يوم ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٣.

وقد نجح المسلمون في أمريكا في كسب شطر كبير من الرأي العام الأمريكي اعتماداً على تذكير الجماهير بالتناقض بين المثل الأمريكية وتطبيقات الإدارة الأمريكية.

الرسول يجادل المشركين

وقد سجل ابن هشام العديد من المجادلات بين النبي وبين رُسل قريش إليه بشأن "الحديبية"، ولم يكن من الحكمة رفض ذلك، كما يفعل بعض السياسيين اليوم. وقد احتدم جدال عنيف بين الطرفين حين قال ممثل قريش "عروة بن مسعود الثقفي": "يا محمد! أَجَمَعْتَ أَوْشَابَ الناس (يعني أخلاط الناس)، ثم جِئْتَ بهم إلى بَيْضَتِك لِتَفُضَّها بهم ... وايْم الله، لَكَأنِّي بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً!

فَرَدَّ أبو بكر الصديق على إهانته قائلاً: امْصُصْ بَظْرَ اللاَّت!! أنحن ننكشف عنه؟! فكانت إهانة بإهانة، والبادئ أظلم.

وكان عروة بن مسعود عنيفاً عدوانيًّا في ألفاظه وحركاته، فكان يتناول لحية رسول الله بيده وهو يكلمه، و "المغيرة بن شعبة" يضربه عليها ويقول: اكْفُفْ يدك عن وجه رسول الله ﷺ (١).

فهذا جدال عنيف، جرى فيه سباب وإهانات من قِبل المشركين؛ فكان جدالاً بالتي هي أسوأ. وكان من حق المسلمين أن يهينوا من أهَانهم؛ كما فعل أبو بكر الصديق، والمغيرة بن شعبة، رضي الله عنهما و﴿ **جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا** ﴾ (يونس: ٢٧).

*وعلى سُنة رسول الله ﷺ، وعلى هَدْي كتاب الله تعالى سار الراشدون وسائر الصحابة رضى الله عنهم، يحاورون ويجادلون في سبيل نشر الإسلام في العالمين، ولولا الخوف من الإطالة لأَوْردت مئات المجادلات بالتي هي أحسن، وبالتي هي أسوأ!

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣١٣

وكتب العلوم الإسلامية تطفح بالمناظرات والمجادلات بين الفقهاء والأئمة وأتباعهم، وبين الملوك والأمراء والقادة العسكريين، ومع انتشار الإسلام واختلاط المسلمين وغير المسلمين في الشام واليمن ومصر والأندلس، جرت مئات المجادلات بين علماء المسلمين وبين حاخامات اليهود ورهبان النصارى، واحتفظ لنا التاريخ بالكثير منها.

ومن أوسع المراجع في الجدال بين الفرق الإسلامية مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وخصوصاً كتابه: "بيان تلبيس الجهمية" الذي بلغ عدد صفحاته ١٢١٦ صفحة من القطع الكبير. وهو يشرح مذهب أهل السُّنة في مواجهة الجهمية والقائلين بالقدر، والمعتزلة، ويُعد كتاب: "المُحَلَّى" لابن حزم من أكثر الأعمال الإسلامية ميلاً إلى الجدال مع المخالفين من الفقهاء، كما يُعد كتاب "الفُصَل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم أيضاً من أعنف كتب الجدل ضد الفلاسفة واليهود والنصارى[١].

وكتب الجاحظ (عمرو بن بحر - ٧٧٥ - ٨٦٨م) "رسالة الرد على النصارى".

وكتب اليهود والنصارى الكثير في معارضة الإسلام.

المفاوضات حكمة سياسية عظيمة

ولما اشتد على المسلمين البلاء بسبب حصار الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق بعث النبي ﷺ إلى زعماء غَطَفان - عيينة بن حصن والحارث بن عوف - مَنْ يفاوضهما على فك الحصار نظير ثلث ثمار المدينة، ثم جَرَى بعد ذلك جدال حكيم بينه ﷺ وبين الصحابي الجليل سعد بن معاذ والصحابي الجليل سعد بن عبادة رضي الله عنهما، واستشارهما قبل أن يعقد الصفقة مع غطفان.

قال الصحابيان الكبيران للنبي: يا رسول الله! أَمْراً نُحبه فنَصْنَعُه، أم شيئاً أمَرَك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنَعُه لنا؟

---

(١) ابن حزم توفي سنة ٤٥٦هـ.

قال عليه الصلاة والسلام: "بل شيء أصنَعُه لكم، واللهِ ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيتُ العربَ قد رَمَتكم عن قَوْسٍ واحدة، وكالَبُوكم من كل جانب، فأرَدْتُ أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمرٍ ما". وهذه حكمة سياسية عظيمة.

فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كُنَّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلاَّ قِرىً (أي ضيافة) أو بيعاً، أفَحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا ؟! واللهِ مالنا بهذا من حاجة! واللهِ لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللهُ بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: "فأنت وذاك." يعني: لك ما تشاء.

وتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمَحَا ما فيها من الكتاب، ثم قال: "ليَجْهَدُوا علينا"(١).

اقتبستُ هذا الجدال بطوله لأبيِّنَ أن الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن كان منهجاً أساسيًّا في معالجة أمور المسلمين فيما بينهم، وفيما بينهم وبين غيرهم، وهذا شيء طبيعي، لأن الحياة البشرية في كل زمان ومكان تحتاج إلى هذا المنهج المفيد.

متى يجب وقف الجدال ؟

ومن الحكمة وقف الجدال إذا تحول إلى مكابرة! ويوجه ربنا جل جلاله نبيه ﷺ والدعاة من أتباعه فيقول ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ**﴾ بغير علم أو برهان - ﴿**فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ (آل عمران: ٢٠).

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٢٢٣. وكالبوكم يعني: اشتدُّوا عليكم.

وهكذا انتشر الإسلام فى مكة والمدينة وفى العالم كله، دون إكراه أو إجبار.

لكن كثيرا من الكتاب الغربيين يزعمون أن الإسلام انتشر بحد السيف.

والحق أن الإسلام حورب فى مكة حربا شعواء، حتى هاجر المسلمون إلى يثرب، وكان عددهم صغيراً جداً، وحملت تلك الأعداد القليلة دينها الجديد إلى أقوامهم في يثرب، فشرعت تدعوا إلى اعتناقه، فاستجاب لها عدد قليل، ظل يزداد يوماً بعد يوم، دون إكراه أو قسر.

وأرسل النبي ﷺ الداعية الأول مصعب بن عمير رضى الله عنه إلى يثرب، واصطنع الداعية الأول منهج النبي ﷺ، فكان يقرأ القرآن على من يجلس إليه، وكان التوفيق حليفه، إذ أسلم على يديه أُسيد بن حُضَيْر، وسعد بن معاذ. وقد تبعه قومه إلى الإسلام [1] وانتشر الإسلام في المدينة باستثناء دار أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف، ولم يرد أي ذكر للإكراه أو القسر أو الإغراء!

ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وأسلم من أهلها من أسلم وظل على شركه من لم يؤمن بالإسلام، ونافق من نافق، وعقد النبي عقداً مع اليهود نص على أن لهم دينهم وللمسلمين دينهم، لكنهم لم يوفوا به، وخططوا لقتل النبي، لكنهم فشلوا ثم شرعوا في إثارة المشكلات الدينية للتشكيك في نبوة محمد، **ومع ذلك لم يكره النبي أحداً منهم أو من غيرهم على الإسلام.**

ولم تكن غزوات النبي ﷺ بقصد إكراه العرب على الإسلام، فغزوة بدر كان هدفها الاستيلاء على قافلة قريش التجارية لتعويض المهاجرين الذين نهبت أموالهم بمكة. وغزوة الخندق أشعلها مشركو مكة بُغية استئصال محمد وأتباعه، وفتح مكة كان دفاعاً عن حلفاء النبي الذين تعرضوا لغدر قريش، ومقتل عدد منهم، وبعد أن تم فتح مكة لم يجبر المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام، ونزل القرآن الكريم بقواعد للتعامل بين المسلمين والمشركين في ظل الدولة المسلمة الجديدة، فليس للشرك مكان في أراضيها ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾

[التوبة: ١١]

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

فنحن نؤكد أن الإسلام لم يتساهل مع الشرك والوثنية، ولم يتسامح مع عادات الجاهلية، وبعد فتح مكة خيَّر النبي ﷺ المشركين بين الإسلام والقتال ولا ثالث! وحرم قبول الجزية من المشركين، بل كان من الضروري أيضاً تصفية الوجود اليهودي نهائيًّا من عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة، وألا يترك في جزيرة العرب دينان، كما قال النبي ﷺ، وكان على المشركين حتماً أن يختاروا الإسلام، ولو نفاقاً أو تعوذاً من سيوف المسلمين، وترقباً لفرصة يقوى فيها جانبهم، ويضعف فيها المسلمون، فيثبون عليهم، لكن ما أن اختلطوا بالمسلمين، وسمعوا منهم وعرفوا حقيقة الإسلام حتى انشرحت صدور الأغلبية الساحقة منهم للإيمان به، وانقلبوا إلى مجاهدين مقاتلين في سبيله، فكان "الإكراه" لحظات للبعض، وساعات أو أياماً للبعض الآخر، لكنه لا يمكن أن يُنكر، وقد حاصر الإسلام الشرك، وحرم على المشركين مجرد الاقتراب من المسجد الحرام، وقد كانوا يحجون ويطوفون وهم عرايا فحرم ذلك عليهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال النبي ﷺ: "لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان" (١) وبعد أن استمكن الإسلام، حطم النبي الأصنام بيده الشريفة في مكة، وكذلك أرسل "الطفيل ابن عمرو" ليحرق صنم "عمرو بن حثمة" الذي كان يسمى "ذا الكفين"، فأحرقه (٢) ويقول جرير رضى الله عنه "كان بيت في الجاهلية يقال له "ذو الخَلَصة"، فقال النبي ﷺ "ألا تريحني من ذي الخلصة؟ فنفرت في مائة وخمسين راكباً فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، (من الحراس الذين قاتلوا دونه). فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس (وأحمُس هم قوم جرير) (٣) ويعلق ابن حجر رحمه الله على هذا

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) فتح الباري؛ حديث رقم ٤٣٩٣ ، ٨ / ١٠٣ .
(٣) نفسه؛ حديث رقم ٤٣٥٥ ص ٧٠ .

الحديث فيقول: "وفي الحديث مشروعية إزالة ما يفتن به الناس، من بناء وغيره، سواء كان إنساناً أو جماداً " [1] فالفتنة كما علمنا سلفاً عدوان على أعظم القيم الإسلامية، وهي: "الدين"

ونحن نعتز بهذه الأعمال التي مورست ضد الوثنية، لتفتح كل الأبواب أمام البشر كي يعرفوا الإسلام وتزيل من الوجود كل صنم وتحطم كل طاغوت، وفي هذه الأعمال قسر على ترك الوثنية، لكن ليس فيها إكراه على "اعتناق" الإسلام، لأن الإكراه على "اعتناق" دين ما مستحيل، ولقد ينافق الناس خوفاً، لكنهم لا يؤمنون! (مع ملاحظة أن الإكراه حرام إسلاميًّا إذا كان المدعو إلى الإسلام كتابيًّا). وإذا قيل إن إكراه المشركين على النفاق يضاد "حرية الاعتقاد"، قلنا: إن الإسلام يفضل: "الإكراه على معرفة التوحيد"، على: "الحرية في عبادة الأوثان!"، وما تنطوي عليه من وأد للبنات، ونهب متبادل للأموال، وتفان وإهلاك لا ينقطع بين القبائل، وربا فاحش، وفحشاء رابية، وتشرذم مهلك، ومظالم رهيبة، وإدمان للخمر والميسر، وغير ذلك من الموبقات. فإن هذا هو العمل العظيم الذي يسميه القرآن الكريم الإخراج من الظلمات إلى النور: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالإسلام يحترم حرية العقيدة، ويحرم الإكراه على الإيمان ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولكن حين تهبط الحرية بالبشر إلى مهاوي الوثنية فإن الإسلام يقدم عليها كرامة الإنسان، ويبيح "الإكراه على الكرامة!" إن صح هذا التعبير، أو: "إكراه على الخروج من ظلمات الوثنية إلى نور التوحيد". ومن السفاهة بمكان أن يقول بعض المستشرقين إن هذا العمل الإنساني العظيم: "دعوة إلى التعصب لا تتفق مع ما ترضاه الحضارة الفاضلة من تسامح.." [2] فليست بحضارة،

(١) فتح الباري؛ حديث رقم ٤٣٥٥، ٨ / ٧٣.
(٢) الدكتور هيكل: حياة محمد؛ ص ٤٧٤.

ولا هي بفاضلة تلك التي تريد ترك البشر يعبدون الأصنام، ويتمرغون في الأوحال. ولقد كان الفرق الهائل بين ظلمات الجاهلية ونور التوحيد كفيلاً بنقل الملايين من العرب في زمن قياسي من وهدة الوثنية إلى ذرى التوحيد المنزه عن الشريك والمثيل.

أما أهل الكتاب فقد تركت لهم حرية العقيدة، وعلى الرغم من ذلك أقبلت الملايين من النصارى، في الشام ومصر واليمن وشمال إفريقية، على اعتناق الإسلام، طائعة مختارة.

وصفوة القول إذن إن المسلمين أكرهوا المشركين على "معرفة" الإسلام، وترك الوثنية، ولم يتسامح الإسلام في أي بلد حكمه مع عبدة الأصنام والأوثان، وسيوف المجاهدين المسلمين هي التي أزالت كل عائق بين الإسلام والناس، وهي التي حطمت الأصنام في مكة، وسحقت "ذا الكفين"، "وذا الخلصة"، وقضت على كل طاغوت من البشر، وسيوف المسلمين هي التي فتحت الشام ومصر وبلاد فارس وشمال إفريقية، وأتاحت لشعوبها أن يعرفوا الإسلام، فأسلم بعضهم طوعًا وبقيت منهم الملايين على دينها إلى اليوم، وسيوف المسلمين هي التي ردت عدوان المشركين، وأحبطت الفتن، وأهلكت المرتدين ومدعي النبوة، ولكن سيوف المسلمين ذاتها ما كانت بأي حال إلا ثمرة الإيمان، وما كانت انتصاراتها إلا جائزة منحها الله تعالى للمؤمنين المخلصين الذين قاتلوا في سبيله، فالإسلام هو الذي أنشأ أعظم القادة، وأشجع الجيوش، وأقام أقوى الدول، والإسلام هو الذي رد الصَّليبيين، وسوف يرد كل فتنة قائمة أو قادمة. فلا يسع أحداً أن ينكر أن المقاتل هو الذي أفسح أوسع المجالات أمام العقيدة لتُعرَف، وليؤمن بها من يؤمن، ويكفر بها من يكفر، ولا يسع أحداً أيضاً أن ينكر أن المسلمين مارسوا نوعاً من الإكراه ما كان ليحيل المشركين بعد بضعة أشهر فقط إلى مجاهدين في سبيل الإسلام، وإنما الإيمان الحق الصادق هو وحده الذي يصنع مثل تلك المعجزة الخارقة.

وأقبلت الوفود من مختلف القبائل العربية على المدينة المنورة طائعة مختارة لتعلن دخولها في الإسلام، وسجل القرآن ذلك الحدث الكبير، فقال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣] فلا سيف ولا حرب ولا إكراه، بل دخول طوعي عن اقتناع لدى معظم القبائل العربية ودعوة ملتزمة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ودعا رسول الله ﷺ كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي وملكي عمان، وملكي اليمامة وملك البحرين وملك تخوم الشام إلى الإسلام، فلم يتوعدهم بالسيف والقتل، ولم يعلن الحرب على الذين ردوا الدعوة ورفضوها.

وهذه الملايين العديدة التي اعتنقت الإسلام في مصر والشام واليمن وفارس، هل اعتنقته تحت تهديد السيوف؟ بالعكس، كان بعض الحكام المسلمون يحرصون على الجزية، ولا يرحبون بدخول اليهود والنصارى إلى الإسلام، ولقد اشتكى أحدهم لعمر بن عبد العزيز، الخليفة العادل العظيم، فرد عليه بقوله: إن محمداً بعث داعيًا ولم يبعث جابيًا!

ومعروف للكافة أن الملايين من سكان آسيا أسلمت بدعوة التجار المسلمين لهم، وبما لمسوه في مسلكهم مع الآخرين ومع أهليهم وجيرانهم، بلا سيف ولا حَيْف ولا عنف من أي نوع! ولا تزال آسيا موطنًا لأكبر الدول المسلمة سكانًا: إندونيسيا وباكستان والهند.

وينتشر الإسلام اليوم في البلاد الغربية بسرعة ملحوظة، على الرغم من الحملات المتواصلة في الإعلام والفنون ضد الإسلام ورسوله، مع التركيز على وصف النبي بالإرهابي، وقد كُتب الكثير عن الكبراء الذين انتقلوا من اليهودية والنصرانية إلى الإسلام منهم محمد مارمادوك بكثول الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى

الإنجليزية، ومحمد أسد الذي أتقن العلوم الإسلامية كي يعمل عضواً في لجنة وضع الدستور الباكستاني وسفيرا لباكستان في الأمم المتحدة، والدكتور مراد هوفمان الذي كان سفيراً لحلف الناتو؛ وقد شهد برنارد شو للنبي بأنه منقذ الإنسانية، ورجاء جارودي، وبوكاي الذي ألف أعظم كتاب في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

ومن المدهش أن التصرفات الأمريكية القمعية من جانب الشرطة ضد المهتدين إلى الإسلام جاءت بردة فعل إيجابية لصالح الإسلام، فتضاعفت أعدادهم، وأقبلت الجماهير على الكتب الإسلامية، هذا ما أكده السيد / خالد عوض رئيس مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية، وتشير الأرقام المنشورة إلى أن ٢٤ ألف أمريكي أشهروا إسلامهم بعد حادثة ١١ – ٩ – ٢٠٠١ ، وذلك رقم قياسي لم تبلغه أعداد المهتدين إلى الإسلام في أمريكا من قبل.

ولقد كتب "بول فاليلي" مقالاً طويلاً في صحيفة الإندبندنت البريطانية عن المسلمين الجدد في بريطانيا على مساحة ربع صفحة، ذكر فيه أن ٨٠٠ شخص بريطاني يعتنقون الإسلام سنويًّا في منطقة "مارك فيلد" وحدها، وتحدث "فاليلي" إلى النساء المتحولات إلى الإسلام (في المؤسسة الإسلامية) فظهر له أنهن يعرفن الإسلام معرفة جيدة، من ذلك مثلاً أن إحداهن قالت إن الكاثوليكية تتغير بحسب رغبات البشر (وهذا ما يعرفه الغربيون عامة)، لكن الإسلام يطلب من المسلمين أن يغيروا أنفسهم لكي يتسقوا مع أوامره، ودافعت سيدة أخرى عن الشريعة الإسلامية التي تُتهم في الغرب بسوء معاملة المرأة!

ويمكن القول إن إخراج المسلمين من الإسلام يتم اليوم "بحد السيف الإعلامي والأمني" ! وقد شكت المسلمات البريطانيات من مضايقات الشرطة البريطانية، من ذلك أنهم يطلبون جوازات سفرهن (يعني هم يرون أنهن أجنبيات

لارتدائهن الحجاب) ولا يطلبون بطاقاتهن الشخصية، ولا يفعلون ذلك مع الهنديات والإفريقيات السافرات، وتعلق البروفسيرة "آنا ماري شيمل" على مثل هذه المضايقات قائلة: إن على كل من يدافع عن الإسلام أن يؤدي ضريبة ذلك! وقد أدت هي شخصيًّا تلك الضريبة حين حاول المتعصبون ضد الإسلام حرمانها من جائزة كبرى كان قد تقرر منحها لها، لكن السلطات المسئولة أبت الإذعان للمتعصبين (وكان منهم سلمان رشدي الكاتب الهندي المرتد عن الإسلام، مؤلف الآيات الشيطانية).

وفي العالم الإسلامي اليوم ضغوط كبيرة لإبعاد الشباب عن المساجد، ولا يعرض فيلم سينمائي أو مسلسل تليفزيوني دون إقحام مشاهد لشباب مسلم متهم بالإرهاب، وتلصق به اتهامات زائفة وأفكار مضحكة بلهاء، ويبدو أن الهدف هو إبعاد الشباب عن الإسلام، تحت ضغوط غربية وأمريكية، وعلى الرغم من هذا يلاحظ أن الالتزام بالإسلام يتزايد بين النساء والرجال.

هذه هي الحقائق عن "انتشار الإسلام بحد السيف!" والحقائق تكذب تلك المقولة، وتثبت أن الإسلام انتشر وينتشر بقوة عقيدة التوحيد المنزه عن الشريك والمثيل وبعدالة شريعته التي لا تعرف التفرقة العنصرية، وبأخلاقياته السامية التي تقوم على كبح الأنانية، والعمل لصالح الآخرين دون انتظار لجزاء من غير الله تعالى والالتزام بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولا يفوتني أن أشير إلى حقيقة نشر المسيحية بحد السيف في بلاد عديدة، مثل الدانمارك، وأبشع صور الإكراه على المسيحية ما صنعه الإسبان في محاكم التفتيش. ولولا خشية الخروج عن موضوعنا لأوردت نماذج بشعة!

* * *

الفصل الثالث

الأدلة الشرعية والعقلية والعلمية على صحة نبوة محمد ﷺ

تصنيف الأدلة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية إن وصف دليل من الأدلة بأنه "عقلي" أو "سمعي": "يبين الطريق الذي عُلم به".

والدليل الشرعي: "قد يكون سمعيًّا (يعني: مأخوذًا من القرآن أو السنة)، وقد يكون عقليًّا؛ فإن كون الدليل شرعيًّا يُراد به: **كون الشرع أثبته وَدَلَّ عليه؛ ويُراد به: كون الشرع أباحه وأذن فيه**. فإذا أريد بالشرعي ما أثبته الشرع، فإما أن يكون معلومًا بالعقل أيضًا ولكن الشرع نبَّه عليه ودل عليه، فيكون شرعيًّا عقليًّا".

"وهكذا الأدلة التي نَبَّهَ الله تعالى عليها في كتابه العزيز - من الأمثال المضروبة وغيرها، الدالة على توحيده وصدق رسوله، وإثبات صفاته، وعلى المَعَاد. فتلك كلها أدلة عقلية يُعلم صحتها بالعقل، وهي براهين ومقاييس عقلية، وهي مع ذلك شرعية"(١) فإذا ورد دليل في الكتاب أو السُّنَّة فهو دليل شرعي، فإذا علمنا صحته بالعقل كان عقليًّا، إلى جانب كونه شرعيًّا.

وقد واجه محمد ﷺ كثيراً من عبدة الآلهة الوثنيين، وكان دليله على فساد تعدد الآلهة قول الله تعالى ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢] فهذا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل؛ ١ / ١٩٨، ١٩٩.

دليل شرعي لأن القرآن هو الطريق الذي عُلم به؛ لكنه أيضًا دليل عقلي لأن العقل البشري لا يمكن أن يتقبل تعدد الآلهة، لأن التعدد لا يمكن أن يفسر ظواهر النظام الكوني المذهل، وتكامل المخلوقات البشرية والحيوانية والمادية. وقد لفت القرآن أنظار الخلق إلى تأمل "الأنفس" و"الآفاق" لأنه يؤدي إلى الاقتناع بالتوحيد.

وإلى تصنيف الأدلة إلى: شرعية عقلية، أو عقلية شرعية، تضاف الأدلة الكونية والعلمية التي يمكن أن توصف بأنها شرعية وعقلية على أساس تصنيف ابن تيمية.

الأدلة في مجال العمل

ويقرر الإمام الغزالي أن الأدلة الشرعية في مجال العمل أربعة، هي: الكتاب والسُّنَّة والإجماع ودليل العقل.[1] هذا في مجال العمل أو الفقه.

ويقرر الإمام الشاطبي أن: "الأدلة الشرعية ضربان - أحدهما: ما يرجع إلى النقل المحض (أي إلى الكتاب والسنة)، والثاني: يرجع إلى الرأي المحض (أي العقل)"[2] ويضيف أن: "كل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقولات لابد فيه من النظر (العقلي)، كما أن الرأي لا يعتبر شرعًا إلا إذا استند إلى النقل"[3].

ويقول السيد محمد آل كاشف الغطاء: "المسلمون متفقون على أن أدلة الأحكام الشرعية منحصرة في الكتاب والسنة، ثم العقل والإجماع"[4].

ويقول الإمام الشاطبي إن الاستدلال بالكتاب والسنة يتم بواسطة العقل البشري، وإلى هنا الكلام عن الأدلة في مجال العمل[5].

---

(١) المستصفى؛ ص ١١٩.
(٢) الموافقات؛ ٣ / ٢٤.
(٣) نفسه
(٤) الشيخ محمد أبو زهرة؛ الإمام الصادق؛ الفقرة رقم ٢٢٤؛ ص ٢٨٨.
(٥) الموافقات؛ ٣ / ٢٥.

الأدلة في مجال الأصول

لكن الأدلة في مجال الأصول، وهو مجال هذه الدراسة، لابد أن تكون عقلية، أو كونية، لأن المخاطب غير مسلم؛ وتضاف الأدلة الشرعية إذا كان المخاطب مسلمًا. ولا يصح هنا الاستناد إلى الإجماع أو القياس كما هو الحال في مجال العمل.

وقد بينت الدراسة أن الأدلة أربعة أنواع:

١ - النوع الأول: يتضمنه القرآن نفسه، فهي أدلة شرعية وعقلية.

٢ - والنوع الثاني: تتضمنه السنة النبوية المطهرة، وهي أدلة شرعية وعقلية أيضًا.

٣ - والنوع الثالث: يتضمن الأدلة الكونية والعلمية.

٤ - والنوع الرابع: الدليل الأخلاقى الذى يعتمد على الثقة فى صدق النبى.

والأنواع الثلاثة الأولى تخاطب غير المسلمين، كما تخاطب المسلمين، لأنها لا تستند إلى الإيمان بالإسلام، بل إلى العقل وقواعده المنطقية.

والعقل هو أداة الإنسان لإدراك صدق الرسول أو عدمه.[١] وقد آمن بمحمد ﷺ مَنْ آمَن من العرب بعد مناقشات عقلية منطقية حادة، وكذَّبه من كذَّبه منهم بعد جدال طويل.

ومن البَدَهي أن يستند محمد ﷺ إلى العقل في دعوته، وأن يصير ذلك هو المنهج المعتبر لدى العلماء المسلمين على امتداد العصور، وإلى اليوم، مع التوكيد أن للعقل حدودًا يجب ألا يتعداها، وفي هذا يقول الإمام الشافعي: "إن للعقل حدًا ينتهي إليه، كما أن للبصر حدًا ينتهي إليه"[٢] وقد أكد "عمانويل كانط "kant الفيلسوف الألماني الكبير (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) هذه الحقيقة في كتابه الشهير: "نقد العقل المحض"[٣] وبذلك انحصر العقل في مجال الحواس فقط.

---

(١) أبو زهرة؛ السابق؛ ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .
(٢) آداب الشافعي ومناقبه؛ ص ٢٧١ .
(3) Critique of Pure reason; Eng Trans. By J. M.D. Meikeljohn; 1956; pp. 249 - 287

لكن كثيراً من الماديين المحدثين لا يعترفون بغير العقل والتجربة مصادر للمعرفة، وبذلك يكذّبون محمداً وسائر الأنبياء، وينكرون الرسالات السماوية دون مناقشة، متبعين الفلاسفة الملحدين: دافيد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٢م) ودارون (١٨٠٩ – ١٨٨٢م) وماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣م)، وفرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩م)، وغيرهم.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين اكتشفت الإنسانية شيئًا فشيئًا تهافت الإلحاد بتأثير المعارف العلمية والكونية الواسعة الدقيقة التي أثبتت صدق الأنبياء، وصحة العقائد التي تؤكد وجود الإله الواحد الأحد الخالق المدبر لهذا الكون. واتخذت المشكلة صيغة أخرى خصوصاً في العالم الإسلامي، فقد عجز المفكرون ذوي النزعة المادية عن الدفاع عن الإلحاد وتكذيب الرسل، وخاصة محمد، وتظاهروا بالإيمان بالإسلام، وتصديق رسوله، لكنهم جعلوا الكلمة العليا للمعارف العقلية والتجريبية، وبذلك كذّبوا كل ما جاء به محمد مما يتعارض معها، وثارت بسبب ذلك صدامات عديدة بينهم وبين المؤمنين بمحمد ورسالته وانقسمت الأمة المسلمة إلى فريقين: الأول يصدق محمداً ويلتزم برسالته كاملة، وفريق يقبل بعض ما جاء به وينكر معظمه. وانحاز الغربيون إلى المكذبين، ومكنوا لهم في قيادة الأمة، وقمع المصدِّقين المؤمنين.

واندلعت بين المكذبين والمصدقيَن خلافات طاحنة حول: المذاهب الفلسفية المادية، والتشريع الوضعي الذي حل محل الشريعة، وفوائد المصارف الربوية، والنظام الرئاسي العلماني الذي حل محل الخلافة، والوطنية منفصلة عن رابطة الأخوة الإسلامية، ونظام الميراث الشرعي الذي نبذوه في بعض الدول دون بعضها الآخر، وتحريم تعدد الزوجات، وإباحة شرب الخمر، وتحريم ختان الإناث ومصادرة الملكيات الخاصة، وقوامة الزوج، ومنع الخمار الشرعي في بعض البلاد، وغير ذلك من المسائل.

وفي كل هذه المسائل جعلوا كلمة العقل فوق كلمة الوحي الذي أرسل به محمد وادّعى خالد محمد خالد أن الأئمة الأربعة لأهل السنة – أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد بن حنبل: "جعلوا من الرأي ومن حُكم العقل تشريعًا ومنهاجًا"(١) وهذا غير صحيح، بل إن المعتزلة الذين بالغوا في تقدير العقل لم يقولوا بذلك(٢).

---

(١) مثلاً: خالد محمد خالد؛ من هنا نبدأ؛ ص ٦٢، ٦٣.

(٢) راجع رسائل العدل والتوحيد؛ تحقيق الدكتور محمد عمارة؛ ص ١٠.

أدلة تضمنها القرآن الكريم

دليل الإعجاز البياني في القرآن

وهو إعجاز القرآن، كتاب محمد الذي كان بمثابة الرد المفحم على الجاهليين الذين اتهموه بالكذب وبأنه افتراه على الله؛ قال القرآن ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ** ﴾ [هود: ١٣، ١٤] وقال أيضاً ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣].

وعجز العرب والعجم، ومعهم الغربيون المعاصرون، في الإتيان بسورة واحدة مثل القرآن، حتى رصدت بعض الجهات الأمريكية جائزة كبيرة لمن يأتي بسورة، ونشرت ذلك على "النت"، دون جدوى.

وفي العصر الحديث زادت عناية المسلمين بالقرآن، مما أدى إلى ظهور ما يسمَّى بالإعجاز العلمي والكوني والأخلاقي، وهكذا اتسع نطاق الإعجاز لتأييد صدق محمد، ولم يستمع العلماء المسلمون للذين قالوا إن الإعجاز: "**إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه، لا بشيء خارج عن ذلك**"(١).

والقرآن يأمر محمداً بأن يجادل المكذبين له، وأن يدعو إلى دينه، وقال ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥] **وهذا يبين أن مواجهة المكذبين للنبي والدعوة إلى الإسلام لا تستند إلى**

---

(١) مالك بن نبي؛ الظاهرة القرآنية (المقدمة التي كتبها محمود شاكر).

الإعجاز اللغوي وحده، بل إليه وإلى الحكمة والموعظة الحسنة، وميدان الحكمة والموعظة الحسنة واسع جداً. وسيرة محمد تؤكد التزامه بهذه المبادئ في دعوته.

عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن، وعلى الرغم من ذلك لم يصدِّق محمداً سوى عدد قليل من أهل مكة، **ولم يكن تصديقهم له بسبب الإعجاز البياني اللغوي للقرآن الذي جاء به، وإنما بسبب عقلانية التوحيد وسخْف الوثنية، وبسبب الثقة في شخص محمد، وعقلانية مبادئه الأخلاقية ورقيها؛ وأبو بكر المثال البارز لذلك.**

ولعل كلمات خديجة، زوج محمد، حين عاد إليها من غار حراء بعد اللقاء الأول مع جبريل تبين هذه الحقائق؛ فلم تقل له إن الآيات الأولى من سورة (العلق) فيها إعجاز بياني يؤكد صدق الرسول جبريل، وصدق محمد تبعًا لذلك، ولكنها أيقنت بصدقه استناداً إلى شمائله وأخلاقياته الرفيعة، وقالت: "كلا أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبداً! إنك لتصل الرحم وتصْدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتَقري الضيف وتعين على نوائب الحق" (١) فصاحب هذه الشمائل السامية لا يمكن أن يخزيه الله تعالى، هذا هو حكم العقل السليم.

وهذا عمر بن الخطاب يعثر على رقعة فيها بعض آيات من صدر سورة طه، فيتحول من العداء لمحمد ودينه إلى محب له، فبعد أن قرأ تلك الآيات يقول: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه". ويُذكر أن عمر قال في خبر آخر إنه سمع محمداً يتلو القرآن بجوار الكعبة... "فلما سمعتُ القرآن رقَّ له قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام فلم أزل في مكاني ذلك (مختفيًا خلف أستار الكعبة) حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف"، وتابعه عمر إلى بيته وأعلن إسلامه (٢) فهذا من تأثير الإعجاز البياني.

---

(١) مسلم؛ ٢ / ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) سيرة ابن هشام؛ جـ١ / ٢٩٤ - ٢٩٩.

لكن أبا سفيان والأخْنس بن شريق، سمعا محمداً وهو يتلو القرآن فلم يتأثرا به، وقال أبو سفيان: "والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: "وأنا والذي حَلَفْتَ به"(١) أما أبو جهل فقد سأله الأخنس رأيه فلم يجبْه، وراح يصور النبوة على أنها ادعاء كاذب من بني هاشم، قوم محمد، ليبزوا به سائر بطون قريش في الشرف والمجد(٢).

وفي عصرنا هذا **تبرز أهمية الأدلة العلمية والكونية** بسبب العجز عن تقدير الناس للإعجاز البياني اللغوي، من العرب وغير العرب بطبيعة الحال، وبسبب سيادة التفكير العلمي، خصوصًا لدى الغربيين، وفي هذا يقول مالك بن نبي: "والحق أنه لا يوجد مسلم، وبخاصة في البلاد غير العربية، يمكن أن يقارن موضوعيًّا بين آية قرآنية وفقرة موزونة أو مقفَّاة من أدب العصر الجاهلي، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك – في أذواقنا – عبقرية اللغة العربية، ليمكننا أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة"(٣).

دليل البراءة من التناقض

يتسم القرآن الكريم بالسعة والتنوع في مضامينه، وقد تنزل منجمًا على امتداد ثلاث وعشرين سنة، في ظروف شديدة التباين، وهذه العوامل تضمن وجود تناقضات بين مضامينه المتنوعة، هذا لو كان مؤلفًا بشريًّا، لكنه بريئ من التناقضات التي توجد عادة في مؤلفات البشر، ويعبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢] وهذه الآية حرضت بعض أعداء الإسلام في القديم والحديث على البحث في القرآن للكشف عن تناقض ما.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٧٦ .
(٢) نفسه؛ ص ٢٧٦ .
(٣) الظاهرة القرآنية؛ ص ٥٨، ٥٩ .

ومن الملفت للنظر أن هذه الآية جاءت بعد آيتين يُوهم ظاهرهما بوجود اختلاف أو تناقض، الآية الأولى رقم ٧٨ من السورة نفسها تقول ﴿ .... **وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ فالصواب هو أن الحسنة والسيئة من عند الله تعالى، والآية التالية لها مباشرة تقول ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء: ٧٩] فهذه العبارة الأخيرة تقرر أن ما أصاب الإنسان من سيئة فمن نفسه، بعكس ما قررته الآية الأولى.

والحق أن الحسنات والسيئات من عند الله تعالى، لكن السيئات عقوبات يصيب بها الله تعالى من يشاء من عباده جزاء آثام اقترفوها؛ فهذه الآثام هي السبب القريب لما يصيب العبد من أشياء تسوءه.

وكان ابن النغريلة – اليهودي – قد توهم فى الآيتين وجود تناقض، ورد عليه ابن حزم بقوله: "إن الكفار كانوا يقولون إن الحسنات الواصلة إليهم هي من عند الله عز وجل، وأن السيئات المصيبة لهم في دنياهم هي من عند محمد ﷺ فأكذبهم الله تعالى في ذلك، وبين وجه ورود حسنات الدنيا وسيئاتها على كل من فيها بأن الحسنات السارة هي من عند الله تعالى بفضله على الناس، وأن كل سيئة يصيب الله بها إنسانًا في دنياه فمن قِبَل نفس المصاب بها، بما يجني على نفسه من تقصيره فيما يلزمه من أداء حق الله تعالى الذي لا يقوم به أحد ، وكل ذلك من عند الله تعالى جملة ، فأحد الوجهين – وهو الحسنات – فضل من الله تعالى مجرد لم يستحقه أحد على الله تعالى، إلا حين يفضّل به عز وجل من أحسن إليه من عباده. والوجه الثاني – وهو السيئات – تأديب من الله تعالى أوجبه على المصاب بها تقصيرُه عما يلزمه من واجبات ربه تعالى"(١).

(١) ابن حزم؛ الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى؛ تحقيق إحسان عباس ؛ مكتبة دار العروبة بالقاهرة؛ سنة ١٣٨٠ ١٩٦٠ ص ٤٨ .

وهذا الجدال بين يهودي يعيش في بلاد يحكمها أمراء مسلمون وبين إمام كبير هو ابن حزم، يدل على التسامح الذي أتاح لذلك اليهودي محاولة الطعن في القرآن الكريم.

ولا ريب أن الرحابة العظيمة للقرآن ونزوله منجماً على امتداد ربع قرن، والبراءة الكاملة من التناقضات، لدليل قوي على أنه تنزيل من رب العالمين، وأن محمداً لم يكن يستطيع تأليفه بحال، يقول مالك بن نبي: "من المقطوع به أنه لو أتيح لأحد من الناس أن يقرأ القرآن قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق"(١).

دليل تصويبه لأخبار التوراة

إن معظم الأخبار والقصص والأنباء التي وردت في القرآن هي الأخبار والقصص والأنباء التي وردت في التوراة، ولكن مصححة. فكيف عرفها الرسول وهو لم يقرأ التوراة والإنجيل؟ وكيف صححها؟!

يقول الماتريدي في "تأويلات أهل السنة" - بعد أن يفسر آيات سورة البقرة التي أفاضت في إيراد أخبار بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام - ابتداء من الآية ٤٦ : "وفي هذه الآيات التي ذكرناها، والأنباء التي وصفناها، دلالة صدق محمد ﷺ، وإثبات نبوته، وذلك أن أهل الكتاب كانوا عرفوا هذه الأنباء بكتبهم؛ وكان رسول الله ﷺ يذكر ذلك بمشهدهم، كما في كتابهم؛ ولم يكن ظهر منه اختلافٌ (يعني: ذهاب) إليهم، ولا درس كتابهم؛ **فدل أنه بالله عرف**"(٢) وعلى الرغم من هذا قد يسأل سائل قائلاً من أين عرف رسول الله ﷺ هذه القصص؟!

---

(١) الظاهرة القرآنية؛ ص ٢٣٨ .

(٢) تأويلات أهل السنة؛ للماتريدي؛ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ص ١٦٢ تحقيق دكتور محمد مستفيض الرحمن ومراجعته؛ وزارة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق؛ سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م.

وقد يقال إنها قُصت عليه من شخص ما، في المدينة أو في مكة، وعلى الرغم من أن هذا القول إنما هو مجرد ظن هش لا سبيل إلى إثباته، إلاَّ أننا نفرض أنه ممكن. ولذلك ننتقل إلى السؤال الثاني الحاسم، وهو: كيف صحح الرسول ﷺ تلك القصص والأخبار؟ وكيف تجنب الأخبار الكثيرة الزائفة الواردة في التوراة والإنجيل؟!

هذا فضلاً عن أن أهل الكتاب في ذلك الزمان لم يتهموا النبي ﷺ بالاقتباس من كتبهم (إلا في العصر الحديث) فهذا دليل قوى على صدق نبوته ﷺ.

دليل التنبؤ

والتنبؤ بما سيقع في المستقبل دليل على صدق النبي ﷺ، وعلى سماوية القرآن الكريم، ومن أشهر النبوءات القرآنية تغلب الروم على الفرس، في بضع سنين، كما جاء في قوله تعالى ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ**﴾ [الروم: ٢-٤].

وكان المسلمون يرجون أن ينتصر الروم على الفرس لأنهم أهل كتاب، والفرس أهل أوثان، وقد راهن أبو بكر أُبي بن خلف وأخاه أمية على انتصار الروم، وراهناه على انتصار الفرس، وقد انتصر الروم على الفرس في المدة التي اتفقوا عليها، ففرح المسلمون لأن ذلك دليل على نبوة محمد ﷺ (١).

وتحدث القرآن الكريم عن نبوءة أخرى مدهشة، بطلها رجل يُدعى الوليد ابن المغيرة الذي كان أحد زعماء المشركين في مكة، قال الله تعالى في حقه ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ [القلم: ١٦] وبعد سنوات من نزول هذه الآية، وقعت معركة بدر، وشارك فيها الوليد، وتلقى فيها ضربة على أنفه، تركت عليها علامة، فكان القوم يسخرون منه لذلك، وتلك نبوءة ودليل على صدق محمد وصحة نسبة القرآن الكريم إلى الله تعالى.

---

(١) راجع تفسير القرطبي؛ طبعة الشعب؛ ٦/ ٥٠٨٣.

دليل الإخبار عن الغيب: أوضح آيات الرسالة

ويقول الماتريدي أيضاً إن الإخبار عن الوقائع التاريخية القديمة – مثل قصة بقرة بني إسرائيل – إنما هو إخبار عن الغيب، وذكر القصة – قصة البقرة – على الوجه الذي يُعلم (منه) أن الاختراع لا يبلغ ذلك، ليعلموا أنه – أي النبي – بالله عَلِمَ؛ إنه إذا لم يُذكر له خطٌّ كتاب، ولا اختلاف إلى مَنْ عنده (كتاب)؛ على أنه لو كان مسموعاً منهم – يعني: لو أن النبي سمع القصة منهم – ليجري على مثله القولُ بالزيادة والنقصان، ولكن مَنعهم الله تعالى عن ذلك، إذا علموا صدقه، إشفاقاً على أنفسهم أن ينزِّل عليهم نقمة[1] الله[2].

وقد نختلف عن الماتريدي في وصف الوقائع التاريخية بأنها "غيب"؛ والإخبار عنها بأنه "إخبار عن الغيب"؛ **لكننا لا نستطيع أن نفسر صحة هذه الأخبار في القرآن إلاّ بالتسليم بأنه منزل من عند الله**، وإلاّ فمن أين علم محمد ﷺ بهذه الوقائع والأخبار؟ هل عثر على وثائق تكشف عنها؟ أو: هل حدثت حفريات كشفت عن وثائق من أي نوع فدلته عليها؟!!

فدلالة القرآن على وقائع الماضي، لا تقل وزناً عن الإخبار عن الغيب، بوصفها قرينة حاسمة على نبوة محمد ﷺ، وبخاصة إذا علمنا أن البحوث التاريخية الحديثة تؤكد صحة ما جاء به القرآن، وتنقض ما يناقضه في كتب أهل الكتاب. (وهذا ما فصَّله بوكاى في كتابه).

دليل كمال القرآن ابتداءً

يقول ابن الوزير: نقلاً عن **الإمام المؤيد بالله**: "ومن الدليل على إعجاز القرآن أن النبي ﷺ ابتدأ الإتيان بهذا القرآن على غاية الإحكام والإتقان؛ وقد ثبت جريان

---

(١) في المطبوع "نعمة" – وهي خطأ.

(٢) تأويلات أهل السنة؛ ص ١٧١.

العادة أن كل أمر يقع على وجه لا يصح وقوعه عليه إلاّ بعلوم تحصل للفاعل له، لا يصح وقوعه ابتداءً على غاية الإحكام والإتقان؛ وان بلوغه الغاية يتعذر إلاّ على مر الدهور والأعصار، وتعاطي جماعة فجماعة له، وأنه لا فرق في ذلك بين شيء وشيء من الأمور: في منظوم الكلام ومنشوره، وما يتعلق بالتنجيم، **والطب**، **والفقه**، **والنحو**، **والصناعات**... فإذا ثبت ذلك، وثبت وقوع القرآن على الوجه الذي بيناه، ثبت أنه **وقع على وجه انتقضت به العادة**، فجرى مجرى قلب العصا حيَّة، وإحياء الموتى، والمشي على الماء والهواء.. فهذا أعظم الآيات لبقائه في أمة محمد ﷺ، وفناء آيات الأنبياء في أعصارهم، عليهم السلام، ولكن الله -لما علم أن النبوة قد انقطعت- **جعل هذا المعجز الجليل باقياً على مر الدهور**، جديداً على طول العصور" (١).

وبتحليل هذا النص نتبين ما يلي:

١ - **أن القرآن جاء كاملاً، ولم يسبق بتأليفات أخرى للرسول**، يتدرب فيها على التأليف، كما هو شأن المؤلفين العاديين، وهذا خرق للعادة أو القانون المعروف، فهو معجزة ودليل حاسم على ربانية القرآن!

٢ - **أن القرآن مجموعة علوم ناضجة**، والمفروض أن هذه العلوم لا تبلغ درجة النضج إلاّ بعد مراحل متعاقبة، وأجيال عديدة من الباحثين والعلماء، يُجَوِّدُ التالي منهم ما خلفه السابق، فلا يتم النضج إلاّ بعد توفر معلومات واسعة يرثها العالم الناضج الأخير، وهذا ما لم يحدث للنبي ﷺ.

٣ - أن هذا الخرق الإعجازي للسنة الكونية **معجزة باقية على مر الدهور**، لا معجزة وقتية، كإحياء الموتى لعيسى عليه السلام مثلاً؛ بل هي الآن أشد إبهاراً وإعجازاً منها على عهد رسول الله ﷺ لأن مضي هذا الزمن الطويل أكد إعجاز القرآن، وكذلك العلوم الحديثة أكدت ذلك كما سنرى.

---

(١) إيثار الحق على الخلق؛ ص ٧٧.

دليل خلو القرآن من هموم محمد الشخصية

ومن **المعروف أن آلام المؤلف - أي مؤلف - ومشاغله وهمومه وعلاقته الشخصية، لابد أن تظهر في مضمون مؤلفاته**. لكن القرآن يخلو من: "أي صدًى لآلام محمد، **وبخاصة عندما يفقد أكرم زوجة، وأفضل عم**، مع علمنا بما كان لديه من الحنو النبوي تجاه هاتين الشخصيتين"(١) **وكذلك مقتل عمه حمزة ابن عبد المطلب** وتمثيل المشركين بجثته ولوك هند زوج أبي سفيان كبده! ولا يقل عن ذلك إيلامًا موت ولده الرضيع إبراهيم، ومن قبله موت أولاده وبناته في حياته باستثناء فاطمة.

وكيف لمحمد أن يؤلف هذا الكتاب الضخم - أي القرآن - **دون أن يضع فيه بضعة أسطر يمتدح فيها أباه وأمه وزوجه الكريمة العزيزة خديجة بنت خويلد، رفيقته في الجهاد في فجر الدعوة؟!**

إن هذه الحقيقة - التي يسميها مالك بن نبي: انعدام الطابع الشخصي في الخطاب القرآني - تشهد بصدق محمد في قوله إنه يتلقى الوحي من عند الله تعالى، وليس فيه من تأليفه كلمة واحدة.

الدليل الاجتماعي

ويسوق الشيخ محمد عبده دليلاً آخر على صدق الرسول، وصدق الوحي، يمكننا أن نسميه **الدليل التطبيقي**، أو **الدليل الاجتماعي**؛ يقول رحمه الله: "والدليل على سلامة شهودهم (أي الأنبياء والرسل صلوات والله وسلامه عليهم)، وصحة ما يحدثون عنه: أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل قوة(٢) في أممهم التي تأخذ بمقالهم؛ ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح عن معتل، ويستقيم النظام بمختل"(٣).

---

(١) الظاهرة القرآنية؛ ص ١٩٦ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) في الأصل "بالقوة"؛ وهو تحريف، لأن الباء تلحق بالمتروك؛ والمتروك هنا هو الضعف لا القوة.

(٣) رسالة التوحيد؛ ص ١٥٥ .

وقد قمنا نحن بدراسة تكشف عن صلة العقيدة بالحياة الواقعية، وعن صلة الثقافة بها، وظواهر الإخفاق - أو النجاح - الإنساني الفردي والاجتماعي، ومدى ما يتحقق للفرد والجماعة من سعادة وكرامة وأمن، وهذا الجانب من دراستنا يشكل باباً جديداً ومهمًّا في علم التوحيد، وهو يفصل القول في "الدليل التطبيقي" أو "الاجتماعي" على صحة الوحي، وصدق رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، كما يثبت زيف الإلحاد وفساد الإنكار للوحي الإلهي(١).

ويقول رشيد رضا: "... فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سُنن الاجتماع البشري في تأثيره بالتبع لكونه آية **معجزة للبشر في لغته وأسلوبه**، كما كان آية معجزة في إصلاحه للأمم بهديه وتعليمه"(٢) فكتاب الله العزيز:

١ - معجزة لغوية

٢ - ومعجزة إصلاحية هادية معلمة.

ويشير الشيخ رضا إلى أهمية التغيير الباطني الداخلي النفسي وأسبقيته على التغيرات الأخرى، وهكذا أحدث القرآن: "ثورة تحرر العقل البشري والإرادة الإنسانية من رِقّ المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية، أو النيابة عن الرب الخالق سبحانه وتعالى في التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب الناس وعقولهم..."(٣).

وكان المنتظر أن يقدم لنا رشيد رضا عدداً من الشخصيات التي أحدث القرآن فيها انقلابه الشامل العظيم، وكذلك في المجتمع والأمة والإنسانية كلها، لكنه للأسف لم يفعل.

* * *

(١) انظر كتابي: «نقد الثقافة الإلحادية» دار هجر، سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م ص ٣٥ - ٤٣.
(٢) الوحي المحمدي؛ ص ١٤٨.　(٣) نفسه؛ ص ١٤٦.

أدلّة تضمنتها السنّة

أخلاق محمد دليل صدقه: النوع الرابع من الأدلة

تكذيب محمد لدى الغربيين هو الأساس الذي تستند إليه سلسلة المطاعن والافتراءات التي يرددونها، فهل ثمة دليل على كذبه؟

الأدلة الموثقة في المصادر المعتبرة تؤكد أنه كان قمة في التزام الصدق، ومثلاً أعلى في تجسيد القيم الأخلاقية في حياته الشريفة، ونحن نعرض في إيجاز لتلك الأدلة.

وقد كان محمد ﷺ قبل البعثة يُسَّمى "الأمين". لأنه كان موضع ثقة الجميع، فكانوا يأتمنونه على أموالهم، فلا يجدون منه سوى الجدارة والوفاء. أجل، كان محمد يؤدي لأهل مكة وظيفة المصارف المحترمة التي تحفظ أموال الناس، ثم تقدمها لهم حين يطلبونها، ومعلوم أن الناس لم يكونوا يأتمنون محمداً على أموالهم إلا لثقتهم الكاملة فيه، ولو أنه أساء إلى أحد فيهم في ماله، لتبددت ثقة الجميع، وانصرفوا عنه، ولم يكونوا ليسموه "الأمين" بحال من الأحوال، والأمانة صفة أخلاقية رفيعة، وهي لا توجد منفصلة عن سائر الصفات الأخلاقية، فدل وجودها على وجود السلسلة الأخلاقية الكاملة.

وحين عاد إلى بيته بعد اللقاء الأول مع جبريل، وأخبر خديجة بما حدث، قالت: "أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالله لا يخزيك الله أبداً! فإنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقوي الضعيف، وتعين على نوائب الحق"[1] وكل

---

(١) فتح الباري؛ باب كيف كان بدء الوحي؛ جـ ١ .

هذه الأعمال فضائل أخلاقية، لأنها "عطاءٌ بلا مقابل"، والعطاء بلا مقابل هو الخاصية الجوهرية للسلوك الأخلاقي بمعايير الإسلام (١).

وثقة أبي بكر الصديق في صدق محمد ﷺ دليل آخر على أن أخلاقيات محمد وعلى رأسها فضيلة الصدق هي التي جعلته يُسلم دون تردد، ودون جدال أو سؤال، وحين عاد النبي ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، وكذبه الكثيرون ولم يصدقوه، صدقه أبو بكر، وقال للذين هرولوا إليه متسائلين متشككين: "إن كان قال فقد صدق". أي أن صدق محمد كان هو الدليل الحاسم على صدق نبوته، وصدق كل ما يخبر به من أخبار السماء.

وأسلم خمسة من زعماء قريش بدعوة أبي بكر، ولم يكن بيده يومئذ أية براهين شرعية أو عقلية كافية لأولئك الرجال كي يتركوا دين آبائهم الموروث الراسخ ويدخلوا في دين جديد لا يعرفون عنه ألا أقل القليل، لقد كانت الثقة في صدق محمد وأمانته هي التي أقنعتهم بالإسلام.

أول أولئك الرجال عثمان بن عفان، أحد أثرى أثرياء مكة، والذي صار أحد الممولين الكبار للدولة المسلمة الوليدة، والخليفة الثالث بعد عمر، ومنهم سعد بن أبي وقاص الذي قاد جيش المسلمين لفتح بلاد الإمبراطورية الفارسية، ومنهم الزبير الذي لم يتخلف عن أية غزوة غزاها رسول الله ﷺ (١).

ولقد تصادف أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم ابن النبي، فقال الناس إن الشمس كسفت حزناً على إبراهيم. وكان بوسع النبي ﷺ أن يوافقهم فيما ذهبوا إليه، ويتخذ المسألة وسيلة لتثبيت مكانته بينهم دون أن يخسر شيئاً، وكان من المستحيل أن يُكتشف كذبه، لكن النبي الصادق الأمين أَبَى أن يستفيد من الكذب

---

(١) راجع كتابي: الفضائل الخلقية في الإسلام؛ ص ٥٣ .
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٠ ، ٢٥١ .

وقال للناس: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته"(١).

من المعلوم أن النبي ﷺ ظل يدعو إلى الإسلام سرًّا ثلاث سنوات، إلى أن أُمر بالجهر والعلانية بقول الله تعالى ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ الشعراء: ٢١٤] فصعد عليه الصلاة والسلام الصفا، وهتف: "يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فقال: يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني مناف!" فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقي؟" قالوا ماجربنا عليك كذباً، قال فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد!" فقال أبو لهب: تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام"(٢) وتفرق القوم دون أن يتيحوا الفرصة للنبي ليحدثهم عن الإسلام، وكان فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب.

وفي رواية أخرى أنه قال لهم: " إني أدعوكم إلى الله وأنذركم عذابه"(٣).

وفي اعتقادي أن **هذه الروايات غير كاملة**، لأن عادة النبي في الدعوة إلى الإسلام أن يبدأ **بتلاوة القرآن**، وخصوصاً أولئك الذين يسمعون عن الدين الجديد لأول مرة، والأرجح أنه رغَّبهم في عبادة الله الواحد الأحد، وفي ثوابه العظيم، ثم اختتم كلامه بالإنذار بالعذاب، وأستبعد أن يبدأ بالإنذار والوعيد، ثم يتفرقون عنه بدون جدال!

والشاهد هنا هو اعترافهم بصدقه، وكان من المنطقي أن يصدقوه فيما دعاهم إليه، كما فعل أبو بكر والمجموعة الأولى الرائدة، لكن الله تعالى لم يشأ أن يكونوا من الرواد الأوائل، وأن يتأخروا قليلاً أو كثيراً، ومن الغريب أنهم تفرقوا دون أن ينكروا عليه شيئاً أو يعارضوه أو يسبُّوه!

---

(١) فتح الباري؛ كتاب الكسوف ؛ رقم ١٠٥٧ - باب ١٣ - ٢ / ٥٤٥ وأخرجه مسلم في صحيحه؛ ٦ / ٢٠٠.
(٢) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك؛ ١ / ١١٧٠ - ٢ / ٣١٩.
(٣) نفسه؛ ص ٣٢٢.

وأراد بعض يهود المدينة إحراج النبي ﷺ، ودفعه إلى الكذب وإظهار ذلك على الناس كيلا يصدقوه، من ذلك أنهم سألوه: **متى تقوم الساعة**؟ وكان بوسع النبي أن يقول – مثلاً – إنها ستقوم بعد ألف عام أو أقل أو أكثر، ولم يكن بيد اليهود شيء يثبت كذبه، وكانت فرصة للنبي لكي يبين للناس أنه نبي يعرف متى تقوم الساعة!

لكن محمداً ﷺ لم يكن ليكذب بأي حال من الأحوال، ومهما كانت فائدة الكذب، ومهما كان في مأمن من انكشاف كذبه، وقد أجاب القرآن الكريم على السؤال فقال تعالى **﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾** [الأعراف:١٨٧] وكان هذا هو الجواب عن ذلك السؤال في كل مرة طُرح عليه من اليهود أو النصارى أو العرب.

وهذا دليل صدق محمد ﷺ في نبوته، وكذب الذين اتهموه بأنه كان ينقل عن التوراة، فلماذا لم ينقل جوابهم عن ذلك السؤال؟ ويثبت العلم الحديث أخطاء التوراة في كثير مما ورد فيها على الخَلْق والعالم والإنسان (١).

والعقل لا يسيغ الزعم بأن محمداً ﷺ كان يكذب على الله تعالى، في حين كان يرفض أن يكذب على بعض اليهود! فهذا دليل مقنع، وإذا ضممناه إلى ما سبق من أدلة الصدق، فلا أحد يمكن أن يرفضه دون أن يقع في تناقض شنيع!

ورسالة محمد ﷺ تحرم الكذب تحريماً باتًّا، فليس في القرآن الكريم آية واحدة تجيز الكذب أو الافتراء أو البهتان أو النفاق أو القذف، أو أية صورة من صور الكذب. وفي أحاديث محمد ﷺ نصوص عديدة تشدد على واجب الالتزام بالصدق، وتحري الحقائق قبل إذاعتها، حتى الحيوان، أوجب محمد ﷺ الصدق معه واستنكر خداعه!

قال ﷺ: "لا تدخل حلاوة الإيمان قلب امرئ حتى يترك بعض الحديث خوف

(١) موريس بوكاي؛ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، والعلم؛ ص ١٥٧.

الكذب، وإن كان صادقاً، ويترك المراء وإن كان محقًّا". وفسَّر ﷺ قول الله تعالى﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥] على أنه يقرر استحالة أن يجتمع الكذب مع الإيمان، وفي حديث آخر قال ﷺ: "إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يَعِدَ الرجل ابنه ثم لا ينجز له، إن الصدق يهدي إلى البر..." وقد التزم ﷺ بالصدق التزاماً صارماً، وقال: "إني لأَمزحُ ولا أقول إلا حقًّا".

وسبب الأهمية البالغة للصدق أنه الضمان لإبلاغ الحقائق إلى الآخرين.

ولقد عرَّف الإسلاميون الصدق، فقال القشيري إن الصدق هو: "موافقة السر المنطق" وفصَّل هذا التعريف قليلاً فقال: "أقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله"(١) وأشاد رسول الله ﷺ بقول الصدق في مواجهة عتاة الكذابين فقال: "إن من أفضل الأعمال كلمة حق تُقال عند سلطان جائر"(٢).

ويقول ابن الوزير: "إن أحداً ما سمع منه ﷺ كذباً، لا في أمور الدين، ولا في أمور الدنيا، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهَد أعداؤه في نشره وإظهاره"(٣).

فماذا يمكن أن يقول أي باحث منصف في اتهام غير المسلمين لمحمد بأنه كذاب، وأنه دَعِيٌّ وليس بنبي، بعد هذا الذي أوردناه من سيرته الشريفة؟

في تقديري إنه لابد أن يقول: إن اتهامهم له بالكذب ليس سوى افتراء يناقض كل الأدلة، ولسوف نرى أن بقية الأدلة تؤكد صدق محمد وصحة نبوته.

---

(١) الرسالة القشيرية؛ ٢ / ٤٤٨، ٤٤٩.
(٢) أدب الدنيا والدين؛ ص ٧٨.
(٣) إيثار الحق على الخلق؛ ص ٧٩.

برهان "القهر"

يقول مالك بن نبي إن الرسالة الدينية فرضت فرضًا على الأنبياء: "فيونس، وأرمياء، ومحمد – عليه الصلاة والسلام – أفراد أرادوا – أولاً أن يتملصوا طواعية من دعوة النبوة، فقاوموا؛ ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرًا، فمقاومتهم تدل على التعارض بين اختيارهم والحتمية التي تطوق إرادتهم، وتتسلط على ذواتهم، وفي هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية عن الحركة النبوية"(١).

ثم ينقل "مالك بن نبي" عن "أرمياء" قوله "لقد صرتُ محور سخرية طيلة النهار، فالجميع يهزأ بي، لأني كلما تكلمت وجدتُني مضطرًا لأن أصرخ وأعلن الجبروت والخراب، لقد صارت كلمة الله بالنسبة لي مصدر عارٍ واستهزاء مستمر؛ فإذا قلتُ: لم أعد أذكره (يعني سأكف عن الدعوة)، وأتكلم باسمه، وجدت في قلبي (شيئًا) كالنار المضطرمة المستكنة في عظامي، فأحاول أن أطفئها، ولكني لا أستطيع"(٢).

وكذلك كان رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ مأمورًا بالدعوة صراحة، كواجب ديني فرضه الله تعالى عليه بقوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾[المدثر: ١-٧]

وكان النبي محمد ﷺ يعاني شدةً حين نزول الوحي، ويربد وجهه، ولم يكن له إرادة في ذلك(٣).

ولم يتطلع النبي ﷺ مطلقًا إلى أن يكون نبيًّا، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فقال تعالى ﴿ **وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ [القصص: ٨٦]

(١) الظاهرة القرآنية؛ ص ٩٩، ١٠٠. (٢) نفسه؛ ص ١٠٢.
(٣) هذا ما جاء في وصف عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ولقد عانى النبي ﷺ عناءً مريراً من الشائعات التي أطلقها أعداؤه والمعروفة باسم "حديث الإفك" حيث اتهموا زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها بالخيانة الزوجية، واستمرت آلام النبي وزوجته وصهره والمسلمون جميعًا لمدة شهر كامل إلى أن تنزل الوحي ببراءتها، ولو كان محمد هو الذي يؤلف القرآن بحسب إرادته لما انتظر شهراً كاملاً؛ كان بوسعه أن يقول إن الوحي نزل ببراءتها عند أول ظهور للشائعات وانتهى الأمر، فنزول الوحي وانقطاعه لم يكن بإرادته، وهذا يثبت أن القرآن وحي منزَّل من عند الله تعالى.

وقد اشتد الخلاف بين النبي ﷺ وبين المشركين، ولاحَ للجميع خطر تعرضه للقتل، وكان الإسراع بالهجرة هو المخرج من ذلك الخطر، لكن النبي أذن للمسلمين أن يهاجروا، وظل هو في مكة، وصار بلا أنصار إلا قليلاً، إلى أن جاءه الإذن من عند الله تعالى، ولو كان محمد هو الذي يؤلف القرآن لكان هو أول المهاجرين، طلبًا للأمان لنفسه، ثم لمن شاء من أصحابه أن يتبعه إلى يثرب.

لا إرادة لمحمد في إنزال القرآن وعدمه

ومن الأدلة على أن القرآن من عند الله أنه كان يتنزل عليه دون إرادته، وكان ينقطع عنه وهو يريده، وفي هذا يقول الله عز وجل ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾

[يونس: ١٥، ١٦]

وفسرها القرطبي فقال إن المشركين سألوا النبي ﷺ أن يحول الوعيد وعداً والوعد وعيداً والحلال حرامًا، والحرام حلالاً، وسألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، كذلك سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور.

ورفض النبي ﷺ هذه المطالب السخيفة، وأمره الله تعالى أن يذكرهم بأنه لا يستطيع أن يبدله من تلقاء نفسه، فهو يتلقى الوحي ويبلغه ولا إرادة له في ذلك.

وكان أهل الطائف قد طلبوا من النبي ﷺ أن يؤلف لهم آية تقول إن بلادهم محرمة مثل مكة المكرمة! وأمضى بعض المشركين العرب ليالي طويلة في إلحاح متواصل لدى النبي ﷺ لكي يؤلف لهم قرآنًا على هواهم! وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

ولو كان محمد هو مؤلف القرآن لكان استجاب لبعض مطالب الجاهليين، وبذلك يكسب تأييدهم الذي كان في أَمَسِّ الحاجة إليه ويتحاشى عداءهم وسخطهم عليه.

ومعلوم **أن الوحي فَتُر مدة**، وانقطع جبريل عن النزول، وحزن النبي لذلك حزنًا شديداً، ولو كان هو مؤلف القرآن لما حدث شيء من ذلك على الإطلاق، وظل النبي على حزنه الشديد مدة إلى أن جاء جبريل بسورة الضحى التي تنفي أن يكون الله تعالى قد كره محمداً وتركه! فقال عز وجل ﴿ **وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ [الضحى: ١-٥] وفرح النبي بها فرحًا عظيمًا، فلا إرادة لمحمد في انقطاع الوحي ونزوله، لأنه يتنزل بإرادة الله تعالى.

ويؤكد القرآن الكريم أن ما يتنزل به الوحي ليس شعراً ولا كهانة ولكنه تنزيل من رب العالمين، ويبين العقوبة الكبرى لمن يكذب على الله ويتقول عليه؛ فيقول سبحانه وتعالى ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ**

بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٦] فهذا وعيد شديد جداً لمن يتقول على الله تعالى، ولا يمكن تخيل دَعِيٍّ نبوة يقول هذا الكلام.

ومن الصعب على الغربيين فهم هذه الحقيقة، لأنهم لم يجدوا حرجًا في إسقاط بعض النصوص في التراجم الحديثة للكتاب المقدس، فيقرر الباحث القدير أحمد عبد الوهاب أن تراجم الكتاب المقدس تختلف فيما بينها اختلافًا كبيراً: "لا يقتصر فقط على تغيير الألفاظ الحاكمة، ولكنه يتعدى ذلك إلى النصوص ذاتها، حيث إن بعض التراجم الحديثة تسقط بعض النصوص التي ذكرت في تراجم سابقة"(١) كذلك أسقطوا عدداً كبيراً من الأناجيل ولم يستبقوا غير أربعة (٢).

ولهذا لا يجد الغربيون حرجًا في مطالبة المسلمين بحذف بعض آيات القرآن الكريم التي لا تعجبهم!

دليل عُقم الترهيب والترغيب

وهذا دليل آخر له قوته الإقناعية بصدق محمد ﷺ. فإن قريشًا: "اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ، ومن أسلم معه منهم، فَأَغْرَوْا برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مُظهر لأمر الله لا يستخفي به، مبادٍ لهم بما يكرهون، من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم"(٣).

---

(١) أحمد عبد الوهاب؛ المسيح في مصادر العقائد المسيحية؛ نشر مكتبة وهبة؛ القاهرة؛ ط ١ سنة ١٣٩٨ - ١٩٧٨م.
(٢) نفسه؛ ص ٢٠ .
(٣) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٨ .

وجاء في خبر طويل عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن قريشًا كادت أن تفتك بالرسول ﷺ، إذ أنهم هاجموه في المسجد! وتدخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ومنعهم من أذيته وهو يصرخ في وجوههم بقوله: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربِّيَ الله؟"(١) ورجع أبو بكر يومئذ إلى داره: "وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه بلحيته! وكان رجلاً كثير الشعر.

وهكذا فقد محمد، الرجل الشريف الأمين، مكانته بين قومه، وصار هدفًا مستباحًا لاعتداءاتهم اليومية! لم يعد للاحترام والتبجيل الذي كان يناله من قريش أي أثر، بل انقلب إلى استخفاف واستهانة!

ويقول ابن هشام إن: "أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يومًا فلم يلْقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه - لا حر ولا عبد! فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢] ومن الجلي أن في هاتين الآيتين توجيهًا ومآزرة وأملاً، وفيهما أيضًا ملاطفة وتسلية وتأنيس.

وقد سئل ابن عباس: "أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذَرون به في ترك دينهم؟ قال نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: أللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم! حتى إن الجُعل (الجعران) ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول نعم! افتداءً منهم بما يبلغون من جَهد"(٢).

وبهذه النتيجة كان المشركون يسعدون أشد السعادة، ظانين أن ارتداد المسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٧٩.

عن دينهم سيضطر محمداً في نهاية المطاف إلى التوقف عن الدعوة إلى الدين الجديد، وإلى عودة الذين صبأوا – أي أسلموا – إلى الشرك وعبادة الأوثان! لكنهم كانوا واهمين مخدوعين، لأن ما كانوا يُجبرون المسلمين على النطق به من شركيات ليس سوى ألفاظ أكرهوا عليها، وقلوبهم عامرة بالإيمان، وقد قال لهم رسول الله إن ذلك مغفور لهم، وأباح لهم التلفظ بالشرك وقال لعمار بن ياسر: "إن عادوا فعد!" وأنزل الله تعالى قوله ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وهكذا ثبت عُقم الترهيب والتعذيب، ولم يثن النبي ولا أحداً من أصحابه عن دينهم أو عن الدعوة له، وبرهنت المحنة عن عزائم صُلبة، وإرادة فولاذية لدى المسلمين، حتى لقد هلك بعضهم من وطأة العذاب.

المقاطعـة

ولجأت قريش إلى سلاح المقاطعة، فقرروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني المطلب على ألاّ ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم. فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم"[(١)] وأقاموا على ذلك سنتين حتى جهدوا (يعني أرهقوا بني المطلب).

وكان أبو جهل يراقب الشِّعب (أو الحي) الذي كان يقطنه بنو المطلب، وذات يوم لقي غلامًا لحكيم بن حزام يحمل كمية من البُر إلى عمته خديجة، زوج النبي ﷺ، فحاول منعه، وتدخل أبو البختري بن هشام بن الحارث، فاندلعت معركة، انتهت إلى إصابة أبي جهل بجرح، حيث آذاه أبو البختري أذًى شديداً[(٢)].

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣.

(٢) نفسه؛ ٢ / ٤.

الإسفاف!

وتدنت قريش في عدائها للنبي إلى أسفل سافلين، من ذلك أن عقبة بن معيط كان يجالس الرسول ﷺ، واستاء من ذلك أُبي بن خلف، فأنب عقبة واستحلفه أن يتفُل في وجه النبي ﷺ! "ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي مُعيط"(١) حتى اسم النبي ﷺ حرفوه فقالوا: مذمم!! فقال رسول الله ﷺ: "ألا تعجبون لِما صرف الله عني من أذى قريش؟ يسبون مذممًا وأنا محمد!"(٢).

وعلى الرغم من كل هذه المتاعب الأليمة والمهينة المتواصلة، ظل النبي ﷺ والمسلمون معه على الثبات على الإسلام، وهذا هو المسلك الطبيعي لنبي عظيم، لا لدعي كاذب، دون أن يهتز إيمانهم بالله ورسوله.

وقصة بني مخزوم مع عمار بن ياسر وأبيه وأمه (سمية) قصة بشعة من العذاب الأليم، وقد قتلوا تلك المرأة المؤمنة الشجاعة لإصرارها على الإسلام، ويروى أن رسول الله ﷺ كان يمر بذلك المشهد الرهيب فلا يملك إلا أن يقول: "صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة"(٣) وقصة أخرى لا تقل وحشية كان المجرمون فيها نفر من بني جُمح، والضحية البائسة بلال بن رباح رضى الله عنه.

والآن لابد أن نتساءل: هل بوسع دَعيٍّ كاذب أن يصمد لكل ذلك العذاب دون أن يتراجع قيد أنملة؟

وهل بوسع نبي كاذب أن يبث في أتباعه تلك الإرادة الفولاذية التي لا تلين حتى لو أضرموا في صاحبها النيران؟

ذلك ما تأباه الحقائق المعروفة عن طبيعة الإنسان، فلا يبقى إلا الاعتراف

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ١٠ .
(٢) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٦ .
(٣) نفسه؛ ١ / ٣٢٠ .

بصدق الدعوة والداعية ﷺ، وغير هذا عناد ومكابرة لا يرتضيها لنفسه إنسان متحضر، تواق إلى امتلاك الحقائق.

وكان القرآن يتنزل بالآيات لدعم تلك الإرادة النبيلة، فقال تعالى ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وأدان القرآن أولئك المشركين الظلمة فقال ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٨] وقال أيضاً ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٣٤] فهذا إذاً قانون مطرد، صدق على الرسل السابقين، وسوف يصدق عليك يا محمد وعلى أتباعك، وقد صَدَقَ، وجاء نصر الله في يوم بدر، وتم فتح مكة، وانتصر أولئك الرجال الذين كانوا مستضعفين على الطغاة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب.

ولما لم يؤت الترهيب أية نتيجة أرادها المشركون، فكروا في الترغيب والغواية، فذهبوا إلى أبي طالب وفاوضوه وهددوه كي يوقف ابن أخيه عن دعوته، وتحدث أبو طالب إلى النبي ﷺ، ولم يتفقوا على شيء، وقال أبو طالب للنبي: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً، وكان النبي قد طلب منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويخلعوا ما كانوا يعبدون من دونه، فَأبوْا. فقال رسول الله ﷺ لعمه: "والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

وهكذا أخفق الترغيب كما أخفق الترهيب.

وكان زعماء المشركين قد أرسلوا عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليفاوضه. وذهب الرجل إلى النبي وكلَّمه فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك

علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملَّكناك علينا.."[1] ورد عليه النبي بأن قرأ صدر سورة فصلت، وعاد عتبة إلى المشركين، ونصحهم بأن يخلوا بينه وبين ما هو فيه، لكنهم رفضوا[2] وواصلوا كل الأساليب الممكنة، ترهيباً وترغيباً، لكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً.

الثقة في النصر بعون الله

ومن الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ الثقة المطلقة في نصر الله له، ومن أبرز الأمثلة على ذلك وقوفه في وجه هوازن وقوتها المقاتلة الضخمة التي لم يواجه المسلمون مثلها قبل ذلك، وفي هذا يقول محمد فريد وجدي: "إن هذا فوق طاقة البشر، ولا يمكن تعليله إلا بثقته المطلقة في حفظ الله[3] له كما وعده بذلك في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكان المسلمون قد هربوا من المعركة وتركوا النبي ﷺ ومعه قلة قليلة من الرجال، ثم عادوا إلى المعركة حين وجدوا النبي يقف صامداً في وجه الأعداء.

ويقول الإمام المودودي في هذا: إن أعظم دليل على صدق محمد في دعوته هو: ثباته وتصميمه، وإرادته الفولاذية في المضي في الدعوة حتى النصر النهائي[4].

الإيمان الراسخ بنبوة محمد

وقال الأستاذ محمد فريد وجدي: "إن الله قد أمدَّ جماعة المسلمين الأولين من طريق الإعجاز بإيمان راسخ بنبوة محمد ﷺ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية، ونقش في صميم روعهم من الأصول الأدبية والمبادئ الاجتماعية والمثل العليا، ما لا سبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة في آماد طويلة"[5] وهكذا نشأت الأمة الإسلامية التي أحدثت تغيرات هائلة في العالم، وهو ما كان محتاجاً إليها.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٩٣. (٢) نفسه؛ ١ / ٢٩٤.

(٣) السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة؛ ص ٢٨٠.

(4)Towards Understanding Islam; p 47

(٥) السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة؛ ص ١٩٩.

الفصل الرابع

الأدلة العلمية والكونية

مقدمة

القرآن الكريم كتاب دين، غايته تعليم العباد العقيدة الدينية السليمة، والشريعة الإلهية العادلة، والبراهين التي تقنع الناس بها.

لكن الآيات التي جاءت بالعقائد والشرائع انطوت على حقائق علمية وكونية مدهشة، فيقول مالك بن نبي إنه: "إذا كان لا يليق بنا أن نعتبر القرآن كتاب علم science، فإننا نلاحظ فيه – مع ذلك – آيات تحتوي كلا الاهتمامين: لمسها حقيقة علمية، وإلقاؤها – بهذا اللمس – مزيداً من الوضوح على علاقة الذات المحمدية بالظاهرة القرآنية"(١).

ومن دراسة هذه الإشارات العلمية التي وردت عرضًا في القرآن يثبت مالك ابن نبي أن القرآن تنزيل من عند الله، لأن تلك الإشارات لم تكن في متناول محمد ﷺ، ولا في متناول مجتمعه الأمِّي، ولا أي مجتمع بشري آخر في ذلك الزمان، سواء العرب والفرس واليهود والنصارى، وفي العصر الحديث فقط استطاع العلم التجريبي الكشف عنها(٢).

وهذا هو ما يسمى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسُّنة المحمدية.

---

(١) مالك بن نبي؛ الظاهرة القرآنية؛ ص ٣٤٠.
(٢) نفسه؛ ص ٣٤٢.

تعريف الإعجاز العلمي

ويعرِّف الشيخ عبد المجيد الزنداني الإعجاز العلمي فيقول: "هو إخبار القرآن الكريم أو السُّنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ"(١).

فكيف عرف محمد هذه الحقائق؟

ليس أمام الباحث المنصف سوى الإيمان بأن الوحي هو الذي عرفه بها". وهذا اعتراف بأن محمداً نبي صادق.

ولقد قال الله تعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣] وعلى هذا يصبح من واجب المسلمين أن يبحثوا في أنفسهم وفي الآفاق عن الآيات التي تبين للناس أن القرآن حق، والإسلام حق، ومحمداً رسول صدق وحق.

وفي العصر الحديث قام علماء عديدون في مجالات العلوم الكونية، والفيزيائية والكيميائية، والجيولوجية والجغرافية، والطبية، والنفسية، بدراسات عميقة لما ورد في القرآن والسنة من حقائق علمية وكونية، وأذهلهم أن وجدوا كل ما ورد فيهما من حقائق مطابقاً لما أثبته العلماء المحدثون، وهكذا نشأ مبحث جديد في علم التوحيد الإسلامي هو مبحث: الإعجاز العلمي، أو الأدلة العلمية على صحة نبوة محمد ﷺ، وعلى النقيض من هذا، وجدوا معظم ما ورد من إشارات كونية في التوراة والإنجيل مناقض للحقائق العلمية.

ويقول الشيخ الزنداني: "إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته، فهي ظاهرة في نظمه، وفي إخباره عن الأولين، وفي إنبائه

---

(١) انظر كتابه: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة؛ ص ١٤ .

بحوادث المستقبل، وحكم التشريع، وغيرها"[١] يشير بهذا إلى الإعجاز البياني، وإلى إعجازه في الإخبار عن الغيب الماضي، وإلى إعجازه بالتنبؤ عن المستقبل، وإلى الإعجاز التشريعي، والأخلاقي، فضلاً عن الإعجاز الكوني والعلمي.

فمن أعظم الأدلة على صدق محمد أن الدراسات العلمية الحديثة لم تجد في القرآن أو السنة ما يتناقض مع الحقائق العلمية المؤكدة، هذا في الوقت الذي وجدَ فيه بعض الباحثين تناقضات عديدة بين التوراة والإنجيل وبين حقائق العلوم الحديثة.

من هؤلاء العلماء الذين اهتموا بالدراسات المقارنة بين "العلم" وبين التوراة والإنجيل والقرآن "موريس بوكاي" في كتابه الرائع في هذا الموضوع [٢].

والنتيجة النهائية لبحوث "بوكاي" تقول إن: "دراسة نص القرآن في العصور الحديثة لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر في شيء. "وقد وجد الرجل أن القرآن أورد وقائع كثيرة ذات صفة علمية، وأن التوراة أوجدت القليل منها: "إذْ ليس هناك أي وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية، وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية في القرآن، وإنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية، وتلك هي النتيجة الأساسية التي تخرج بها دراستنا"[٣].

ومن البدهي أن تشهد صحة الحقائق العلمية والكونية التي في القرآن على صدق محمد في قوله إنه تلقى القرآن من عند الله بواسطة جبريل، وعلى هذا يقرر "بوكاي" وجود توافق تام بين ما جاء بالقرآن وبين المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك - كما سبق أن بيَّنا - يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً في عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها"[٤].

---

(١) تأصيل الإعجاز العلمي؛ ص ٢٧.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ نشر دار المعارف بالقاهرة؛ سنة ١٩٧٨.

(٣) نفسه؛ ص ١١، ١٢.

(٤) نفسه؛ ص ٢٨٦.

يقول موريس بوكاي إن: "دراسة نص القرآن في العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر في هذا الموضوع، وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية، وهي وقائع كثيرة جداً، خلافًا لقلتها في التوراة، إذْ ليس هناك أي وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية، وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية في القرآن.

أما عن التوراة فيقول: "إننا لا نستطيع علميًّا قبول صحة نص سفْر التكوين الذي يعطي أنسابًا وتواريخ تحدد أصل الإنسان (خَلْق آدم) بحوالي ٣٧ قرنًا قبل المسيح" و"إنه لن يمكن أبداً إثبات أن الإنسان ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ كما يقول التاريخ العبري في ١٩٧٥م، وبناءً على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقِدَم الإنسان غير صحيحة"(١).

ويقول بوكاي إنه وجد في الكتاب الأول من التوراة، أي سفْر التكوين: "مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا"(٢).

ويقول بوكاي إن نص إنجيل متَى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا: "وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقِدَمِ الإنسان على الأرض"(٣).

وهذا يثبت أن التوراة والإنجيل ليسا وحيًا من عند الله، لأن الله تعالى منزَّه عن الخطأ.

ويتساءل "بوكاي": "كيف أمكن لمحمد ﷺ أن يتناول - قبل أربعة عشر قرنًا - حقائق علمية في القرآن لم يكشفها إلا التقدم العلمي في القرون الحديثة، لو لم يكن القرآن وحيًا مُنزلاً لا شك فيه ولا ارتياب في نصوصه؟(٤).

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٢.
(٢، ٣) نفسه؛ ص ١٣.
(٤) نفسه؛ ص ٢٧٧.

دليل أطوار الجنين

ونبدأ بأطوار الجنين البشري؛ فنجد أن تفسير الآيات الكونية يثبت سبق الآيات القرآنية للعلوم الحديثة بقرون. فقد وردت آيات عديدة تبين أطوار الجنين في بطن أمه، بما يتعارض مع الاعتقادات التي كانت شائعة في عصر النبوة المحمدية، من ذلك قول الله تعالى ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ [الزمر: ٦] وقوله سبحانه ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** ﴾ [الحج: ٥].

وفي زمن النبوة لم توجد أية وسائل تمكن الأطباء من تبين أطوار الجنين في حالات لم يكن قد بلغ فيها أجزاء من الملليمتر، فما جاء عنه في القرآن يستحيل أن يكون من علم بشر - إنه تنزيل من رب العالمين على نبيه الصادق الأمين ﷺ [١].

وما كان لدى أحد من البشر أية فكرة عن الظلمات الثلاث في عهد النبوة، ولا بعد نزول الآية الكريمة بقرون، فكيف عرف محمد تلك الظلمات الثلاث؟ لقد تلقى العلم بها من جبريل لا عن بشر ولا من كتاب[٢].

دليل الزوجية

ويقرر القرآن الكريم بحكم كلّي قاطع وجود الزوجية الشاملة في كل شيء، بقوله تعالى ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وعند نزول هذه الآية الكريمة كان معروفًا أن الزوجية مجالها الإنسان، والحيوان،

---

(١) الدكتور زغلول النجار؛ تفسير الآيات الكونية؛ ٣ / ٢٠٤.
(٢) نفسه؛ ص ٢٠٩.

وربما بعض النباتات. أما أن "كل شيء" كان أزواجًا أزواجًا، فلم يكن يخطر لأحد على بال.

وبعد نزول الآية الكريمة بأربعة عشر قرنًا، وبعد بحوث مضنية، أدرك العلماء أن الزوجية ليست قاصرة على الإنسان والحيوان والنبات، وأنها تمتد إلى عالم الجماد، وإلى مكوناته النهائية، وإلى عالم الطاقة أيضًا[1]. وبذلك أكدوا صواب الآية القرآنية الكريمة وسلموا بصحة الحكم الكلي الشامل القاطع المثبت للزوجية في كل شيء. وتبعًا لهذا تتأكد سماوية القرآن الكريم وصدق النبي الكريم الذي تلقاه عن ربه سبحانه وتعالى.

دليل: قلب واحد لكل إنسان

وكان بعض الجاهليين العرب يظن أن بعض الأفراد لهم قلبان، وكان بعضهم يدعي أن للنبي محمداً قلبين؛ وكان ذلك محاولة لتفسير التميز الفردي الذي لاحظوه في شخص محمد! وكان أحرى بمحمد - لو لم يكن نبيًّا صادقًا - أن يقبل تلك الخرافة! لكن القرآن حسم الموقف وقرر أنه ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**... ﴾

[الأحزاب: ٤]

ويقابلنا مفهومان للقلب في التراث الإسلامي، أحدهما أن القلب عضلة تضخ الدم وتدفعه إلى مختلف أجزاء الجسم لتمدها بالأكسجين والمواد الغذائية، وهذا المفهوم يصطدم بالآيات العديدة التي ورد فيها لفظ القلب، ولذلك ظهر المفهوم الثاني للقلب، ذلك الذي يقرر أن "**القلب يشكل الذات البشرية المعنوية الباطنة، بكل قواها**". والقلب في هذا المفهوم ليس المضخة المشار إليها في المفهوم الأول؛ فهو ليس جسديًّا؛ إنه يشبه الكهرباء التي تنتقل قواها عبر الأسلاك المعدنية، المادية، لكنها ليست مادية ولا معدنية. إنه يعمل في الجسد، لكنه ليس جسداً.

---

(١) الدكتور زغلول النجار؛ تفسير الآيات الكونية؛ ٣ / ٤٤٥، ٤٤٦.

والقلب بالمفهوم الروحي أو المعنوي، بكل ملكاته وقواه، متحد اتحاداً وثيقًا بالظاهر، أي بالجسم. والظاهر والباطن معًا يكونان الذات الإنسانية، وكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به بطرق عديدة بعضها ظاهر ملحوظ وبعضها غير معروف، مثل أية وحدة عضوية (١) وما يسمى بالطب السيكوسوماتي يقوم على هذه الحقيقة، وهذه الوحدة العضوية عرفت منذ أمد بعيد.

وهذا المفهوم ينفي ازدواج القلب نفيًا باتًّا، أي نفي ازدواج الحياة الباطنة للفرد الإنساني، فليس لفرد ما حياتان باطنتان، بل حياة واحدة، وقد يتظاهر الفرد بغير حقيقة حياته الباطنة؛ لكن التظاهر والنفاق لن يمس حياته الباطنة، إنه يمكن أن يغير حياته الباطنة ويستبدل بها غيرها، لكنه لا يستطيع الجمع بين قلبين بحال(٢).

وهكذا يثبت إعجاز الآية الكريمة استناداً إلى المفهوم الروحي للقلب كما جاء في الآيات العديدة التي ذكرت القلب، ومن ثم يثبت صدق النبي ﷺ.

دليل البنان

تسوية البنان في خَلْق البشر معجزة إلهية تؤكد لكل ذي عينيْن القدرة الإلهية المطلقة: "والخالق العظيم قد أتم خَلْق الإنسان على أكمل ما يقتضي الخلق من الإتقان، وخَتَمَ خَلْق كل فرد من بني الإنسان بتسوية بنانه، أي بصمات أصابعه بصفة عامة، وبصمات أنامل تلك الأصابع بصفة خاصة"(٣) وبصْمة كل فرد لا يمكن أن تتطابق مع بصمة فرد آخر، وإن كان توأمه، ولذلك استخدمت البصمات في تحديد الجناة في الجرائم المختلفة، فانتفعت البشرية بها أعظم انتفاع، ولم تدرك العلوم المكتسبة قيمة البصمة إلا في بداية القرن العشرين، وهكذا نرى أن القرآن الكريم سبق المعارف

(١) تفسير القرطبي؛ ١ / ١٦٤.
(٢) الدكتور أحمد عبد الرحمن؛ مفهوم القلب في القرآن الكريم؛ نشر المؤلف؛ ٢٠٠٠م.
(٣) تفسير الآيات الكونية؛ ص ٢٣٤.

المكتسبة بثلاثة عشر قرنًا، بإشارته إلى تسوية البنان في الأحياء، ثم عند البعث، مما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه"(١).

دليل توسع الكون

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقد نزلت هذه الآية الكريمة: "والعالم كله ينادي بثبات الكون وعدم تغييره.

في عام ١٩٣٩ اكتشف «هابل» أن الملايين من المجرات فى ابتعاد مستمر بعضها عن بعض، بسرعات هائلة.. وهذا يعنى أن الكون فى تمدد مستمر، أو توسع مستمر، وهذا ما قررته الآية الكريمة ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]

وبعد توصل العلم الحديث إلى الحقيقة القائلة إن الكون له بداية يتسع منها ويتمدد، نستطيع أن نقول إن معنى الآية الكريمة لم يعد يحتمل التأويل، وهذه الحقيقة العلمية ليست قائمة على نظرية أو فرض، ولكنها حقيقة أثبتتها المشاهدات. وقد قام فليكون عديدون بتجارب اتفقت على أنها حقيقة علمية، ولم يظهر حتى الآن أى دليل يعارضها أو يقدح فى صحتها: فأصبحت حقيقة اتساع الكون كحقيقة دوران الأرض حول الشمس أو كروية الأرض» (٢).

يقول بوكاي إن: "توسع الكون هو أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث"(٣).

ويقارن ما جاء في قوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] بما قاله علماء غزو الفضاء، ثم يعقب قائلاً: "كيف لا ننبهر بتلك التحديدات الدقيقة التي لا يمكن افتراض أنها صدرت عن فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرنًا تقريبًا؟"(٤).

---

(١) تفسير الآيات الكونية؛ ص ٢٣٧. (٢) الدكتور يحيى المحجرى؛ آيات قرآنية فى مشكاة العلم.
(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٩٢. (٤) بوكاي؛ ص ١٩٥.

وهكذا نجد الأدلة العلمية الحديثة في مجالات متباينة تشهد بأن القرآن الكريم يستحيل أن يكون من تأليف بشر، أو من نسخ كتب عامرة بالأخطاء.

إنه وَحي أوحاه الله تعالى إلى نبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ.

وإن توسع الكون - كما يقول بوكاي - "هو أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث، ذلك المفهوم قد ثبت اليوم ثبوتًا تامًّا؛ ولا تعالج المناقشات إلا النموذج الذي يتم به هذا التوسع.

هذا التوسع أوحت به نظرية النسبية؛ وهو - فضلاً عن ذلك "يعتمد على معطيات مادية، وذلك من خلال دراسات طيف المجرات؛ فالانتقال المنهجي نحو اللون الأحمر من الطيف، يجد تعليله في تنحي المجرات كل عن الأخرى"(١).

والقرآن الكريم يقول تعبيراً عن ذلك ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٧]

فهذه معجزة شاهدة على أن كتابنا العزيز وحي من عند الله تعالى أنزله على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

دليل "الرتق والفتق"

إن الإشارة الواردة في سورة الأنبياء (الآية ٣٠)، مذهلة حقًّا!

قال تعالى ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ** ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ [فصلت: ١١] وذلك لأن الصورة العلمية الحديثة ترى هذه الحقيقة نفسها!!

١ - فالآية الأولى تشير إلى عملية "**الفتق**" - أي الفك والفصل، الذي مزق الكتلة الأولى التي كانت ملتحمة أو "مرتوقة" حسب لفظ القرآن.

٢ - والآية الثانية تشير إلى وجود **كتلة غازية**، هي الدخان، وقوامها "غاز" تتعلق به جزيئات دقيقة من المواد الصلبة أو السائلة في درجة حرارة معينة.

٣ - ثم يقرر القرآن ويؤكد أن "**العوالم متعددة**"؛ وعبارة "**رب العالمين**" تتكرر في القرآن منذ الآية الأولى من سورة الفاتحة نفسها!

(١) بوكاي؛ ص ١٩٢

وهذا هو على التحديد ما انتهت إليه العلوم الحديثة.

فكيف استطاعت عبقرية محمد أن تبدع هذا العلم؟

وهل كان بوسع إنسان أمي، في عصر أمي؛ أن يقرر الحقائق التي لم يعرفها العلم الحديث إلا بعد قرون، وبعد تطورات، وآلات، وبحوث متراكمة، وتجارب لا تنقطع؟!

يقول بوكاي إن عملية تكوين الشمس، ونتاجها الثانوي - أي الأرض: "نجد أن العملية تمت من خلال تكاثف السديم الأولي، وانفصالهما. وذلك بالتحديد هو ما يعبر عنه القرآن بشكل صريح، عندما يشير إلى العملية التي أنتجت ابتداءً من "الدخان" السماوي "رتقًا ثم فتقًا". إننا نسجل هنا التطابق الكامل بين المعطية القرآنية والمعطية العلمانية"(١).

ويرد بوكاي على اعتراض يزعم بأن هذه الصورة العلمية الدقيقة مستفادةٌ من التراث القديم فيقول إن بعض الحقائق - مثل وحدة الشمس والأرض أصلاً - ترددت بالفعل في تراث الإنسان.

لكن الأوصاف الخرافية كانت تضاف إلى الحقيقة دائمًا. ففي اليابان جاء في الأساطير أن الكون في أصله كان في حالة اختلاط وفوضى: "ثم أضافت (الأساطير) إلى هذه الصورة البيضة المحتوية على بذرة في داخلها، كما هو الحال في أي بيضة، وبهذا الشكل أفقدت الإضافةُ الخياليةُ الأسطورةَ جدية المفهوم".

أما حقائق القرآن: "فهي خالية من التفاصيل الوهمية المصاحبة لهذه المعتقدات"(٢).

وقد سئل الدكتور فاروق الباز عن أصل السماء وأصل النجوم: هل هو الدخان، كما قال الله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فقال الدكتور الباز: بعد أن حللنا صخور القمر، وتمكنا من تحليل الشهب والنيازك، تأكد لنا أن عمر صخور القمر

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٧١، ١٧٢. (كان لفظ معطى خيراً من لفظ معطية!!! المؤلف)

(٢) الموسوعة الذهبية؛ ص ١٥.

وصخور المجموعة الشمسية وصخور الأرض عمرها كلها واحد، مما يدل على أنها تكونت فى وقت واحد، وتأكد لنا أن الكون واحد، وأن الأرض والسماء كانتا متصلتين فانفصلتا» .

وهذا هو على التحديد الرتق (أو وحدة الأصل)، ثم الفصل (أو الفتق!) .

وهذه حقيقة معجزة مذهلة، أن يتحدث العلم الحديث بلغة تجريبية علمية مؤكداً التطابق مع ما ورد فى القرآن الكريم.

دليل غزو الفضاء

قال تعالى ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ [الرحمن: ٣٣].

ويلاحظ بوكاي أن استعمال الحرف ؛ إنْ" (أو أداة الشرط "إنْ") يشير حسب قواعد العربية إلى الإمكان، في حين يشير الحرف "لو" إلى الامتناع. **فكأن القرآن قد قرر إمكان غزو الفضاء منذ ١٤ قرنًا**؛ والسلطان الذي اشترطه القرآن هو سلطان العلم.

وهناك آية أخرى: "تصف لنا رد الفعل الإنساني أمام المشهد غير المنتظر الذي سيوهب لمسافري الفضاء: نظرات مضطربة وشعور بالانسحار"[١]. وذلك في قوله تعالى ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

وهذا هو ما حدث فعلاً لرواد الفضاء سنة ١٩٦١ .

دليل السحب الركامية

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** ﴾ [النور: ٤٣] .

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٩٤ .

وبهذه الآية يسبق القرآن العلوم البشرية في التعريف بالسحب الركامية، فلم يعرف العلماء تلك السحب إلا بعد ريادة السماء بواسطة الطائرات، في أواخر القرن العشرين: "ومن هنا يأتي وصف القرآن الكريم لها بهذه الدقة والإحاطة والشمول، شهادة صدق على أن القرآن العظيم هو كلام الله الخالق، وأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض"(١).

دليل دقة التقدير في الخلق

وفي حكم كلي شامل صارم يقول الله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان:٢] ويقول ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. ومنذ نزول القرآن حاول المفسرون إدراك معنى التقدير في خَلْق كل الأشياء، فأصاب كل منهم على قدر علمه وعلم زمانه، ثم جاء العصر الحديث بدراساته العميقة المنوعة، ليشهد للخالق العظيم: "بدقة التقدير وروعة التدبير، وإحكام الترابط والتوازن بين مختلف أجزاء هذا الكون الشاسع الاتساع، الدقيق البناء المنضبط انضباطاً شديداً في كل وحدة من وحداته وكل جزئية من جزئياته، من أدق دقائقه إلى أكبر مكوناته، من اللبنات الأولية للمادة الداخلة في كل جزئية، من بناء الذرة إلى المجموعات النجمية المكونة للمجرة، ومن الأرض إلى باقي أجرام السماء، ومن الفيروس إلى الإنسان، وفي كل وسط بيئي محدد – على تعدد تلك الأوساط وتباينها"(٢).

وهكذا جاءت العلوم المتقدمة الحديثة بشرح الآية الكريمة والآيات الأخرى التي أكدت دقة التقدير في خلق كل شيء، وبذلك أكدت صواب الحكم الكلي الشامل. وهذا يؤكد تبعًا لذلك صدق النبي الذي تلقى هذه الآيات الكريمات عن ربه عز وجل، وأبلغها إلى الخلق ليعرفوا ربهم ويعبدوه وحده لا شريك له.

الكون مخلوق وله نهاية

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

---

(١) تفسير الآيات الكونية ؛ ٢ / ٢٩٥ .
(٢) نفسه؛ ٣ / ٥٢٧ .

يقول الدكتور النجار إن معنى هذه الآية: "أن الكون ليس بأزلي ولا بأبدي، بل كانت له في الأصل بداية تحاول العلوم المكتسبة تحديدها، وكل ما له بداية لابد وأن تكون له في يوم من الأيام نهاية لها من الشواهد الحسية في كل من الشمس والقمر ما يؤكد على حتميتها"(١).

وهذا التفسير يوجه ضربة لمزاعم المشككين في حقيقة خَلْق العالم، والمروِّجين لفكرة أن الوجود قديم، موجود بلا بداية، وليس له خالق، على نقيض ما يقرره الإسلام من أن الله تعالى خالق كل شيء، وموجد كل شيء، فهذا التفسير سند مهم ودعم قوي للإيمان بالله الخالق قبل أن يكون دعمًا للإعجاز العلمي، فالعالم مخلوق، وخالقه الله تعالى.

وينتهي الدكتور النجار إلى القول إن تسخير الشمس والقمر وجريانهما إلى أجل مسمى حقيقة علمية لم تصل إليها العلوم الكسبية إلا في أواخر القرن العشرين، مما يؤكد أن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين على خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ (٢).

دليل التصعد في السماء

يقول العلماء المحدثون إن لدى الإنسان حويصلات هوائية فى صدره فإذا دخل الأكسجين الرئتين: "ينفخ هذه الحويصلات الهوائية فتراها منتفخة، لكن إذا عدنا إلى طبقات الجو العليا ينقص الهواء وينقص الأكسجين، فيقل ضغطه، فتنكمش هذه الحويصلات، ويقل الأكسجين فإذا انكمشت هذه الحويصلات ضاق الصدر ويتحرج النفس ويصبح صعبًا ﴿ ... **يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...** ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) تفسير الآيات الكونية؛ ١ / ٣٨٩، ٣٩٣.

(٢) نفسه؛ ص ٣٩٦.

وقالوا: من سطح البحر إلى ١٠٠٠٠ قدم لا يحدث تغيير.

ومن ١٠٠٠٠ قدم إلى ١٦٠٠٠ قدم يبدأ الجسم فى هذه المنطقة تكييف نفسه ليعدل النقص الذى حدث.

ومن ١٦٠٠٠ قدم إلى ٢٥٠٠٠ قدم يبدأ الضيق الشديد فى الصدر ويصاب صاحبه بالإغماء، ويميل إلى أن يقع وتأخذه دوخة، ويكون التنفس صعباً.

وبعد ٢٥٠٠٠ قدم تتمدد الغازات فى المعدة فتضغط على الحجاب الحاجز فيضغط على الرئتين، ويضيق الصدر.. وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

[الأنعام: ١٢٥]

ولم يعرف العرب ولا الأمم الأخرى المجاورة، تجربة الصعود إلى السماء، على ارتفاع ١٦٠٠٠ قدم ليقال إن محمداً عرف ذلك من كلام الناس ورواياتهم، وليس فى بلاد العرب جبل بهذا الارتفاع الذى يسبب الضيق الشديد فى الصدر [١].

إن المشركين كانوا يشعرون بالضيق الشديد لما يسمعونه من تسفيه عقولهم، وضياع حياتهم هباءً منثوراً فى عبادة الأوثان والإيمان بسخافات الوثنية، وذلك هو ما يشبه التصعد فى السماء.

دليل كون الكائنات الحية أمم مثل البشر

فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم..** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) الموسوعة الذهبية فى إعجاز القرآن؛ ص ٤٤.

يقول الدكتور النجار إن الآية الكريمة " تشير إلى أن كل نوع من أنواع الأحياء، بأممه وأفراده، هو كيان خاص معزول عن غيره من الأفراد والأمم والأنواع، وأن كل صلات القربى المتعلقة به محصورة في أفراده، ولا تمتد إلى غيره من الأنواع - وهي حقيقة بدأت أعداد من نتائج العلوم المتلاحقة من مثل علم الوراثة، وعلم الأحياء الجزيئي، وعلم الكيمياء الحيوية وغيرها تتحدث عنها بوضوح"(١).

وورود هذه الحقائق في كتابنا العزيز يشهد بأنه من عند الله تعالى، لأنه لا يمكن لبشر أن يصل إليها في عهد النبوة المحمدية ولا قبلها.

دليل الماء أصل الحياة

ويقول الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] هذه الآية الكريمة تعبر عن حقيقة كونية شاملة، ولأن كل شيء حي هو من الماء، استخلص الدكتور النجار ما يلي:

١ - أن الماء سابق في وجوده على جميع المخلوقات الحية.

٢ - وأن الله تعالى خلق كل صور الحياة الأرضية الباكرة في الماء، لأن الأوساط المائية في بدء خلق الأرض كانت أنسب البيئات لاستقبال الحياة.

٣ - وأثبتت علوم الأرض أن خلق النبات كان دومًا سابقًا لخلق الحيوان، وأن عملية الخلق توَّجها الله تعالى بخلق الإنسان (٢).

هذه الحقيقة الكبرى القائلة إن كل شيء حي مخلوق من الماء، لم يصل إليها علم الإنسان الكسبي إلا في منتصف القرن العشرين: "وورودها في كتاب الله بهذه الدقة العلمية المبهرة، والإيجاز المعجز، مع الشمول والإحاطة، مما يقطع بأن القرآن

---

(١) تفسير الآيات الكونية؛ ١ / ٢١٥.
(٢) نفسه؛ ٢ / ١١٩، ١٢٠.

الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للرسول والنبي الخاتم الذي تلقاه"[1].

وفي آية أخرى يبين الخالق جل جلاله أنه خلق كل دابة من ماء فيقول ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ** ﴾ ثم يصنف الدواب على أساس وسيلتها في المشي فيقول في الآية نفسها ﴿ **فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [النور: ٤٥] وهذه الحقائق: "لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده"[2]. فورودها في القرآن الكريم دليل على أنها تنزيل من عند الله، وعلى صدق نبوة محمد ﷺ.

دليل دورة الماء

تحدث القرآن الكريم عن دورة الماء في الطبيعة فأورد حقائق واضحة، **لم يعرفها العلم الحديث إلا بعد حوالي ألف سنة، عام ١٥٨٠م**، على يد "برنارد باليسي" Bernard Palissy.

ولم تتسرب أية معلومة خاطئة (إلى آيات القرآن الكريم) وقد كانت سائدة في عهد النبوة المحمدية[3].

فهذا دليل علمي مُحْكم على صحة القرآن، وعلى صحة النبوة المحمدية، فيقول بوكاي: "ولنقارن معطيات علم الهيدرولوجيا الحديث بتلك التي نجدها في كثير من الآيات القرآنية ..... سنلاحظ وجود توافق رائع بين الاثنين"[4].

واستند بوكاي إلى آيات عديدة ذكرت الرياح والسحاب والأمطار، منها قوله

(١) تفسير الآيات الكونية؛ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٢) نفسه؛ ٢ / ٣١٧ .
(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ؛ ص ١٩٨ - ٢٠٣ .
(٤) نفسه؛ ص ٢٠٣ .

تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]

ولاحظ أيضًا عدم الاختلاط الفوري بين ماء البحر المالح، وماء الأنهار العذب، واستشهد بقول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان: ٥٣].

وعرض موريس بوكاي عددًا كبيرًا من الحقائق، وقارن بين ما جاء في القرآن الكريم وما يقوله العلم الحديث فيها، ثم يعقب على ذلك بقوله: "إننا نسجل هنا التطابق الكامل بين المعطية القرآنية والمعطية العلمانية"(١). هذا تحديدًا عن "الرتق والفتق" في خَلْق الكون.

دليل كروية الأرض

يقول الحق تبارك وتعالى﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

هاتان الآيتان تثبتان كروية الأرض، ففيهما: "إشارة واضحة إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى جريها في مدار محدد لها حول ذلك النجم بمحور مائل على مستوى مدار الشمس، وإلا ما تكوّن الظل، ولا تبدلت الفصول المناخية، فلو أن الأرض لم تكن كرة ولم تكن دوَّارة حول محورها أمام الشمس ما امتد الظل، ولا تبادل الليل والنهار، ولو أن كوكبنا لم يكن جاريًا باستمرار في مدار محدد حول الشمس، وبمحور مائل على مدارها ما تبدلت الفصول المناخية ولا تغيرت زوايا سقوط أشعة الشمس على الأرض، وبالتالي تغيرت شدتها، ولظلت أشعة الشمس مسلطة باستمرار على أحد نصفَي الأرض المغمور في نهار دائم فتبخر الماء، وتخلخل الهواء، وتحرق كل حي أو تصيبه بالأمراض، بينما نصفها الآخر

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

يبقى مغموراً في ليل دائم تتجمد فيه الأحياء وتفنى فناء كاملاً لحرمانها من طاقة الشمس.."(١).

وحين نزلت هاتان الآيتان كان الاعتقاد السائد هو أن الأرض ثابتة، فإذا جاءت هذه الحقائق العلمية الدقيقة في القرآن، كان معنى ذلك أنه تنزيل من عند الله تعالى تلقاه رسوله الصادق الأمين ﷺ.

وتتأكد كروية الأرض انطلاقًا من تفسير قوله تعالى ﴿... **يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ** ...﴾ [الزمر: ٥] فهذا التكوير يشير إلى كروية الأرض، وإلى دوران الأرض حول محورها، دون أن يعلن ذلك صراحة، وتلك حكمة إلهية لأن الإعلان الصريح ما كان يمكن قبوله في مجتمع أمي كالمجتمع العربي في ذلك الزمان، وهذا يؤكد أن القرآن كلام الله العليم الحكيم.

دليل مصدر الماء: الأرض

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا** ....﴾ [الأنعام: ٩٩].

بعد أن يشرح العمليات العديدة التي تتم حتى يخرج الحب من النبات، وهي عمليات مذهلة، يقول الدكتور النجار: "وهذه الحقائق لم يدركها العلم المكتسب إلا في القرن العشرين، وورودها في كتاب الله قبل أربعة عشر قرنًا بهذه الدقة والإحاطة والشمول لمما يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله المُوحي به إلى خاتَم أنبيائه ورسله"(٢).

ويقول سبحانه وتعالى﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١]

---

(١) تفسير الآيات الكونية؛ ٢ / ٣٢٦.
(٢) نفسه؛ ١ / ٢٤١.

هنا يبين القــرآن الكريم أن مـــاء الأرض وهـواء الأرض من داخل الأرض. "هـذه الحقيقة لم يدركها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، فسبحان منزل القرآن من قبل أربعة عشر قرنًا"(١).

دليل الجبال أوتاد

انطـلاقًا من قول الله تعـالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٦، ٧] وبعد شرح مستفيض للآيتين الكريمتين، يقول الدكتور النجار إن لفظة "أوتاد": "تصف كلاً من الشكل الخارجي للجبل، وامتداده الداخلي ووظيفته؛ لأن الوتد أغلبه يدفن في الأرض، وأقله يظهر على السطح، ووظيفته التثبيت، وقد أثبتت علوم الأرض في العقود المتأخرة من القرن العشرين أن هكذا الجبال، بعد أن ظل وصف الجبال إلى مشارف التسعينيات من القرن العشرين قاصراً على أنها مجرد نتوءات فوق سطح الأرض، واختلفوا في تحديد حد أدني لارتفاع تلك النتوءات الأرضية اختلافًا كبيراً. وفي السبق القرآني بوصف الجبال بأنها أوتاد تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى"(٢).

دليل مرور الجبال مَرَّ السحاب

وإننا ننظر إلى الجبال فنراها جامدة ساكنة، لا يشك في ذلك أحد، لكن القرآن الكريم يخالف هذه الرؤية، فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]

ويقول الدكتور محمد توفيق صدقي: "وليس ذلك في يوم القيامة على الأصح،

(١) تفسير الآيات الكونية؛ ٤ / ٣١٠.
(٢) نفسه؛ ٤ / ٢٨٣.

إذْ قوله ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لا يناسب مقام التهويل والتخويف؛ وقوله ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة"(١).

فالآية تقرر حركة الأرض التي تتضمن الجبال. وحركة الأرض بهذه الصورة لابد أن يلزم لها وجود محور للحركة! والمحور يتطلب وجود قطبيْن؛ والقطبان عيَّنهما لفظ أطراف، وأشار إليهما تقرير "دَحْو الأرض". إذن، الأرض بيضاوية الشكل، وذات حركة دائرية حول محور، وأن لها قطبيْن.

هذه الحقائق لم تعرف إلا في العصور الحديثة (٢).

دليل إنقاص الأرض من أطرافها

يقول الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا.. ﴾ [الرعد: ٤١].

بعد تفسير عبارة إنقاص الأرض يقول الدكتور النجار: "فسبحان الذي أنزل - من قبل ألف وأربعمائة سنة - هذه الإشارات العلمية الدقيقة إلى حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، وهي حقيقة لم يدرك الإنسان شيئًا من دلالاتها العلمية إلا منذ عقود قليلة "(٣).

هل توجد كواكب أخرى تشبه الأرض؟!

يقول بوكاي: "وليس أقل ما يثير دهشة قارئ القرآن في العصر الحديث أن يجد في نص تصريحًا بإمكان وجود كواكب أخرى تشبه الأرض، في الكون؛ وهذا ما لم يتحقق منه الناس بعدُ في عصرنا"(٤).

قال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

---

(١) الدكتور محمد توفيق صدقي؛ الدين في نظر العقل الصحيح؛ مطبعة المنار؛ ط ٢ سنة ١٣٤٦هـ ص ٤٥
(٢) مالك بن نبي؛ الظاهرة القرآنية؛ ص ٣٤٥.
(٣) تفسير الآيات الكونية؛ ١ / ٤٢٨، ٤٢٩.
(٤) بوكاي؛ السابق؛ ص ١٦٤.

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

[الطلاق : ١٢]

ولم نتحقق علميًّا حتى الآن من وجود "سبع أراض" ! ولكن العلم يمضي، والمعرفة تتقدم، وسوف يكتشف الإنسان يومًا أن أرضه ليست وحدها، أما الآن فالفلكيون يقولون بوجود مجموعات أخرى غير المجموعة الشمسية، كل ما في الأمر أنهم لا يعرفون إن كانت هناك "أراض" كأرضنا من حيث وجود الغلاف الجوي، والأكسجين، ومن ثم الماء، والحياة على ظهرها؛ لكن عجز البشر عن التعرف على ذلك لا يمنع مطلقًا من أن تكون حقيقة، فهي حقيقة، وكما يقول الفلاسفة : "الموجود أوسع كثيراً من المعروف" .

ويخرج "بوكاي" من دراسته العلمية للقرآن بخمس حقائق هي :

(أ) وجود ست مراحل للخلْق .

(ب) تداخل (أو : معية) خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض .

(ج) خلق الكون ابتداء من "كومة" أولية كانت "مرتوقة" ثم "فتقت" بعد ذلك .

(د) تعدد السماوات، والكواكب التي تشبه كوكبنا (الأرض) .

(هـ) وجود خلق وسيط "بين السماوات والأرض"(١) .

ثم يقارن بوكاي هذه الحقائق بمعطيات العلم الحديث وينتهي إلى القول : "إذا كانت المسائل التي تطرحها رواية القرآن لم تتلق تمامًا - حتى يومنا هذا - توكيداً من المعطيات العلمية، فإنه لا يوجد على أي حال أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون"(٢) .

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٦٦ .

(٢) نفسه؛ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

دليل مدار الشمس ومدار القمر

القرآن قرر وجود **مدار للشمس، ومدار للقمر**، وبيَّن أن **كلاً منهما ينتقل في الفضاء بحركته الخاصة.**

قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقال تعالى ﴿**لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠].

ويعلق بوكاي على هاتين الآيتين بقوله: "القرآن يذكر بوضوح أمرًا جوهريًّا، ألا وهو: وجود مدار لكل من الشمس والقمر، كما يشير إلى تنقل هذين الجرمين في الفضاء كل بحركته الخاصة"(١).

ويقول بوكاي أيضًا إن القرآن - بهاتين الآيتين - قد قدم: "**مفهومًا جديدًا لم يتضح إلا بعد قرون عدة**"(٢) ولهذا السبب لم يستطع قدامى المفسرين فهم المعنى المقصود منهما بدقة - وبخاصة كلمة "فلك" - فقال الطبري في تفسيره: "**.... ونسكت عما لا علم لنا فيه**".

دليل "أجَل" الشمس، و"مستقرها"

يقرر القرآن الكريم أن للشمس "أجلاً" و "مستقرًّا".

قال تعالى ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾ [الرعد: ٢] وقال تعالى ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [يس: ٣٨].

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٨٣.

(٢) السابق؛ ص ١٨٤.

فثمة إذن حقيقة قرآنية تقول :

(أ) **إن للشمس والقمر أجلاً أو عمراً محدداً.**

(ب) **إن للشمس مستقراً**، أي مكاناً تقف فيه عن الحركة.

فماذا يقول العلم الحديث؟

يقول إن : "الشمس حالياً في مرحلة أولى تتسم بتحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم"(١).

ويقدر أن تنتهي هذه المرحلة بعد ٥,٥ مليار سنة؛ "ويكون نتيجة هذا التحول تمدد الطبقات الخارجية، **وبرود الشمس** ... وكما حدث بالنسبة لنجوم أخرى سُجلت تحولاتها حتى المرحلة الأخيرة، **فيمكن توقع نهاية الشمس**". "ويحدد علم الفلك الحديث – بشكل كامل هذا المكان (أي المستقَر) بل أعطاه اسم (مستقر الشمس Apex Solitaire)"(٢).

* * *

(١ ، ٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم؛ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

الفصل الخامس

علاقة رسالة النبي ﷺ بالرسالات السابقة منذ آدم عليه السلام

توطئـــة

الشائع اليوم بين الشعوب الغربية هو تكذيب محمد ﷺ، هذا ما قلته غير مرة.

والأسباب عديدة. وفي الأعماق نجد ذكريات الحروب الصليبية، التي يدرسها الغربيون في مدارسهم بصورة غير صحيحة تدين المسلمين وترسمهم في أبشع الأشكال.

ومعلوم أن الدولة المسلمة الأولى كانت قد اشتركت في حروب ضد الدولة الرومانية وطردتها من الشام ومصر وشمال أفريقية، ثم استولت على شبه جزيرة أيبيريا وأقامت دولة الأندلس لمدة ٨٠٠ عام، وابتداءً من أواخر القرن ١٨ احتل الغربيون البلاد المسلمة الواحدة تلو الأخرى، واستعمروها حوالي قرنين من الزمان.

وبسبب الاختلاط الكثيف بين المسلمين والغربيين، ازدهرت الهجرة إلى أوروبا وأمريكا، وتكونت جاليات مسلمة كبيرة في كل دولة غربية.

وقد حافظ المسلمون المهاجرون على دينهم، وشرعوا في الدعوة إليه، فاستجاب لهم عدد كبير من أبناء البلاد، وفيهم بعض أفراد من النخبة المثقفة، وانزعج كثير من الغربيين بسبب ذلك.

لهذا كله نشطت الحملات التربوية والإعلامية ضد الإسلام ونبي الإسلام، الذي وصفوه بالكذب وادعاء النبوة وسرقة أفكاره من التوراة والإنجيل.

وأية دراسة مقارنة لاكتشاف صلة رسالة النبي ﷺ بالرسالات السابقة عليها، والبت في تلك الاتهامات، تحتاج إلى معرفة الكتب السماوية التي آمن بها أصحاب الديانات السابقة، ثم مقارنتها بالقرآن، غير أن كتب الديانات السماوية السابقة لم يبق منها سوى التوراة والأناجيل، وهنا تقابلنا صعوبة كبيرة هي: وقوع التحريف فيها، باعتراف كبار العلماء المسيحيين واليهود[1].

فلا مفر من الرجوع إلى القرآن الذي نجا من التحريف، وإلى الاحتكام لعقيدة التوحيد التي جاءت بها الأديان السماوية الثلاثة، فإذا قالت التوراة إن الله هو إله اليهود وحدهم، وإذا قالت إنه لا بعث بعد الموت، وجب علينا أن نرفض قولها، وإذا قال الإنجيل إن المسيح ابن الله، أو هو الله، كان علينا أن نكذب ذلك وأن نؤكد عقيدة التوحيد، وعقيدة نبوة المسيح عليه السلام، وهذا هو ما تصنعه فئات واسعة من الغربيين المعاصرين أنفسهم.

ولسوف نرى فيما يلي من هذه الدراسة، فضلا عما مضى منها أن الرسالة المحمدية تتفق مع اليهودية والمسيحية في اعتناق التوحيد، لكنها ترفض الانحرافات التي أصابت التوراة والإنجيل، ولهذا قال المسلمون إن القرآن تضمن تصديق جميع ما أنزل قبله، لأن الأحكام التي فيه: إما مقررة لما سبق، وإما ناسخة، وإما مجددة.

* * *

(١) راجع: أحمد عبد الوهاب؛ المسيح في مصادر الديانة المسيحية؛ ص ٢٠ .

أولا : فــى العقائــــد

عقيدة لا إله إلا الله عند جميع الأنبياء

عقيدة التوحيد الإسلامية التي تمثل جوهر الرسالة المحمدية هي نفسها عقيدة الأنبياء السابقين من آدم إلى عيسى عليهم السلام. هذا هو ما يؤكده القرآن بقوله:
﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[آل عمران: ٦٧]

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويقول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾

[الأعراف: ٦٥]

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

[الأعراف: ٧٣]

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

[الأعراف: ٨٥]

وقال موسى لقومه: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

[الأعراف: ١٤٠]

وقال القرآن لمحمد: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

التوحيد في اليهودية

وتقول التوراة: "ثم نطق الله بجميع هذه الأقوال: "**أنا هو الربُّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر - ديار عبوديتك، لا يكن لك آلهة أخرى سواي. لا تنحت لك تمثالا** ولا تصنع صورةً ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، وما في الماء من أسفل الأرض، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور"(١).

التوحيد في المسيحية

ولقد سأل أحد الكتبة المسيح قائلاً: " أيَّةُ وصيةٍ هي أول الكل؟"

فأجابه يسوع: "إن أول كل الوصايا هي: اسْمَع يا إسرائيل. الرب إلهنا ربٌّ واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى (٢).

فهذا هو التوحيد الذي يوحد بين الأديان السماوية الثلاثة والذي يلقى التأييد من العقل البشري.

غير أن عقيدة أن "المسيح ابن الله" تعكر عليه. عقيدة التوحيد في الإنجيل تقارب بين المسيحية والإسلام، لكن عقيدة نبوة المسيح عند المسلمين تباعد بينهما. فالإسلام يؤكد التوحيد الذي جاء به الأنبياء السابقون جميعا، وبينهم عيسى، عليهم السلام، ويرفض الانحرافات التي لحقت به.

وقد بذل المسيحيون جهدا كبيرا لإثبات أن "الثلاثة واحد"!: "الآب والابن

---

(١) الخروج؛ ٢٠ (١ - ٥) ص ٩٨.
(٢) إنجيل مرقس؛ ١٣ / ٢٨ - ٣٠؛ وراجع: أحمد عبد الوهاب؛ المسيح في مصادر العقائد المسيحية؛ ص ٣١١ - ٣١٩.

والروح القدس"، لكنهم لم يفلحوا في إقناع الجماهير بذلك في عصر العلم، والمنهج العلمي الرصين، ولم تتمكن المعجزات التي أوردتها الأناجيل من إقناع المسيحيين بالتثليث، فكفر كثير منهم بالمسيحية، وسقط كثير منهم في مستنقع الإلحاد والمادية، وانتقل بعضهم إلى الإسلام أو إلى ديانات أخرى.

وفي إنجيل يوحنا يؤنب المسيحُ اليهودَ فيقول: "كيف تقْدِرون أن تؤمنوا **وأنتم تقبلون مجدا بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه**(١).

العقيدة المسيحية المحرفة: المسيح ابن الله أو هو "الله" نفسه!

ويجيء التحريف فيقول مرقس: "المسيح ابن الله" (٢) يقول النص: "بَدْءُ إنجيل يسوع: المسيح ابن الله."

وقال صوت من السماوات. **أنت ابني الحبيب** الذي به سررتُ (٣).

"والأرواح النجسة حينما نظرته خرَّتْ له وصرخَتْ قائلةً: **إنك أنت ابن الله**"(٤).

وقال له إنسان به روح نجس (يشبه المجنون): "فلما رأى يسوع من بعيد ركض وسجد له. وصرخ بصوت عظيم وقال **مالي ولك يا يسوع ابن الله العلّي**"(٥) ولم يعترض يسوع على وصفه بأنه ابن الله، هذا على فرض أن إنجيل مرقس يصوِّر ما حدث تصويراً صحيحاً، وليس مجرد روايات لا علم للمسيح بها.

ويقول مرقس إن المسيح ظهر بعد صلبه ودفنه للاثنا عشر: "**ثم إن الرب بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس على يمين الله**"(٦).

ومن الجلي أن هذه العقيدة تتناقض مع التوحيد الإسلامي الذي يؤكد أن ليس لله ولد.

ويقول الله تعالى ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن**

(١) إنجيل يوحنا؛ ٥/ ٤٤.
(٢) إنجيل مرقس؛ ١/ ١ - والعقيدة نفسها في إنجيل يوحنا؛ ١/ ٣٥، ٢/ ١١، ٣/ ٣٨، ٨/ ٢٨، ٩/ ٣٥.
(٣) نفسه؛ ١/ ١١. (٤) نفسه؛ ٣/ ١١. (٥) نفسه؛ ٤، ٥، ٦.
(٦) إنجيل مرقس؛ ١/ ١ - والعقيدة نفسها في إنجيل يوحنا؛ ٩٤/ ١٩

لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فهذه السورة (سورة الإخلاص) **تنفي أن يكون عيسى عليه السلام ابن الله أو الله نفسه!** بل إن هذه العقيدة تتناقض مع توكيد المسيح أن "**الرب إلهنا رب واحد**".

هل ادَّعى عيسى الألوهية؟

وفي إنجيل يوحنا يوصف المسيح أنه الله، وابن الله(١) وكان اليهود يريدون قتل المسيح: "لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً **إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله**"(٢) **ولأنه جعل نفسه إلهاً**، وقالوا: "لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. **فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً**"(٣).

ورد عليهم المسيح قائلاً: "**فالذي قدسه الآب وأرسله** إلى العالم، أتقولون له إنك تجدف؟ لأني قلت إني ابن الله؟" (٤).

وقال رؤساء الكهنة اليهود "لبيلاطس" الحاكم الروماني "لنا ناموس، وحَسَبَ ناموسنا يجب أن يموت، **لأنه جعل نفسه ابنَ الله**"(٥).

فها هنا كما في إنجيل مرقس يقول المسيح إنه ابن الله واليهود يريدون قتله تطبيقًا لشريعة موسى التي تحرم ادعاء الألوهية كما تحرم ادعاء البنوة لله.

ومن الجلي أن عقيدة التوحيد لدى اليهود هي العقيدة الصائبة، وأنهم كانوا على حق في غضبهم على المسيح، إذا كان حقًا قد ادعى الألوهية أو البنوة لله. **لكن القرآن الكريم يؤكد أنه عليه السلام لم يدَّع شيئا من تلك العقائد الفاسدة المحرفة.**

يقول الله تعالى **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**

[المائدة: ١١٦، ١١٧]

---

(١) إنجيل يوحنا؛ ١/١؛ ١/٣
(٢) نفسه؛ ٥/١٨
(٣) إنجيل يوحنا؛ ١٠/٣٣
(٤، ٥) نفسه؛ ١٩/٧

ففي حكم الإسلام، المسيح عليه السلام بريء من تلك التهمة الشنيعة، أعني ادعاء الألوهية أو البنوة لله تعالى، وأنه دعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، وأن الله وحده يعلم ماذا صنع القوم بعد أن توفاه الله.

ولقد نُسب إلى المسيح عليه السلام أنه كان يقدر على غفران الخطايا، وكان اليهود يعترضون عليه ويقولون: "مَنْ يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله وحده"(١).

أنسنة الإله: عقيدة باطلة

وهذه مسألة خلافية جذرية. فالتوراة تقول إن: "الرب قد صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، لهذا بارك الله يوم السبت وجعله مقدسا"(٢) وهذا تشبيه يضفي صورة الإنسان على الله تعالى، وهو يتعارض مع كمال التوحيد المنزه عن الشريك والمثيل، والإسلام يرفض هذه الأنسنة رفضا باتّاً، وتبعاً لذلك لا يقول الإسلام بقداسة يوم السبت، ولا يمنع من العمل به، ولا يحرم العمل في أي يوم آخر من أيام الأسبوع، بما في ذلك يوم الجمعة، الصلاة فقط هي التي يجب أن تؤدى وأن يتوقف العمل مؤقتاً حتى تتم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

التجسيد عند اليهود والمسيحيين

قلت غير مرة إن التوحيد عقيدة الرسالات السماوية كلها. لكن كثيراً من الانحرافات تسرب إلى كتبها، وأحالها إلى ديانات منافية للتوحيد المنزه.

ففي التوراة جاء قولهم: "طريق الرب في الزوبعة والعاصفة، والغبار غمام قدميه."(٣) وهذا تجسيد لا يليق بجلال الله تعالى الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي المسيحية يتجسد الله في شخص المسيح، **فيدعون المسيح إلهاً!** وهذا شرك لا يتفق مطلقاً مع التوحيد المنزه، ويباعد بين الرسالة المحمدية والديانة المسيحية المعروفة.

---

(١) إنجيل مرقس؛ ٢ / ٧.
(٢) الخروج؛ ٢٠ - (١١) - ص ٩٨.
(٣) كتاب ناحوم - ١

ومن أسوأ أخطاء اليهود تصورهم لله تعالى على أنه إلههم وحدهم! فليس الله إلهاً لجميع خلقه! **بل هو إله قومي لليهود دون سائر خلق الله!**

وتقول التوراة " **وإله إسرائيل هو الأب "أشعيا"**[١] .

وعلى الرغم من هذا زعم "جولد تسيهر" أن التوحيد الإسلامي منقول عن اليهودية![٢] وهذا افتراء وبهتان لا سند له.

والحق أن التوحيد هو عقيدة جميع الأنبياء ولكن اليهود والنصارى شوهوه بعناصر وثنية، وقد أسقطوا عدداً من الأناجيل التي لم تعجب الرومان الوثنيين[٣] وجاء القرآن بصيغته الحقة النقية من شوائب الشرك والتجسيد والتثليث.

ويقول مراد هوفمان: "إن هذا هو الإنجاز النهائي للإسلام الذي يمثل إسهاماً هائلاً في التطور الروحي للبشرية ... وهو ما جعل محمداً خاتم الأنبياء أجمعين"[٤] .

التوراة: "لا حياة بعد الموت"

ومن الانحرافات الشنيعة جداً قول التوراة إنه: "لا حياة بعد الموت" فهي تقول: "أما الإنسان فإنه يموت ويبلى، يلفظ آخر أنفاسه، فأين هو؟ كما تنفد المياه من البحيرة، ويجف النهر، هكذا يرقد الإنسان ولا يقوم ولا يستيقظ من نومه إلى أن تزول السماوات"[٥] .

هذه العقيدة تباعد بين اليهودية والإسلام، وتعتبر فرقاً هائلا يقطع خيوط الاتصال بين الديانتين، فالإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء والجنة والنار ركن كبير في العقيدة الإسلامية، وبدونه يصعب اعتبار الديانة ديانة حقيقية، فهذه اليهودية ليست الديانة التي بعث بها موسى عليه السلام، والتي تتحد مع الإسلام في عقيدة البعث والحياة الآخرة.

إن الإيمان بالبعث والحساب والجزاء في الآخرة عقيدة أساسية في الإسلام؛ وقد

---

(١) أصحاح (١٦، ٧٣)، وإجماع (٦٤، ٧)
(٢) الدكتور بدوى؛ دفاع عن القرآن ضد منتقديه؛ ص ٧٣ .
(٣) أحمد عبد الوهاب؛ المسيح في مصلحة العقائد المسيحية؛ ص ٢٠ ، ٢٤ .
(٤) يوميات ألماني مسلم؛ ص ٧١ .
(٥) أيوب؛ ٧ - ١٢ .

توعد القرآن الكريم المكذبين بالآخرة فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين: ١٠-١٢] وفي القرآن آيات عديدات تؤكد وجوب هذه العقيدة العظيمة، ابتداءً من الآية الرابعة من سورة البقرة التي تصف المؤمنين، وتقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

جزاء صبر أيوب دنيوى فقط

وبناء على نفى الحياة الآخرة، لا بد أن يكون الثواب والعقاب فى الدنيا فقط. ففى قصة أيوب عليه السلام فى التوراة أن الله «بارك آخرة أيوب أكثر من أولاه فأصبح له أربعة عشر ألف خروف وستة آلاف من الإبل..» (١).

أما فى القرآن الكريم فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤].

ولأول وهلة ربما يظن الباحث أن ثواب أيوب على صبره العظيم على ألوان البلاء هو ثواب دنيوى بحت فى القرآن كما فى التوراة.. وهذا خطأ جسيم.. لأن الآيات فى هذه السورة الكريمة ذكرت عدداً من الأنبياء قبل ذكر أيوب وعدداً آخر بعد ذكره، ثم عقبت على ذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ومعناها - والله أعلم - أن الذين كتبت لهم الجنة سوف يبعدهم الله تعالى عن جهنم ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] وهذا النعيم فى الآخرة. فجزاء أيوب دنيوى وأخروى، ومن المستحيل أن يكون حكم ثوابه مختلفاً عن حكم ثواب الله تعالى للعباد جميعاً.

---

(١) أيوب -- ٢ (١٢) - ص ٦٩٣.

ثانيا : الإيمان بالأنبيـــاء

الأنبياء السابقون في القرآن الكريم

ولقد جاء الكثير عن الأنبياء السابقين وعن عقائدهم في القرآن الكريم، وأخذت بعض سور القرآن أسماءَهم: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، نوح عليهم السلام، ومعظم سورة القصص وصف لنبي الله موسى منذ أن ولد، وشغلت قصة ميلاد المسيح عشرين آية من سورة مريم، وتحدثت ١٥ آية في أول السورة عن زكريا، وذكر إبراهيم وجهاده في قومه في ٢٢ آية من سورة الأنبياء (٥١ – ٧٣) هذا فضلا عما جاء عنه في سورة إبراهيم، وجاء ذكر لوط في هذه السورة نفسها (٧٤ – ٧٥) وذكر نوح وداوود وسليمان، ثم أيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل، وذى النون وزكريا.

ويعطي القرآن الكريم صورة جليلة كريمة وقورة لكل الأنبياء، ويتوسع في ذكر جهاد بعضهم دون بعض، وحين قيل للنبي ﷺ "يا خير البرية!" قال: "ذاك إبراهيم عليه السلام"(١) فهذا يبين التقدير العظيم للأنبياء السابقين على الرسالة المحمدية.

وَيَسْرُدُ القرآن الكريم بعض أحداث الجهاد التي خاضها الأنبياء في سبيل الدعوة إلى الله الواحد الأحد، لكنه نادراً ما يذكر شيئًا عن شرائعهم وأخلاقياتهم، ولهذا يستطيع الباحث أن يبين صلة عقائدهم بعقائد الإسلام، من الثبات على الإيمان بالله الواحد الأحد، ونبذ الشرك والوثنية، لكنه لا يستطيعُ أن يبين صلة العبادات والمعاملات ومدى اتفاقها أو اختلافها؛ لأن الإسلام نسخ معظمها(٢) .

---

(١) مسلم؛ ١٥ / ١٢١

(2) Abol A'ALA Maududi; Towards Understanding Islam; Islamic Teaching Center; Indiana; 1977, p 108

ولو نظرنا في سورة نوح لوجدنا هذه الحقيقة واضحة، فهو يدعوهم إلى عبادة الله، ويحذرهم من عواقب العصيان، ويتفنن في أساليب الدعوة، ويستلفت أنظارهم إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، فلا يستجيبون له! فيسأل الله تعالى أن يقضي عليهم، لكننا لا نجد للعبادات والشرائع أي ذِكْر فيها.

والنتيجة نفسها تبرز أمامنا بعد دراسة ما جاء عن إبراهيم أبي الأنبياء ﷺ، ففي سورة البقرة يأتي لقاؤه مع ذلك الطاغية الذي حاجه في ربه، في آية واحدة (رقم ٢٥٨) وفي سورة إبراهيم يقابلنا توسله الخاشع الذي يسأل فيه ربه الأمن لمكة ولأبنائه، كما يسأله حمايتهم من الأصنام، ويلتمس منه أن يرزقهم ثم يحمد الله الذي وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق (الآيات - ٣٥ - ٤١).

وفي سورة الأنبياء ترد بعض تفاصيل دعوة إبراهيم لأبيه وقومه ليعبدوا الله رب السماوات والأرض، ويَدَعُوا عبادة التماثيل التي كانوا لها عاكفين، وكيف حطم أصنامهم وكيف أوقدوا له ناراً ليحرقوه ﷺ ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وتجيء قصة يوسف مع أبيه وإخوته، وكيدهم له، ونجاته والتحاقه بملك مصر، واستضافة أهله فيها، وتحقيق حلم يوسف عليه السلام، وتكون عقيدة التوحيد بارزة واضحة في تفاصيل القصة في آيات عديدة من السورة، وتشرق صورة يعقوب ويوسف بأنوار النبوة وأخلاقياتها السامية، في صبر يعقوب وإيمانه بالله وثقته فيه، وفي حكمة يوسف وحلمه وعفوه عن إخوته في نهاية المطاف، ﴿**قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف: ٩٢]

وعلى النقيض من هذا قام المنصرون المسيحيون بحملة شاملة لإبراز التناقض بين محمد والمسيح "في نضالهم المرير ضد للإسلام"(١).

---

(١) هاملتون جيب؛ دعوة تجديد الإسلام؛ ص ٩٥.

ويقول ابن حزم: "إن جميع النبيين، وعيسى ومحمداً عليهم السلام عباد لله تعالى، مخلوقون، ناس كسائر الناس مولودون من ذكر وأنثى، إلا آدم وعيسى، فإن آدم خلقه الله تعالى من تراب بيده، (ونفخ فيه من روحه) لا من ذكر ولا من أنثى، وعيسى خلق في بطن أمه من غير ذكر" (١).

والأنبياء كثيرون، ذكر الله تعالى أسماء بعضهم في القرآن، ولم يذكر أسماء البعض، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

والإسلام ينظر إليهم نظرة حب وإكبار ولا يقبل أن تُنسب إليهم الكبائر بأي حال من الأحوال.

الإيمان بجميع الأنبياء

ويوجب القرآن الكريم علىّ المسلم الإيمان بالقرآن، وما أُنزل على جميع النبيين، فيقول عز وجل: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤] ونهى ﷺ عن تفضيله على يونس ابن متى (٢).

لكن هذا لا يعني الإيمان بالصيغة المتداولة للكتب التي يقال إنها أُنزلت على الأنبياء، والتوراة والإنجيل هما أهم الكتب المتداولة، لكن القرآن الكريم يقرر أن الصيغ التي بيد اليهود والنصارى هذه الأيام، وفي عصر النبوة المحمدية، ليست هي الصيغ الصحيحة التي آتاها الله تعالى لموسى وعيسى، لأنهم حذفوا منها وأضافوا بأيديهم. قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩] وقد اعترفوا مؤخراً بهذه الحقيقة.

---

(١) المحلى؛ ١/١٠.

(٢) البخاري؛ ٣٠/١٢٨.

وعلى هذا قال بوكاى: إن التوراة المنزلة من عند الله لم يعد لها وجود(١).

والأناجيل الأربعة المعروفة لم تكتب إلا بعد فترة طويلة من عهد المسيح عليه السلام، كانت حافلة بالاضطهاد لتلاميذه، وكانت قد كتبت أناجيل كثيرة، لكن هذه الأربعة اختيرت لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات (٢) وبهذه الأناجيل زيفت المسيحية التي كانت دين توحيد سماوي وأصبحت ديانة تثليث وتجسيد تناقض دين التوحيد (٣).

فما أنزل على الأنبياء شيء آخر غير متداول الآن، والإسلام - لهذا - لا يقبل من الكتب المتداولة إلا ما يتفق مع القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ الصحيحة.

ولقد صَوَّبَت رسالة محمد ﷺ ما جاء في الرسالات السابقة، وخصوصاً اليهودية والمسيحية، وما ورثته الأمم الأخرى أيضاً:

أكدت الرسالة المحمدية **عقيدة التوحيد المنزه** عن الشريك والمثيل.

وأرست المسئولية الفردية على العقل، ولم تجز محاكمة الحيوان التي شرعتها التوراة وقال النبي ﷺ: "جناية العجماء جُبار".

ونبذت الرسالة المحمدية كل مظاهر العنصرية التي كانت - ولا زالت - مستحكمة بين اليهود، وبين النصارى إلى حد ما.

ورفضت الرسالة المحمدية **مبدأ الإدانة الشاملة للجنس البشري** "الخطيئة الأولى" - التي تبنتها المسيحية ولا تزال، وأكدت المسؤولية الفردية.

---

(١) موريس بوكاي؛ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم؛ ص ١٧ - ٢٢.

(٢) عباس محمود العقاد؛ حياة المسيح؛ ٢٣٢، ٢٣٣.

(٣) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية؛ ص ٤٣ وما بعدها. والدكتور عبد الحليم محمود؛ الفكر الفلسفي في الإسلام؛ دار الكتاب اللبناني ط ١٠ سنة ١٩٧٤؛ ص ٨٣.

وفي التشريع رفضت الرسالة المحمدية **تقرير الرق عقوبة للسرقة**. وهو ما كان مطبقا في الشرائع السابقة، وبهذا أغلقت بابًا واسعًا لتفريخ الرقيق.

وهذه المبادئ المرفوضة هي من التحريفات، لأنها تخالف التوحيد والعقل والعدل.

وأكد النبي ﷺ أن رسالته هي رسالة من سبقه من الأنبياء، وأنهم جميعا أرسلوا بالحنيفية السمحة التي هي الإسلام دين التوحيد المنزه عن الشريك والمثيل ورسالة محمد ﷺ تتبع أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام. والله تعالى يقول ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ٦٨] وقد قال رسول الله ﷺ: "بُعثت بالحنيفية السمحة"[١]. ولم يقل إن رسالتي جديدة، ولم آخذ عمن سبقني!

مكانة الأنبياء: قصة داوود عليه السلام

والرسالة المحمدية توجب الإيمان بكل الأنبياء السابقين وتجلهم، ومن الطبيعي أن يكون النبي – أي نبي – قُدْوة حسنة للمؤمنين، وهذا هو ما يؤكده القرآن الكريم. لكن التوراة المتداولة تستبيح أعراض بعض أنبياء الله، وتنسب إليهم الأعمال الشائنة والخسيسة.

فالنبي داوود يُنسب إليه في التوراة أنه **تآمر على جندي من رجاله حتى قُتل في الحرب لكي يتاح له الزواج من أرملته. وهذه كبيرة من الكبائر**[٢] وهي قصة غير معقولة لأن داوود عليه السلام كان عنده ٣٠٠زوجة و ٧٠٠ جارية.

أما في الرسالة المحمدية فالقصة في سورة "ص" تقول ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ**

---

(١) البخاري؛ إيمان – ٣٩.

(٢) صموئيل الثاني؛ ١١ – ١/ ٢٦.

تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ... ﴾ [ص: ٢١، ٢٢].

وقد قال رسول الله ﷺ: "أحب الصيام إلى الله صيام داوود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا وأحب الصلاة إلى الله صلاة داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه"(١).

ولأنه لا تجوز الكبائر على الأنبياء في شريعة الإسلام فقد فسر المفسرون القصة على أن داوود خطب امرأة مخطوبة ولم يكن يعرف، فرجع عن الخطبة؛ فيقول القرآن ﴿ ... **وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥] (٢).

وخطبة المسلم على خطبة أخيه المسلم محرمة (٣) وقد كانت كذلك في شريعة داوود.

فالقصة من تأليف مؤلف أو مؤرخ يهودي، وليست تنزيلاً من السماء؛ هذا في التوراة، أما في القرآن فهي وحي من عند الله، ومن ثم وجب على الباحث المنصف قبول الوحي، ورد القصة البشرية.

لوط يضاجع ابنتيه!!

وتنسب التوراة إلى لوط عليه السلام كبيرة من أعظم الكبائر، ألا وهي مضاجعة ابنتيه! وتقول القصة إن الابنة البكر قالت لأختها الصغرى: "إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض حولنا رجل يتزوجنا كعادة كل الناس، فتعالي نُسْقِه خمراً ونضطجع معه فلا تنقطع ذرية أبينا". وقد نفذتا الخطة ووضعت كل واحدة ولداً (٤).

---

(١) فتح الباري؛ كتاب أحاديث الأنبياء؛ باب ٣٨ - رقم ٣٤٢٠ - ٦ / ٤٥٥.
(٢) القرطبي؛ الجامع؛ تفسير الآيات؛ ط الشعب؛ ص ٥٦٢١.
(٣) راجع: مسلم؛ ٩ / ١٩٧.
(٤) التكوين؛ خطيئة ابنتي لوط؛ ص ١٩ - ٣٨.

والقصة بادية الكذب، وهي غير ممكنة، لأنها تصور لوطًا عليه السلام كدمية من المطاط لا وَعْي لها ولا إرادة! فهو يشرب الخمر، ويضاجع ابنته البكر في ليلة والابنة الثانية في اليوم التالي، دون أن يشعر أو يفيق! وكيف يمارس الرجل الجنس دون أدنى إحساس بما يفعل؟! وواضع القصة الزائفة يريد أن يبرئ لوطًا من الإثم ويحمله للبنتين، فصوَّره كدمية لا عقل لها ولا إحساس!

وهكذا نجد قصة لوط مجرد فصل بغيض في التوراة الزائفة التي كتبوها بأيديهم وقالوا إنها من عند الله، كما قال الله تعالى ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ** .... ﴾ [آل عمران: ٧٨].

نوح يصنع الخمر ويشربه ويسْكَر!

والعقيدة الإسلامية تخالف ما جاء عن نبي الله نوح عليه السلام في التوراة تلك التي تقول: "واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرمًا، وشرب من الخمر، فَسَكِرَ وتعرَّى داخل خيمته. فشاهد "حام" أبو الكنعانيين عُرْي أبيه..."(١) ففي الإسلام الأنبياء معصومون من مثل هذه الكبائر.

إن الأنبياء في حكم الإسلام معصومون من كل كبيرة؛ ويستحيل أن يقترف نبي الله الكبائر ثم يدعو الناس إلى طاعته! فالعقل نفسه يوجب عصمة الأنبياء من الكبائر: "وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من الصغائر التي تزْري بفاعلها وتحط منزلته وتسقط مروءته"(٢).

---

(١) التكوين؛ أصحاح ٩ من رقم ٢٠ إلى ٢٥.
(٢) صحيح مسلم؛ ٣ / ٥٣، ٥٤.

موقف اليهود من المسيح والمسيحيين!

والمفروض أن المسيحية امتداد لليهودية، والمسيح كان يهودي الجنسية، ورسالته موجهة لليهود، والرواد من أنصاره وأتباعه كانوا يهوداً، وعقيدة التوحيد هي هي في الديانتين، وقد أعلن المسيح أنه لم يأت لإبطال الشريعة الموسوية، وإنما لإكمالها، لكنه غَيَّر بعض الشرائع فقط، فهل هذا يسوِّغ الحملة الرهيبة المتصلة على المسيح والمسيحية والمسيحيين كما نراها في التلمود؟!

فالتلمود يوجب **مَحْو اسم يسوع المسيح**، ويشير إليه بألفاظ مهينة مثل: ذاك الرجل! ونجار ابن نجار! ويقول إنه ابن غير شرعي، شرير، مجنون، ساحر، وثن! وتعاليم المسيح في التلمود: هرطقة وكذب! والمسيحية: ديانة غريبة، وثنية! والمسيحيون: وثنيون قتلة زناة نجسون، أبناء الشيطان! ويشدد على العداء للمسيحيين إلى درجة **اعتبار قتلهم أضحية مقبولة عند الله!** (١) ويحرم مساعدتهم في أي ظرف مهما كان الباعث!

وعلى هذا يمكن القول إنه **لا علاقة بين اليهودية والمسيحية**، بل رفض صارم وعداء مرير من جانب اليهود.

لكن المسيحيين يعتبرون دينهم امتداداً لليهودية، وهم يؤمنون بالتوراة ويأخذون بشريعتها، لأن الأناجيل لم تأت بشريعة بديلة، إلا في مسائل معدودة.

غير أن السياسة المعاصرة تناست كل ذلك، واعتذر المسيحيون لليهود، ولم يعتذر اليهود للمسيحيين! ووقف العالم المسيحي كله مع إسرائيل ضد العرب، وساعدوها بالرجال والمال والسلاح لطرد العرب من ديارهم واحتلالها عنوة، وَجَلْب اليهود من أقاصي الأرض وإسكانهم فيها! وهذا ما عبرت عنه مقولة" إرنست

---

(١) فضح التلمود؛ ص ١٤٦ .

رينان" Ernest Renan يوم ٢٣ / ٢ / ١٨٦٢م في الكوليج دي فرانس: "إن الإسلام – لا اليهودية – هو نقيض أوروبا"(١) وهذا هو ما يفسر عداء الأوروبيين له!

عقيدة رفع المسيح

لكن في الإسلام تقديرا عظيما للمسيح عليه السلام، وفي العقيدة الإسلامية يقين بأن المسيح عليه السلام قد توفي، وقد رفعه الله إليه. فيقول القرآن ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [آل عمران: ٥٥] ويقول أيضا ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]

فالعقيدة الإسلامية مختلفة عن العقيدة المسيحية، وتؤكد دراسة موريس بوكاي صحة العقيدة الإسلامية، وخطأ العقيدة المسيحية بعد أن درس المسألة في المصادر الإنجيلية جيداً. والمبادئ العامة الحاكمة للحياة البشرية تؤكد صحة العقيدة الإسلامية، فالموت قدر الإنسان بحسب قول الله تعالى ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٦] وقوله تعالى ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ [القصص: ٨٨] والواقع البشري هو الشاهد الصادق الذي لا يمكن تكذيبه، فالموت هو النهاية المحتومة لكل كائن حي، والمسيح كان بشراً يأكل ويشرب ويتعب وينام ويستيقظ، ويسعد ويحزن، كسائر البشر، وكسائر الأنبياء، لكنه كان نبيًّا يوحى إليه، فالموت عليه حق، وقد مات ورفعه الله إليه.

الملاحدة والأديان

وانقطعت صلة الأديان – في العصر الحديث – انقطاعًا تامًّا عن الفئات التي

---

(١) الدكتور مراد هوفمان؛ ديانة في صعود؛ ص ١٢ .

تورطت في الإلحاد، وهي كثيرة، فالإحصاءات تبين أن ٤٧٪ من الألمان لا دينيين، ٩٪ ملحدين، وأن ٩٪ مؤمنين، و٣٢٪ من البروتستانت يؤمنون بـ"قوة عليا" ؛ ٣١٪ منهم يؤمنون بالله بالصورة الكنسية؛ وأن ربع الألمان بلا مذهب ديني؛ وأن ٣٩٪ فقط ينتمون إلى الكنيسة الكاثوليكية، وعلى ذلك قالت مجلة دير شبيجل في عددها الصادر يوم ١٥/٦/١٩٩٢ : **"إن ألمانيا قد تحولت إلى بلد كافر به بقايا مسيحية"**(١) **والأوضاع في دول الغرب شبيهة بأوضاع ألمانيا إلى حد كبير.**

وهؤلاء الملاحدة هم الذين يهاجمون الأديان السماوية والأنبياء، وبخاصة النبي محمدا ﷺ ، والبقية الباقية المؤمنة بالمسيحية تدافع عن دينها ضدهم، ومنها قادة كبار يدافعون عن الإسلام وعن النبي محمد، ويتصلون بالمسلمين ويعقدون معهم المؤتمرات التي تسعى إلى إقامة علاقات طيبة بين المسيحيين والمسلمين.

وبعد فإن على كل مؤمن في الشرق والغرب أن يؤيد حوار الأديان (شريطة أن يجري بجدية) وما يسفر عنه من تعارف وتعاون وتوثيق للصلات بين الأديان السماوية ونبذ للحروب والكراهية والإساءات المتبادلة، وعلى المسلمين والمسيحيين أن يتصدوا للمادية والإلحاد وأدعياء صراع الحضارات.

* * *

(١) الدكتور مراد هوفمان؛ الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ٢٤ .

ثالثا: في الشرائع

مقارنات مفيدة

محاكمة الحيوانات؟

تنص التوراة على أنه: "**إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة، فمات (الرجل) يُرجَم الثور حتى الموت، ولا تأكلون لحمه، ويكون صاحب الثور بريئًا**، أما إذا كان الثور نطَّاحًا من قبل، وسبق إنذار صاحبه فلم يكبحْه، فقتل رجلا أو امرأة، **يُرجم الثور، ويقتل صاحبه**، إلا إذا طُولب بدفع الدِّية، فيدفع آنئذ فداء نفسه ما هو متوجب عليه"(١).

هذه إحدى الشرائع اللامعقولة في التوراة، وهي لا تحتاج شرحًا، وأما الإسلام فقد أرسى المسئولية على العقل، والثور لا عقل له، فمن السذاجة معاقبته، وكما قال رسولنا الكريم ﷺ: "جناية العجماء جبار"(٢) ومالك الحيوان مسئول عن ضبطه وحماية الناس من خطره، وهو الذي يحاكم ويؤاخذ بشروط خاصة، لكن لا يمكن أن يقتل.

فهذا هو أول الاختلافات بين الشريعة اليهودية والشريعة الإسلامية.

عقوبة القتل.. إسراف في القسوة

يقول الله تعالى ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥].

---

(١) الخروج؛ ٢١، ١٥

(٢) مسلم؛ ١١ / ٢٢٦.

وفي التوراة: "من ضرب إنسانًا وقتله فالضارب حتمًا يموت"(١) **فالإسلام واليهودية متفقان في أن القاتل يقتل.**

وتقول التوراة: "كل من يضرب أباه أو أمه يقتل"(٢) وفي هذا تختلف الشريعة الإسلامية مع الشريعة التوراتية. إن الإسلام يؤكد أن للأم والأب مكانة سامية، ويوجب على الأولاد احترامهما، فيقول جل جلاله ﴿**فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]

لكن عقوبة القتل على ضرب الأم أو الأب لا يمكن أن تكون عادلة، ولا أظن أن الأمهات يمكن أن يرضين بتطبيقها على أولادهن، وهي تتعارض مع المبدأ العام، أعني: القتل للقاتل، أو القصاص. ولا يتبنى قتل الولد أي قانون معاصر، لا عند اليهود ولا عند غيرهم، والقاعدة العامة هي: التناسب بين الجرم والعقوبة، وهذا التناسب مفقود كلية في هذه الشريعة التوراتية.

وتحكم التوراة بالقتل على كل من ضاجع بهيمة (٣).

ويجب أن يوجه الاعتراض إلى هذه العقوبة، فمن المؤكد أن ذلك الفعل مشين جدًّا، وفي الإسلام أحكام متنوعة لعقاب الزناة: فالزاني المحصن يرجم، بعد التأكد من وقوع الفعل كاملاً. والزاني غير المحصن عقوبته الجلد يقول الله تعالى ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾ [النور: ٢] وحكم اللواط هو حكم الزنا على الأرجح.

في ضوء هذه الشريعة القرآنية **لا يمكن قبول العقوبة التوراتية، لما فيها من قسوة وإفراط.**

---

(١) الخروج؛ ٢١ - (١٢) ص ٩٩.
(٢) نفسه؛ ٢١ - (١٦) ص ٩٩.
(٣) الخروج؛ ٢٢ (رقم ١٩).

والمسألة مختلف فيها عند المسلمين، والأرجح ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: "من أتى بهيمة فلا حد عليه"(١) لكنه يعاقب بعقوبة تعزيرية.

وتقضي التوراة بالقتل على الساحرة (٢) وهو الحكم ذاته الذي قضى به رسول الله ﷺ: "حد الساحر ضربه بالسيف"(٣).

وفي التوراة **بعض التشريعات الإنسانية التي تتسم بالرحمة**، كالنهي القائل: لا تضطهد غريبًا ولا تضايقه، ولا تسئ إلى أرملة أو يتيم، وكذلك النهي عن أخذ فائدة على قرض الفقير، "إن أَقْرَضْتَ فقيرًا من شعبي"(٤) **وتلاحظ في النص نزعة عنصرية**، لأنه يقصر القاعدة على الشعب اليهودي، والعنصرية تفسد فضائل الأخلاق!

وفي هذه المجموعة من القواعد التوراتية **تحريم أكل فريسة الصحراء**، وتقول: "بل اطرحوه طعاما للكلاب"(٥) وهذا التحريم ليس واضحًا، ولكنه **غير معقول لبناء التحريم على مكان الفريسة**! وهذا ليس مسوغا معقولاً!

- **قتل الأسرى نساءً وأطفالاً**

ومن أبشع شرائع التوراة التي تفسر لنا مذابح الكيان الصهيوني اليوم أوامر موسى عليه السلام بقتل الأسرى!

قال موسى لقادة الجيش القادمين من الحرب: "لماذا استحييتم النساء"؟... "**فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً، ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلاً**"(٦).

فهذه مجزرة بشرية رهيبة يأمر بها النبي موسى عليه السلام، ونحن كمسلمين لا نستطيع أن نصدق أن أحد الأنبياء العظام يمكن أن يأمر بقتل الأطفال والنساء.

---

(١) الشوكاني؛ ٧ / ١١٨.
(٢) الخروج؛ ٢٢ (رقم ١٨).
(٣) الشوكاني؛ نفسه؛ ٧ / ١٧٦.
(٤) الخروج؛ ٢٢ - (رقم ٢٥)
(٥) الخروج؛ ٢٢ - (رقم ٣١).
(٦) العدد؛ ٣١ - ١٥، ١٧.

وصورة موسى في القرآن صورة نبي عظيم، ندم لأنه قتل رجلاً دون قصد، اي قتل خطأ، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦، ١٧] وأين هذه الشريعة الهمجية الدموية من شرائع الحرب السامية في رسالة محمد ﷺ؟

يقول ابن رشد إن النبي ﷺ نَهَى عن قتل النساء والولدان، وقال في امرأة مقتولة: "ما كانت هذه لتقاتل"(١) وكان عليه الصلاة والسلام إذا بعث جيشًا قال: "لا تقتلوا أصحاب الصوامع، ويترك لهم من أموالهم بِقَدْرِ ما يعيشون به، كذلك لا يقتل الشيخ الفاني"(٢).

فعلاقة الرسالة المحمدية برسالة موسى - حَسْبَ مزاعم التوراة - علاقة تضاد وتنافي، علاقة الرحمة والرأفة بالعدو المحارب، **باستباحة دماء النساء والأطفال الذين لم يقاتلوا** وليس لهم في الحرب ناقة ولا جمل!

الشريعة المسيحية وتحريم الطلاق

وينسب إلى المسيح قولُه: "فالذي جمعه الله لا يفرقُه إنسان". يعني هو يحرم الطلاق الذي كان مباحًا في الشريعة اليهودية، وقال لهم المسيح: "**من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها، وإن طَلَّقت امرأة زوجَها وتزوجت بآخر تزني**"(٣) ولم يطبق المسيح عقوبة رَجْم الزانية كما تقضي شريعة موسى، وقال للزانية: "اذهبي ولا تخطئي أيضا"(٤).

هذه الشريعة **تخالف الشريعة الإسلامية التي تبيح الطلاق؛ والزواج فيها**

---

(١) فتح الباري؛ كتاب الجهاد؛ ١٤٧ باب قتل الصبيان في الحرب؛ رقم ٣٠١٥ (٦/ ١٤٨).
(٢) ابن رشد؛ بداية المجتهد؛ ٢ / ٥٢٢ - ٥٢٥، ٥٢٧.
(٣) إنجيل مرقس؛ ١٠/ ٩ - ١٢، وكذلك لوقا؛ ١٦/ ١٨.
(٤) يوحنا؛ ٨/ ١٠ - ١١.

بشريعة الله، **وكذلك الطلاق**، وقد ثبت اليوم أن شريعة الإنجيل لا تستوعب ظروف البشر، ولذلك تركها معظم المسيحيين، وأحلوا محلها الزواج المدني، بل استباحوا المحرمات أو ما يسمى "إباحة الاستباحة"![١] وتسببت في عدة كوارث منها: الإعراض عن الزواج وكثرة أبناء السفاح، وتفشي الجريمة، والانكماش السكاني.

الشريعة الإسلامية تخالف الشرائع السابقة

فمن الجلي أن عقيدة التوحيد هي هي في كل الرسالات السماوية قبل التحريف، لكن الشريعة الإسلامية تختلف عن الشرائع في الرسالات السابقة، فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ... **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ [المائدة: ٤٨] وقال القرطبي: "فالأصل التوحيد لا اختلاف فيه"[٢] أما في العبادات والشرائع فقد تميزت الرسالات السماوية بعضها من بعض. **ونسخ الإسلام كثيراً مما ورد في الإنجيل والتوراة**، وقد رأينا فيما سبق نماذج عديدة، ورأينا أن شرائع الإسلام أعدل مما نسخته، ولذلك يؤيدها العقل المنطقي والضمير الأخلاقي وهى لا تستعصي على التطبيق، فإذا طبقت ارتقت بها الحياة، وسعدت بها المجتمعات البشرية.

الأخــــلاق

والقيم الأخلاقية هي هي لدى جميع الأمم، مثل جدول الضرب، وكما يخطئ البعض في جدول الضرب **تخطئ بعض الأمم في فهم مبادئ الأخلاق.**

ففي الرسالة المحمدية – على سبيل المثال – مكان رفيع لفضيلة العفو، وقد أورد إنجيل لوقا صورةً للعفو تختلف عن الصورة الإسلامية، فقد نُسِبَ إلى المسيح

---

(1) Out of Control; p 64

(٢) القرطبي؛ الجامع؛ تفسير الآية ٤٨ من سورة المائدة.

قولهُ: "احذروا لأنفسكم ، وإن أخطأ إليك أخوك فوبخه، وإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ورجع إليك سبع مرات في اليوم قائلاً أنا تائب فاغفر له"(١).

لكن الرسالة المحمدية لا تقر بهذا المفهوم الخيالي للعفو، لأنه غير ممكن تطبيقه في أي مكان في العالم.

في الإسلام يؤخذ في الاعتبار **أربعة معايير للعفو** : **لأن الإساءات التي يطلب العفو عنها أنواع:**

(أ) صغائر وكبائر.

(ب) وهي تقترف خطأً أو عمداً.

(ج) تتكرر أو لا تتكرر.

(د) والأمل في الإصلاح قد يلُوح وقد يفتقد.

فالإساءة اليسيرة غير المقصودة، التي ترتكب ضدنا لأول مرة، يندب العفو عنها، خاصةً إذا لاح لنا الأمل أنه سيُصلح من سلوك المسيئ، وعلى النقيض من هذا الإساءة الكبيرة، المتعمدة، المتكررة، لا يجوز العفو عنها، لأن العفو في هذه الحالة سيشجع على التمادي، والواجب تطبيق شريعة: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشورى: ٤٠] وبين هذين الطرفين حالات متوسطة عديدة، تحتاج كل منها إلى نظر وتقدير، وهذه هي الأخلاق الممكنة والمطبقة بين المسلمين.

وفي هذا الفصل من الدراسة رأينا أهم ما كان معروفا للجاهليين في التوراة والأناجيل، وهي نفسها التي بين أيدينا اليوم، في العقيدة، والشريعة، والأخلاق، وقارناها بما جاء به محمد ﷺ، **ولقد ظهر بوضوح أن صلة الرسالة المحمدية**

(١) إنجيل لوقا؛ ١٧، ٣-٤.

بالرسالات السابقة عليها هي صلة التصحيح والتقويم، والفرز الدقيق، ونبذ الخرافات والأخطاء والانحرافات والتحريفات، وتوكيد الحقائق وتطهيرها مما علق بها من أدران.

وبهذه الدراسة التحليلية المفصَّلة لعلنا نستطيع أن نقدِّر عظمة الرسالة المحمدية وفضلها على الحياة الروحية للبشرية.

وهي تختلف عن الدراسات العامة التي لا تتغلغل في التفاصيل كما جاءت في التوراة والأناجيل، وكما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

هل ورقة بن نوفل أملى هذه العقائد والشرائع والأخلاقيات على محمد؟

وهنا يبرز السؤال الكبير: من أين جاء محمد بالتصحيحات والتقويمات الهائلة التي ميزت الإسلام عن الرسالات السابقة؟

الجواب الأول: يقول إن محمداً نقل القرآن عن المسيحيين الذين لقيهم بمكة.

والجواب الثاني: نجده عند المستشرقين الغربيين المحدثين، وهو لا يختلف كثيراً في جوهره عن الجواب الأول.

ولقد سبق أن ذكرت أن الغربيين يرون غالبا أن محمداً ليس بنبي، وإنما هو دعي، ألف القرآن مستفيداً من التوراة والإنجيل. ونريد هنا أن نعرف من الذي علمه اليهودية والمسيحية، وما العقائد والشرائع التي نقلها عنهم؟

فنقول إن ابن هشام صاحب السيرة ذكر أن أربعة نفر من الجاهليين كانوا مؤمنين بالمسيحية، وهم مكّيون، فهل أحدهم علَّم محمداً النصرانية؟ أولئك الأربعة هم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحُوَيْرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. وقد أنكروا على قريش عبادة الأصنام، وحاولوا الدعوة للمسيحية سرًّا، خشية بطش قريش، لكنهم لم ينجزوا شيئًا، ولم يثبتوا على المسيحية، بل تفرقوا في البلدان

يبحثون عن "الحنيفية" دين إبراهيم، وبقي ورقة بن نوفل فقط في مكة، ثابتًا على المسيحية، وحصل علمًا بها[1] .

وكان ورقة يعرف العبرية [2]، ومن ثم يكون هو المرشح لأن يكون المعلم الذي علم المسيحية لمحمد، وهو الذي صفّاها من الأدران والانحرافات العقدية والتشريعية والأخلاقية.

أما عبيد الله بن جحش فقد أسلم وآمن بنبوة محمد، ثم هاجر إلى الحبشة، وهناك ارتد عن الإسلام، وعاد إلى النصرانية.

وأما عثمان بن الحويرث فقد سافر إلى بلاد الروم وتنصّر، وقابل القيصر الذي نَصّبه ملكًا على مكة، وعاد "الملك" النصراني إلى مملكته - مكة، فلم يعترف به أحد، فتركها إلى الشام ومات هناك [3].

والرابع هو زيد بن عمرو بن نفيل الذى لم يتنصر ولم يتهود، لكنه فارق دين قومه "فاعتزل الأوثان والميتة والدم..." [4] ويذكر أنه لقي الرسول ﷺ مرة.

من هذا العرض السريع لمعتنقي المسيحية في مكة، من الجائز أن نقول إن ورقة ابن نوفل هو الذي علّم محمداً الديانة المسيحية، لأنه الوحيد الذي بقي بمكة.

ولكن أمام هذا الاحتمال صعوبات عديدة تنفيه:

كيف يُعقل أن يأتي محمد بالآيات ويقول إنها من عند الله في حين أنها من إملاء ورقة، ويسكت ورقة ولا يكذبه؟ لماذا لم يخبر خديجة أن زوجها كاذب وأنه هو الذي أَمْلَى عليه القرآن؟

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٢) فتح الباري؛ باب - كيف كان بدء الوحي - .
(٣) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٠٥ .
(٤) نفسه؛ ١ / ٢٠٦ .

وهل يمكن أن يظل محمد يتلقى التعليم من ورقة طوال ثلاثة عشر عامًا دون علم خديجة، ودون أن يشعر بذلك أحد من أعداء محمد؟ إن أعداء محمد كانوا كثيرين، ويهمهم كشف حقيقة علاقته بورقة، فكيف عجزوا عن كشف الحقيقة طوال تلك السنين ؟

وبعد الهجرة، هل كان ورقة يملي على محمد الآيات وهو قابع في بيته بمكة؟

ولماذا لم يعلن ورقة أنه هو مخترع القرآن وأنه هو الجدير بمنصب النبوة؟

صفوة القول إذن إن ورقة لم يعلِّم محمداً حرفًا واحداً من القرآن.

وسوف نرى أنه لا صلة للقرآن والإسلام بما كان يعرفه "ورقة"[1] وأن ما عرضناه من عقائد وشرائع وأخلاقيات هي من وَحْي الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، ولم يكن ورقة ولا غيره يملك معرفة دقيقة بالمسيحية، فيذكر الدكتور محمد عبد الله دراز ما قاله إسحاق تايلور في كتابه: "المسيحية القديمة"، المجلد الأول صفحة ٢٦٦ : "أن ما قابله محمد ﷺ وأتباعه، في كل اتجاه، لم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوسًا دينية منحلة وصبيانية، بحيث شعر العرب، ذوو العقول النيرة، بأنهم رُسل من قِبل الله، مكلفون بإصلاح ما أَلَمَّ بالعالم من فساد..."[2] وينقل الدكتور دراز عن "موشايم "Mosheim قوله: "إن المسيحية الحقيقية في القرن السّابع - زمن مبعث رسول الله ﷺ: كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة، حتى أنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها"[3] .

ثم يتساءل الدكتور دراز قائلاً: "إذا كان في مكة مسيحيون أخذ عنهم محمد،

---

(١) الوحي المحمدي؛ ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) الدكتور محمد عبد الله دراز؛ مدخل إلى القرآن الكريم؛ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٣) نفسه؛ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

فلماذا لم يفعل أعداؤه الشيء نفسه؟ لماذا سافروا إلى المدينة يطلبون من اليهود شيئًا يواجهون به محمداً"؟ ثم يجمل الدكتور دراز وصف المجتمع المكي عند بعثة محمد فيقول: "هذا إذن هو المشهد الحي الذي يمتد أمام نظر المشاهد: فحيثما اتجه وجد ضلالاً يحتاج إلى الهداية، وانحرافًا يتطلب التقويم، ولن يجد أبداً نموذجًا أخلاقيًّا ودينيًّا يصلح لأن ينقله محمد، أو يبني عليه نظامه الإصلاحي، فلا شك أن المواد التي صادفها حتى الآن قد تجمعت في بناء يصلح للهدم، ولم يكن فيها ما يصلح ليقيم عليه بناءه الجديد"(١) .

فكيف استطاع محمد أن يتجنب كل ذلك الضلال والانحراف؟!

ويقول محمود عباس العقاد: "جائز أن يكون صاحب الرسالة ﷺ قد عرف في صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية، ولكنه ليس بالجائز أن تُعَلِّمه كيف ينكر أخطاءها، ويقوِّم التواءها، ويرتقي بها من أوشاب الشرك إلى صفاء التوحيد"(٢) .

ويقول موريس بوكاي في رده على الذين يتهمون محمداً بالنقل عن التوراة: "لو كان ذلك حقًّا لتساءلنا: مَنْ الذي دفعه، أو ما الحجة التي أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح، وبإدخال تصحيح في القرآن يضع نصه بعيداً عن كل مرْمًى نقدي تثيره المعارف الحديثة، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه؟"(٣) .

ولقد صور القرآن الكريم جميع الأنبياء في صورة لائقة بالنبوة وجلالها، في حين أن التوراة صورتهم في صورة مهينة، وقد رأينا هذه الحقيقة فيما سبق.

والمدهش أن اليهود كانوا قد دخلوا في حرب مع محمد في المدينة وفي خيبر،

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز؛ مدخل إلى القرآن الكريم؛ ص ١٤٠ .
(٢) مطلع النور؛ ص ١٤٩ - والأوشاب هي الأخلاط.
(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم؛ ص ٢٤٢ .

ولو كان هو الذي يؤلف القرآن لوضع فيه صورة قبيحة لأنبياء بني إسرائيل، ولكن هذا لم يحدث، فدل على أن القرآن ليس من تأليف محمد.

محاولات المستشرقين في العصر الحديث

وحاول المستشرقون إثبات أن القرآن مأخوذ من التوراة والإنجيل توسلاً ببحوث لغوية. من ذلك– مثلا – قولهم إن كلمة "فرقان" أصلها عبرى. وبعد دراسة دقيقة للكلمة، قرر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن زعمهم: "أن كلمة فرقان تعني "البيركة" عندهم، حماقة نادرة وهوس مرضي جعلهم يتخيلون أنها جاءت من العبرية أو اليهودية"[١].

ويعلق الدكتور بدوي على مزاعم المستشرقين النصارى بأن كلمة فرقان هي الشكل العربي للكلمة السريانية "فرقانة" فيقول إنه تفسير عابث، ويفسرها الدكتور بدوي بمعنى التفرقة بين الخير والشر والحلال والحرام [٢].

وحاول مرجيليوث أن يثبت أن النبي ﷺ **نقل الأطعمة المحرمة من شريعة موسى**. وبعد بحث دقيق أثبت الدكتور بدوي أن قائمة الأطعمة المحرمة في الإسلام: "تختلف عن تلك المحرمة عند النصارى أو بالأحرى التي حرمها موسى وهي الجمل والأرنب وكل ذي ظفر والسمك بدون قشر بينما يعتبرها الإسلام حلالاً"[٣].

وتناول الدكتور بدوي مزاعم أخرى في محاولات يائسة للمستشرقين اليهود والنصارى لإثبات اقتباس النبي ﷺ من التوراة والإنجيل، وكانت غايتهم النهائية إثبات أنه ليس نبيًا بل مجرد مدع للنبوة، وأظهر بدوي بقوة واقتدار أنهم مبطلون، وأن محمداً ينتصر عليهم بالقرآن دائماً [٤].

---

(١) دفاع عن القرآن ضد منتقديه؛ ص ٦٢ .
(٢) نفسه؛ ص ٦٤ . (٣) نفسه؛ ص ٧٢ (٤) نفسه؛ ص ١٦

وحاول " Gibb" إثبات أن اليهودية والمسيحية هما مصدر القرآن، استناداً إلى بعض الألفاظ، وإلى قبول الإسلام لعقيدة التوحيد واعترافه بالأنبياء السابقين، وهذه تماحيك لا تجيب على السؤال الكبير: لماذا لم ينقل محمد خرافاتهما؟! (١).

فإذا كان محمد قد نقل عن التوراة والإنجيل، فلماذا لم ينقل ما ورد فيهما من أخطاء وخرافات، مثل قصة شمشون، وقوته، وشعره؟! ولِمَ تنزه القرآن عن العقائد الخاطئة، مثل صلب المسيح والتثليث، ومصارعة الله بعض الأنبياء، وتصوير الله كشخص يفتقر إلى التروي فيما يفعل، حتى ندم على أعماله، كأنه لم يكن يعلم شيئًا من عواقب الأمور! (٢).

ثم إن النقل عن اليهود والنصارى لابد أن يتم بإحدى هذه الطرق:

فإما القراءة،

وإما التلقي من معلم.

وأمية الرسول تستبعد أن يكون قد قرأ التوراة أو الإنجيل، بلغة غير العربية، لأن أول ترجمة لهما وُضعت بعد عصر محمد بزمان طويل، وقد وصف القرآن محمداً بأنه نبي أمّي فقال ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وحياة محمد كلها تشهد على أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ولذلك استخدم عدداً من أصحابه لكتابة ما يمليه الوحي عليه من آيات القرآن، وقد كان من اليسير على رجل مثل محمد أن يتعلم القراءة والكتابة، لكن إرادة الله صرفته عن ذلك دفعًا لارتياب المبطلين، وما أكثرهم في القديم والحديث! وقد حاول بعض الغربيين أن يثبت أن محمداً كان يقرأ ويكتب، لكنه فشل، لاستناده إلى خبر يقول إن

---

(1) H. A. R. Gibb; Islam; Oxford University; pp 24-27 1978' press.

(٢) الدكتور محمد توفيق صدقي؛ الدين في نظر العقل الصحيح؛ مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٦ هـ.

النبي أمسك القلم الذي كان علي بن أبي طالب يكتب به شروط صلح الحديبية وشطب على عبارة (محمد رسول الله) التي اعترض عليها مندوب قريش سُهيل ابن عمرو، لأن عليًّا رفض شطبها بيده، فمعرفة محمد برسم اسمه لا تثبت أنه يعرف القراءة والكتابة، وأغلب الأميين يعرفون رسم أسمائهم، بل يوقعون بكتابتها على الوثائق، وقد كانت عبارة (محمد رسول الله) آخر عبارة كتبها علي، ومن اليسير التعرف عليها دون معرفة بالقراءة والكتابة، ومع ذلك سأل النبي عليًّا عن مكانها[١].

ولم يرد خبر شطب العبارة في سيرة ابن هشام التي أوردت أدق التفاصيل عن تلك الوثيقة[٢] وورد في صحيح مسلم أن النبي طلب من علي أن يريه مكان العبارة، "فأراه مكانها فمحاها"[٣] فلا دليل في الخبر على أن محمداً كان يقرأ ويكتب.

وربما زعم بعضهم أن أول كلمة نزلت من القرآن هي ﴿ اقْرأْ ﴾ [العلق: ١] **فلابد أن يكون محمد قادراً على القراءة لاستقبال الوحي**. إن هذا زعم خاطئ لأن ﴿ اقْرأْ ﴾ لم تكن تعني القراءة من نص مكتوب على ورقة أو قرطاس أو لوح، بل كانت تطلب من محمد أن يردد كلام جبريل ويتعلمه شفاهة، ويحفظه، وهذا هو ما كان يحدث دائمًا، ولم يُذكر قط أن جبريل جاء بقرطاس أو لوح وسلمه لمحمد! ويشهد على صحة هذا عشرات من أهل بيت محمد وأصحابه الذين كانوا يحضرون حالة نزول جبريل، وقد تكرر ذلك أمام أعينهم عشرات المرات.

ومن المؤسف أن بعض المفسرين فهم ﴿ اقْرأْ ﴾ خطأ على أنها تطلب القراءة من لوح أو قرطاس، وبسبب ذلك واجهوا صعوبات عديدة لتفسيرها مع توكيد أمية الرسول، وذلك يثبت خطأ ذلك التفسير.

---

(١) مسلم؛ ١٢ / ١٣٧ .
(٢) سيرة ابن هشام؛ القسم الثاني؛ ص ٣١٧ .
(٣) صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير؛ باب صلح الحديبية.

التلقي من معلم

والطريقة الثانية التي زعموا أن محمداً نقل بها القرآن عن التوراة والإنجيل، هي التلقي من معلم.

لكن سيرة محمد تخلو من ذكر أي معلم، بمعنى أنه كان يتردد عليه بانتظام لتلقي الدروس، وحتى بَحيرَى الراهب الذي قيل إنه لقيه في رحلته مع عمه إلى الشام، لم يذكر أنه علمه شيئاً، بل كان اللقاء عابراً مع أبي طالب، الرجل الناضج الرشيد، ولم يكن مع محمد الغلام الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وتحدث "بحيرى" إلى أبي طالب، ونصحه بأن يبعده عن يهود الشام الذين يمكن أن يؤذوه إذا رأوا فيه أمارات النبوة مثلما رآها هو استناداً إلى أنباء وردت في كتب النصارى(١) .

وأين تلك الأنباء في كتب النصارى؟ إنها دعاوى لا وجود لها!

فمن المستحيل – إذن – أن يكون محمد قد نقل عن "بحيرى" عناصر إنجيلية مسيحية، وألَّف منها القرآن.

والقصة كلها بادية الزيف، ولا تتميز كثيراً عن حكايات ألف ليلة وليلة، ولهذا لم يعرفها أعداء محمد في حياته، وإنما أذاعوها بعد وفاته بعقود عديدة.

وهل يعقل أن يدفع أبو طالب بابن أخيه الصغير إلى راهب نصراني ليتفحصه؟ وماذا يتفحص فيه؟ هل كان أبو طالب متشككًا في كون ابن أخيه حاملاً أمارات النبوة؟

لم يذكر أي خبر قط أن أبا طالب رأى في ابن أخيه أية أمارات للنبوة! بل إنه رفض الإسلام حين دعاه محمد إلى الإيمان به، ولو أنه سمع حقا "بحيرى" يشهد بوجود أمارات النبوة لدى محمد، لسارع إلى الإيمان به، وفي كلامه مع المشركين الذين اشتكوا إليه محمداً، لم يذكر أبو طالب كلمة واحدة عن تلك الأمارات(٢).

وهكذا تنهار فرضية "المعلم" ! كما انهارت فرضية "القراءة" من قبل، لكي تبرز حقيقة الوحي الإلهي الكريم.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٨٠، ٢٦٥، ٢٦٦ .
(٢) الدكتور محمد حسين هيكل؛ حياة محمد؛ ص ١١٤ ، ١١٥ .

الفصل السادس

محمد نبي التسامح

دستور التسامح ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (١).

هذه الآية الكريمة هي المبدأ الدستوري العام الذي يفرض التسامح على المسلمين. و"الدين" في الإسلام يشمل الاعتقادات والأفكار والمعاملات الحياتية، فلا إكراه في التجارة والبيع والشراء، ولا إكراه في الإيجارات، ولا إكراه في العقيدة الدينية، وبعبارة أخرى ليس للمسلم أن يُكره غيره على اعتناق الإسلام أو الإيمان بمحمد نبيًّا ورسولاً، أو اعتناق مذهب أدبي أو سياسي أو اقتصادي، ويعبر عن هذا التسامح الواسع مبدأ الرضى أو التراضي. فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ....** ﴾ [النساء: ٢٩] ويقول سبحانه: ﴿ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** ﴾ [النساء: ٢٤] ويقول جل جلاله ﴿ **فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...** ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

هذه بعض تطبيقات ذلك المبدأ الدستوري العظيم، وحيثما استعرضت من مبادئ وقواعد الحياة الإسلامية ستجده مطبقًا، ويجسده سلوك النبى ﷺ في أكمل صورة، مع المسلمين ومع غير المسلمين على السواء.

فيقول الدكتور مراد هوفمان إنه: "بفضل هذا التسامح الديني، تعايش وتقبل

---

(١) سورة البقرة؛ شطر الآية رقم ٢٥٦ .

المسلمون الديانات الأخرى وأتباعها، وهم يفعلون ذلك إلى الآن، ولم يحتذوا بالمثال المسيحي - لنذكر محاكم التفتيش في أسبانيا - الذي أجبر أتباع الديانات الأخرى بالقوة على اعتناق المسيحية"[1] .

اختلاف الأمم عقيدة إسلامية

والمسلم لا يضيق ذرعًا بوجود الآخر المختلف عرقًا أو لغةً أو دينًا، لأن اختلاف البشر إرادة إلهية، وفي هذا يقرر القرآن أنها مشيئة الله: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ [هود: ١١٨]. ولذلك لا يفكر المسلم الحق في محو الاختلاف لأن ذلك يضاد إرادة الله تعالى، وقد ظهرت هذه العقيدة في التطبيق مبكرًا جدًّا حين عقد النبي ﷺ معاهدة سلام مع يهود المدينة المنورة جاء فيها أن: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"[2] .

وكان من بين الغنائم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر (ضد اليهود) صحائف متعددة من التوراة، وقد أمر النبي ﷺ رجاله بأن يسلموها لليهود بعد انتهاء المعركة وهزيمة خيبر[3]، وهذا المسلك أنموذج من تجليات التسامح في أخلاقيات النبي ﷺ .

والتسامح في الإسلام لا يعني أن الآخر حر في قبول الإسلام أو رفضه فقط، ولكنه يعني أيضًا أن الآخر لا يسمح له بالتحلل من الواجبات والأوامر والنواهي التي جاء بها الإنجيل للمسيحيين وما جاءت بها التوراة لليهود والمسيحيين، وبهذا يحث الإسلام الآخرين على الالتزام بأديانهم، ما داموا قد رفضوا الإسلام. وبعبارة أخرى التسامح الإسلامي لا يعني السلبية تجاه الآخرين، بل هو مبدأ إيجابي

---

(١) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ٦٧ .
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٥٠١ - ٥٠٤ .
(٣) زاد المعاد؛ ١ / ٣٩٤ .

يحفظ عليهم حياتهم الدينية والروحية، وهذا هو أعظم ضروب التسامح التي عرفها البشر.

أساس التسامح: عقيدة تساوي البشر

ويتجسد التسامح العظيم في قول النبي ﷺ: "يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد! ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا نعم. قال: "ليبلغ الشاهدُ الغائب"(١). والنبي يعبِّر هنا عن المبدأ نفسه الذي ورد في القرآن الكريم، ويشرحه؛ وقد قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ [النساء: ١].

بهذا أكد محمد ﷺ أخطر مبدأ اجتماعي وإنساني، ألا وهو: وحدة الإنسانية، بلا عنصرية ولا استعلاء، وهو المبدأ الذي ما يزال أملاً لكثير من الشعوب في أنحاء العالم، في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا.

هذا المبدأ العظيم ضمن "للآخر" أيًّا كان جنسه أو لونه أو ثقافته أن يعيش وسط المسلمين حياة حرة كريمة آمنة، والتاريخ يشهد بأن المسلمين التزموا بهذا المبدأ، فلم يفرقوا بين المسلم العربي وغيره، ولم تحدث تفرقة إلا من بعض الحكام غير الملتزمين بالإسلام، فعاش غير المسلمين في اليمن وفارس والشام ومصر والأندلس في سلام وحرية.

والعظمة يمثلها المبدأ نفسه، مبدأ وحدة الإنسانية، أما عظمة النبي ﷺ فتتمثل في التزامه به في مواجهة العنصرية العرقية التي كانت مستحكمة في البلاد العربية، وبين القبائل، والتي أشعلت الحروب المهلكة بينهم، وشاع الزعم الباطل في كل قبيلة بأن الرجل منها يساوي عشرة أو مائة من القبائل الأخرى!

---

(١) أخرجه الطبري في كتاب "آداب النفوس" وأورده القرطبي في: "الجامع"؛ ص ٦١٦١.

وتتجلى عظمة النبي ﷺ في تربية أجيال من أمته تتمسك بذلك المبدأ العظيم، الراقي، كدستور خالد. وقد صاغوه في عبارة بليغة تقول: "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا". فالآخر غير المسلم المسيحي واليهودي خاصة، له الحقوق نفسها التي يتمتع بها المسلم، وعليه الواجبات نفسها التي عليه الالتزام بها.

وعلى هذا يشهد "وِل ديورانت" فيقول: "ويمكن القول عمومًا إن حظ اليهود في الأقطار الإسلامية كان خيرًا من حظهم في الأقطار المسيحية". ووصفت "الليدي ماري ورتلي مونتجيو" حال اليهود في تركيا عام ١٧١٧م، أيام الإمبراطورية العثمانية، فقالت: "**إنهم يتمتعون بسلطان لا يصدَّق في هذا البلد! فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالي الأتراك**... لأنهم يحاكمون طبقًا لقوانينهم"(١) وفي ذلك العهد، كان اليهود يُحَرَّقون فيه بالنار وهم أحياء في أسبانيا والبرتغال في القرن ١٨م(٢).

ولا يزال مبدأ الأخوة الإنسانية محترمًا بين المسلمين إلى اليوم، فيقول الدكتور مراد هوفمان: "ومن يتشكك في ذلك فَلْيُلْق نظرة على أي مركز إسلامي يختاره في ألمانيا حيث يتعامل التركي مع الإفريقي الشمالي ومع الفلسطيني ومع السوري والمصري والبوسْني والألباني، بِوُدٍّ وحرارة، ويتناسى كل منهم اختلاف جنسيته عن الآخر". ويضيف قوله: "ولذلك فإنني لا أرى من قبيل المبالغة أن أنهي حديثي هذا بأن أقرر أن الإسلام الحق الذي يفهم فهمًا صحيحًا ويمارس في الحياة ممارسة سليمة، الإسلام الذي يحمله المسلم في قرارة نفسه، إنما يمثل النقيض للشوفونية العنصرية"(٣).

---

(١) قصة الحضارة؛ ترجمة فؤاد أندراوس؛ نشر مكتبة الأسرة؛ المجلد ٢١ الفصل ٢٥؛ ص ٣٦٩، ٣٧٠.
(٢) نفسه؛ ص ٣٦٧.
(٣) الإسلام في الألفية الثالثة .. ديانة في صعود؛ تعريب عادل المعلم؛ مكتبة الشروق؛ ط ١ سنة ٢٠٠١؛ ص ١٩٥.

والدكتور هوفمان مفكر ألماني مرموق، وكان يومًا مفاوضًا باسم حلف الأطلنطي.

وبعد بعثة محمد بحوالي ١٤٠٠ عام أعلنت الأمم المتحدة اعترافها بوحدة البشرية التي جاء بها محمد ومكّن لها في قلوب المسلمين، ففي الإعلان المناهض للعنصرية الذي اعتمد في ٢٧/١١/١٩٧٨م – قرر في مادته الأولى، في الفقرة رقم ١ – أن البشر ينتمون إلى نوع واحد "وينحدرون من أصل مشترك واحد، وهم يولدون متساوين في الكرامة والحقوق".

وهكذا اتفقت الأمم المتحدة مع المبدأ العظيم الذي أرساه نبي الإسلام ﷺ. وكان هذا الإعلان تطوراً عظيمًا في الفكر العالمي، أما الالتزام به في الواقع العملي فلا يزال يواجه صعوبات عديدة، ويكفي أن نتذكر بعض ما يقع في الملاعب الأوروبية في أثناء مباريات كرة القدم ضد اللاعبين الأفارقة. ولا يزال الأحرار من الغربيين يناضلون من أجل ضمان الالتزام بمبدأ الأخوة الإنسانية في بلادهم.

تنوع الأجناس البشرية

والقرآن الكريم الذي جاء به محمد ﷺ، ويكذبه في استخفاف مشين بعض الرافضين للإسلام، يؤكد حقيقة تنوع الأجناس البشرية، والغاية العظيمة من ورائها، فيقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالتنوع للتعارف، لا للتعالي، وأما الكرامة فللتقوى، وهي في القرآن للناس جميعًا، والله تعالى يقول: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ [الإسراء: ٧٠]

تسامحه ﷺ يوم الحديبية

وتجلت حكمة النبي ﷺ وتسامحه يوم الحديبية (في آخر سنة ست)، فقد

خرج إلى مكة في ١٤٠٠ معتمر في شهر ذي القعدة، لا يريد قتالاً، وساق معه الهَدْيَ، سبعين بدنة، وثارت قريش وتأهبت للقتال لمنع النبي وأتباعه من أداء العمرة. وأرسلت قريش بُدَيل بن ورقاء يسأل النبي عما جاء لأجله، ثم تتابع الرسل بين قريش والنبي، واتسمت المحاورات بالغلظة من جانب المشركين، والأناة والرفق من جانب النبي، وكان عروة بن مسعود رسول قريش يعمد إلى لحية النبي فيمسكها وهو يكلمه! فكان المغيرة بن شعبة يكفها عن وجه النبي، ويعرب عروة عن ضيقه بما يفعله شعبة، والرسول ﷺ يبتسم!

وأرسلت قريش أربعين من رجالها ليحاصروا عسكر الرسول، لكنهم وقعوا أسرى في أيدي المسلمين، وَمَثَلُوا أمام النبي ﷺ، فعفا عنهم، على الرغم من أنهم كانوا قد رَمَوْا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل![1].

وأخيراً أرسلوا سُهيل بن عمرو، وجرى الصلح، ورفض سُهيل عبارة بسم الله الرحمن الرحيم، وطلب كتابة باسمك اللهم، **ورفض عبارة محمد رسول الله، وطلب كتابة محمد بن عبد الله**، ووافق النبي، وكانت **شروط الصلح مجحفة بالمسلمين، فنصت على أن من يأتي محمداً من المشركين بغير إذن وليِّه يجب أن يرده إليهم، لكن من أتى قريشًا من أتباع محمد لا يردوه إليه!** فمن يُسلم منهم يحبس بمكة، ومن يرتد عن الإسلام يعود إليهم سالمًا!

ورفض بعض المسلمين تلك الشروط المجحفة، لكن النبي ﷺ قبلها ووقع وثيقة الهدنة لمدة عشر سنوات، **وكانت فتحًا مبينًا للمسلمين، ودليلاً ساطعًا على حكمة النبي وبُعد نظره**، فقد أتاحت لهم الأمن والطمأنينة اللازمة لبناء دولتهم ونشر دعوتهم. ونزلت فيها سورة الفتح تقول ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١] ولم

(١) ابن القيم؛ زاد المعاد؛ ٢ / ٧٤.

تمنع شروط الهدنة انتشار الدعوة في مكة، وطلبت قريش إلغاء شرط رد المسلمين بعد أن عانت الكثير من المسلمين المكيين الممنوعين من الذهاب إلى النبي ﷺ(١).

وفي فتح مكة، كان المسلمون يتحرقون شوقًا للعودة إلى بيوتهم، وطرد الكفار منها، وعقاب المعتدين عليهم، وقد عبر سعد بن عبادة عن كل ذلك. بقوله: اليوم يوم الملحمة يوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشًا، واستنكر النبي ﷺ كلام سعد، وقال اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشًا، ويعظم الله الكعبة(٢).

قصة حاطب بن أبي بَلْتَعَة

وقصة حاطب بن أبي بلتعة تمثل أنموذجًا رائعًا للتسامح والعفو في أخلاقيات محمد ﷺ.

إن ابن أبي بلتعة اقترف جريمة عظمى في حق جماعته المسلمة، ذلك أنه أرسل إلى المشركين في مكة برسالة يخبرهم فيها أن النبي ﷺ يستعد لغزوهم، بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية، وقد كلف امرأة بحمل رسالته إليهم، لكن النبي علم بالأمر، فأرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وراء المرأة، وقد أدركاها، ووجدا معها الرسالة.

وسأل النبي ﷺ حاطبًا فقال: "يا حاطب! ما حملك على هذا؟"

قال حاطب: "يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت وما بدلت، ولكني كنت امرأ ليس له في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم". فقال عمر بن الخطاب: "يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق". فقال رسول الله ﷺ: "وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطَّلَعَ إلى أصحاب بدر، فقال: "اعملوا ما شئتم. فقد غفرتُ لكم". وعفا عنه النبي وقبل عذره، وقدَّر جهاده يوم بدر(٣).

---

(١) السيرة؛ ٢ / ٣٠٨ - ٣٢٧.

(٢) فتح الباري؛ ٨ / ٧.

(٣) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣٩٨، ٣٩٩.

معنى التسامح مع المخالفين

ويعرِّف أبو الأعلى المودودي التسامح الإسلامي مع الآخر المخالف فيقول إنه يعني: "أن نتحمل عقائد الآخرين وأعمالهم، على كونها باطلة في نظرنا، ولا نطعن فيهم بما يؤلمهم، رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم ولا نلجأ لوسائل الجبر والإكراه لنصرفهم عن عقائدهم أو منعهم مما يقومون به من الأعمال"(١) **وهذا هو الجانب السلبي في التسامح الإسلامي.**

والدعوة إلى الإسلام واجبة، بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى بصيرة، فإذا استجاب الآخر لها صار واحداً من المسلمين، وإذا رفضها فذلك شأنه، لكن محمداً ﷺ أَبَى أن يتحلل الآخر (الرافض للإسلام) من دينه اليهودي أو المسيحي، وقد قال لليهود الذين عاصروه: "عليكم خاصة يهود ألاَّ تعدُوا في السبت"(٢) لأن ذلك محرم عليهم، وهذه هي أعظم درجات التسامح.

هذه السُّنة المحمدية بَيان لما جاء في القرآن الكريم من حثٍّ شديد لليهود والنصارى على الالتزام بالتوراة والإنجيل، حيث قال الحق تبارك وتعالى ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [المائدة: ٦٨] وقال أيضاً ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ** ﴾ [المائدة: ٤٧] وقال أيضاً ﴿ **وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [النساء: ١٥٤].

وهذا هو التسامح الإيجابي.

---

(١) أبو الأعلى المودودي؛ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة؛ دار القلم بالكويت؛ ط ٣ سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م؛ ص ٣٩، ٤٠.

(٢) رواه النسائي والترمذي.

الانفتاح على الآخَر المخالف (من تجليات التسامح)

ومن الأدلة الباهرة على التسامح والعظمة في شخصية النبي محمد ﷺ **انفتاح سنته المطهرة على "الآخر"**، وكذلك انفتاح القرآن الكريم الذي جاء به من عند الله تعالى، هذا في حين كان "الآخر" في مكة المكرمة ثم في المدينة المنورة بعد الهجرة يفتقر إلى التسامح وسعة الصدر، وذلك بعكس قانون رد الفعل الذي كان يقتضي أن يُقابل التسامح بمثله، لا بالتشدد والانغلاق وضيق الأفق.

و"الآخر" الذي نعنيه هنا هو الآخر الذي واجه النبي ﷺ في عصر المبعث، من العرب الجاهليين في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومعهم اليهود.

وتمثلت عظمة النبي ﷺ في العفو عن أهل مكة وتسامحه معهم والرحمة بهم، وقَوْلته الرائعة: "**اذهبوا فأنتم الطلقاء**". وكانوا يظنون، بعد صنوف الأذى الذي مارسوه ضده وضد كل من آمن به، أن مصيرهم القتل، بعد فتح مكة المكرمة فتحًا مبينًا.

وتمثلت عظمة شخصيته في ترك اليهود على دينهم بعد أن صار هو الحاكم في المدينة، وقد عقد معهم معاهدة سلام وتعاون، وحاورهم بالتي هي أحسن وندب أتباعه إلى الإحسان إليهم، وجاءت رسالته العظيمة بمبدأ جواز نكاح نسائهم وجواز مُآكلتهم.

وتمسك المسلمون بالسُّنة النبوية العظيمة في التسامح على امْتداد التاريخ مع أهل الكتاب في الشام ومصر واليمن وبلاد الأندلس، فتمتعوا بالحرية الدينية والفكرية والاقتصادية،حتى أن بعض علمائهم ألف الكتب في معارضة الإسلام، باستثناء فترات شهدت توترات كان سببها غالبًا تعرض بلاد المسلمين للعدوان من بلاد مسيحية مجاورة.

مصاهرة أهل الكتاب ومآكلتهم:

وقد فتح المسلمون الشام و اليمن ومصر، وفيها خلْق كثيرون من أهل الكتاب، فعاشوا معًا في سلام وعدل، وكانت مصاهرة المسلمين وأهل الكتاب سببًا أساسيًّا في انفتاح المسلمين عليهم وانفتاحهم على المسلمين، وأصل ذلك قول الله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥].

وقد عَلَت بعض الأصوات المعارضة لهذا الانفتاح، لكن الدلالة القطعية للآية أخمدتها، وظل المسلمون يتزوجون اليهوديات والنصرانيات، كما تزوج النبي ﷺ اليهودية صفية بنت حيي بن أخطب والنصرانية مارية القبطية – هدية "المقوقس" إليه، ومن الطبيعي أن تُبَاحَ المآكَلَة بين الأَصْهَارِ، وقد صار من الممكن أن يكون خَال المسلم أو جَدّه يهوديًّا أو نصرانيًّا، وأفْضَى ذلك إلى إتاحة الفرصة لعلاقات اجتماعية واقتصادية عديدة، أضافت الانفتاح الاجتماعي إلى الانفتاح الاعتقادي.

ونظر العلماء في شروط المصاهرة إلى أهل الكتاب في القديم والحديث، فقال السرخسي: "يجوز للمسلم أن يتزوج كتابية في دار الحرب، ولكنه يُكره، لأنه إذا تزوجها هناك ربما يختار المقام فيهم، وإذا ولدت تَخَلَّق الولد بأخلاق الكفار، وفيه بعض الفتنة، فيكره لهذا"(١).

وقال المودودي: "لا يصح القول بِحُرمة زواج نساء أهل الكتاب وبطلانه، ولكن ما تدل عليه روح شريعة الإسلام وإجماع أئمة الإسلام في الوقت نفسه، أنه مكروه ولا سيما في دار الكفر، ويزداد كرهًا وبغضًا في حالة غَلَبَة الكفار". (ومعلوم أن

---

(١) المبسوط، ٥ / ٥٠.

الزواج من نساء أهل الكتاب مباح فقط؛ وَحَظْر المباح جائز شرعًا). لذلك أعلن المودودي موافقته على الحَظْر: "ولكن بشرط أن يكون القائمون بتنفيذه على تَفَقُّه في الدين ليتورَّعوا عن مَسْخِ رَوْعة الاعتدال والتوازن في شريعة الإسلام"(١).

وواضح أن شروط الحظْر موجودة الآن، وإسرائيل تحتل فلسطين والجولان السورية، وتعربد وتدمر كل شيء في غزة والضفة الغربية بسلاح أمريكا المتطور من الطائرات والصواريخ والدبابات والمدفعية، وأمريكا تحتل أفغانستان والعراق، وتهدد سوريا ولبنان وإيران.

تأييد الحظْر:

وكان من الطبيعي أن يؤيد الحظْر كل عالم رصين له وزنه على الساحة الإسلامية. وهذا ما نجده لدى الدكتور عمر فروخ الذي قرر أن الزواج بالكتابيات من اليهوديات والأمريكيات والبريطانيات الآن في حكم الحرمة(٢) وأجرى الدكتور فروخ بحثًا موسعًا للموضوع جمع فيه كل المذاهب(٣).

وهناك شرط إضافي يجب احترامه، ألا وهو كَوْنُ الكتابية كتابية حقًّا - هذا إذا لم نأخذ بالفتاوى السابقة بالحظر. فمن المعلوم أن الإلحاد منتشر في الغرب الآن بنسب عالية جداً تصل إلى ٨٠٪ في بعض الدول الغربية، وعلى هذا يجب امتحان المرأة المرغوب الزواج منها للتحقق من أنها يهودية أو مسيحية وليست ملحدة.

ومن المؤسف أن كثيراً من أبناء المسلمين الذين يعيشون في الغرب يُقبلون على

---

(١) المودودي؛ ؛ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة؛ دار القلم بالكويت؛ تعريب خليل الحامدي؛ ط ٣ سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م؛ ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) عمر فروخ؛ الأسرة في الشرع الإسلامي؛ ص ٨٢.

(٣) التجديد في المسلمين لا في الإسلام؛ دار الكتاب العربي؛ ط ١ سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ١٧٧ - ١٩٧.

الزواج من النساء الغربيات دون اعتبار للشروط العديدة التي تبيح ذلك الزواج، فيقعون في المحظور.

إن الحرمة هي الأرجح، وعلى كل مسلم أن يتجنب الزواج المحرم، لأنه مَهْلَكَة لنفسه وأولاده وأمته؛ ثم إنه لا ضرورة له، وما أكثر النساء المسلمات المحصنات المهددات بالعنوسة في بلادنا الإسلامية! وعلى كل عالم مسلم أن يتحرى الدِّقة في فتاويه، في كل حالة على حدة.

الحوار مع أهل الكتاب (من تجليات التسامح)

ومن سُبُل الانفتاح على "الآخر" جولات الحوار التي جرت عبر التاريخ ابتداء من عهد النبوة وحتى اليوم، فقد اتصل المسلمون باليهود والنصارى في عهد النبوة المحمدية، وسجل القرآن الكريم بعض تلك المحاورات.

قال تعالى﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤]. فهنا تبرز الحكمة في دعوة محمد ﷺ.

وعمل المسلمون بهذه الآية الكريمة فدعوا أهل الكتاب إلى التوحيد، فأَسْلم بعضهم، ورفض البعض الآخر، وعاش الجميع في سلام في ظل الحكم الإسلامي الزمن المديد، ولا يزالون إلى اليوم يمرحون في كل أرجاء العالم الإسلامي.

وَجَرَت محاورات عديدة بين الطرفين، وتحولت أحيانًا إلى جدال عنيف، وسجل الكُتَّاب ذلك، فكان الحوار من مكونات تراثنا الإسلامي القديم والحديث، ولعل أبرز تلك المؤلفات كتاب: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم الظاهري – علي ابن أحمد، الذي توفي سنة ٤٥٦هـ.(١) وكتب "الجاحظ" – عمرو بن بحر –

---

(١) نشرته دار الجيل؛ بيروت.

(٧٧٥ - ٨٦٨م) - "رسالة الرد على النصارى". وكتب اليهود والنصارى الكثير في معارضة الإسلام.

وفي العصر الحديث كَتَبَ الغربيون الكثير عن الإسلام، يهاجمونه، وينقضون بنيانه، وتصدى لهم العلماء المسلمون في البلاد التي ابتليت بالاستعمار، واختلط أهلها بالمستعمرين، وعرف بعضهم لغتهم الإنجليزية والفرنسية، ويُذكر من المؤلفين جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧م) وكتابه "الرد على الدهريين"، ومحمد عبده وكتابه عن "الإسلام والنصرانية". ولقد توالت المؤلفات على امتداد القرن الماضي، ولعل كتاب عبد الرحمن بدوي: "دفاع القرآن ضد منتقديه" هو آخر المحاولات الحوارية الرصينة.

الاقتباس عن "الآخر" المخالف

ومن آيات التسامح والانفتاح على "الآخر" إجازة النبي ﷺ الأخذ عن اليهود بقوله: "...حَدِّثُوا عن بني إسرائيل ولا حرج"(١) وكانت أحاديث في الدين بطبيعة الحال، باعتبارهم أهل كتاب، وفي الوقت نفسه نَهَى رسول الله ﷺ عن قبول خرافاتهم المعروفة (٢) فالاقتباس عن الآخر مندوب شريطة تحري الحق فيما يقول، وقد قال رسول الله ﷺ: "الكلمةُ الحكمةُ ضالةُ المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها"(٣) وهذه إجازة عامة بالاقتباس عن الآخر، ولكن بمنهج نقدي، وهذه الإجازة هي التي سمحت بالاقتباس عن اليونان القدماء وعن الهنود والفرس، والغربيين في العصر الحديث. وبغير الاقتباس ما كانت الحضارة الإنسانية لتبلغ ما بلغت اليوم، إنه المنهج الذي يسمح بالتبادل والتلاقح، وقد قال مؤرخو العلم إنه هو الذي جعل لكل أستاذ

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه؛ ص ١٥٦.
(٢) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٢ / ١٣٤ ، ١٣٥.
(٣) ابن ماجه؛ رقم ٤١٦٩.

تلميذاً ولكل تلميذ أستاذاً، لأن الإبداع لا يأتي من فراغ، وقد اقتبس المسلمون عن الآخرين ، كما اقتبس الآخرون عن المسلمين، ولهذا ازدهرت الحضارة الغربية على أصول وجذور إسلامية معروفة، أهمها المنهج التجريبي والتراث العلمي الأندلسي(١).

وفي التطبيق اقتبس النبي ﷺ فكرة حفر خندق لحماية المدينة المنورة حيث أشار عليه سلمان الفارسي بذلك(٢).

واقتبس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكرة الدواوين الحكومية حين حدثه عن فوائدها الوليد بن هشام بن المغيرة في نظام الحكم في الشام تحت سلطان ملوكها(٣).

تسامح المسلمين مع الأقباط في مصر

وترددت أصداء التسامح الإسلامي في مناخ مصر حين فتحها عمرو بن العاص، وقد جاء في عقد الأمان بين الطرفين: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطَى عمرو ابن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ومِلّتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبَرِّهم، وبَحرهم، لا يدخل عليه شيء من ذلك ولا يُنتقَص، ولا يساكنهم النُّوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما حق لصونهم، وإن نَقَصَ نَهْرُهم من غايته رُفع عنهم بقدر ذلك" (٤) وهذه هي العدالة التي جَذَبَتْ أفئدة المصريين إلى الإسلام، بعد المعاملة الظالمة البشعة التي كانوا يلقونها من الرومان. ويذكر أن "المقوقس" رحَّب بالفتح الإسلامي ودَفْع الجزية.

(١) توماس جلدشتاين؛ المقدمات التاريخية للعلم الحديث؛ ترجمة أحمد حسن عبد الواحد؛ نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ بالكويت؛ سنة ٢٠٠٣م.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٣ .
(٣) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى؛ ٣ / ٢٢٤ .
(٤) نفسه؛ ٧ / ٩٣ .

وكان المسلمون قد سَبَوْا كثيراً من المصريين، فخَيَّرهم المسلمون بين الرجوع إلى أهليهم مع دفع الجزية، أو بين الإسلام مع إسقاط الجزية، فاختار بعضهم الإسلام كما اختار آخرون البقاء على دينهم[1] واحترم المسلمون حريتهم في الاختيار ونفذوا لهم ما أرادوا.

وحين تمَّ لأَبي عبيدة فتح دمشق سنة ١٤هـ، ترك المسلمون ١٤ كنيسة قائمة، وسمحوا باستحداث كنائس جديدة[2].

وكان السلاطين في ذلك العهد يتدخلون في شئون المسلمين، كما حدث سنة ٧٥٩هـ حيث صدر أمر سلطاني يُلزم نساء المسلمين بتضييق أكمام الثياب، وكان الغرض هو ستر بدن المرأة إذا رفعت يدها إلى أعلى، وهذا أمر مشروع ضمن أخلاق العفاف والستر الإسلامية، [3] لكن غير المسلمين قد لا يفهمونه ومن ثم ينكرونه.

وربما يفسِّر مسلك المماليك في ذلك العصر انضمامُ بعض النصارى إلى الفرنج الذين دأبُوا على الهجوم على بلاد المسلمين، كذلك تورط بعض النصارى في سَبِّ الرسول ﷺ. وفي حكم الإسلام هذا عمل غير شرعي.

تسامح صلاح الدين

وكانت **مجزرة القدس سنة ١٠٩٩م (حيث أَبَادَ الصليبيون فيها كل المسلمين "دون تمييز" بين رجل وامرأة، وصغير وكبير، ومريض وصحيح، حتى بلغ عدد القتلى عشرين ألفًا)** [4] **كانت كارثة لا يمكن أن تنسى، لكن البطل صلاح الدين الأيوبي** تناسى تلك المذبحة حين انتصر على الصليبيين بعدها

---

(١) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى؛ ٧ / ٩٤.
(٢) نفسه؛ ١ / ٢٠ - ٢٣.
(٣) نفسه؛ ص ٢٩٢.
(٤) وليام؛ تاريخ الحروب الصليبية؛ ترجمة د. سهيل زكار؛ نشر دار الفكر؛ ط ١ سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م؛ ١ / ٤٣٥ - ٤٣٧.

بـ ٩٢ سنة، وسمح للصليبيين بالجلاء عنها، وأطلق عدداً من الأسْرى، منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان(١).

الحروب أغلقت قنوات الاتصال:

هذه الحروب دمرت إمكانات عظيمة لانفتاح المسلمين على أوروبا، وانفتاح أوروبا على المسلمين. ثم جاء عهد الاستعمار الحديث ومعه فكرة القضاء على الإسلام وتراثه وإحلال الثقافة الأوروبية محله، فزاد الطين بلة!

عولمة أم هيمنة؟

والآن، تُبذل محاولات للعودة للحوار والأخذ والعطاء، والمصالح المتبادلة، لكن تيار الهيمنة الأمريكي يعرقلها، ليفرض الأنموذج المادي النفعي على العالم تحت مسمى "العولمة". وبعض المفكرين الأوروبيين يعترف بأن من الممكن أن تستفيد أوروبا من التراث الإسلامي، منهم "أنّا ماري شيمل" و"زجريد هونكة" والمهتديان محمد أسد ومراد هوفمان، وكذلك الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا، **والانفتاح لا يجدي إن لم يجد استعداداً للقبول والتبادل.**

الآخر المتعاطف والمتسامح

ولكي نستكمل صورة "الآخر"، لابد أن نعرض لفئة من الغربيين استطاعت أن تتحرر من تراث الحروب الصليبية، وضيق الأفق الوطني والقومي، ومن ثم كانت لها مواقفها الإيجابية المتسامحة تجاه الإسلام ورسوله، وفيما يلي أمثلة من آراء أولئك الأحرار المتسامحين:

أنّا ماري شيمل: وهي مستشرقة ألمانية مرموقة، ولدت في ٧/٤/١٩٢٢م وأمضت شطراً من حياتها في عهد "هتلر". وقد يسَّر الله لها دراسة اللغة العربية منذ

---

(١) البداية والنهاية؛ ١١ / ٣٤٥، ٣٤٦.

كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وقرأت بعض كتب التراث الإسلامي، فانجذبت لدراسة الإسلام، وقد انتهت بها إلى نيل درجة الدكتوراه في موضوع: "مكانة الخليفة والقاضي في مصر في القرون الوسطى المتأخرة". وألفت العديد من الكتب في مسائل من التراث الإسلامي، ومن أبرز مؤلفاتها كتاب: "محمد رسول الله" الذي نشر بالألمانية سنة ١٩٨١، وقد انتقدها البعض لتعاطفها القوي مع شخصية الرسول ﷺ، فردت عليهم قائلة: "إنني أحببته"! وهي ترى أن المستشرق يجب أن يكون محبًّا لمن يكتب عنه، وإلا كان عمله رديئًا.

وكانت البروفسيرة المرموقة تبتغي تقديم صورة صحيحة عن الإسلام إلى قومها الألمان، لكي يحل التفاهم والانفتاح بدلاً من النفور والكراهية والانغلاق.

وقد نالت "شيمل" تقدير المسلمين والألمان جميعًا، إلى أن توفيت في ٢٠٠٣/١/٢٧

ومن الألمان الذين انفتحوا على الإسلام محمد أسد، الذي انتهت دراساته للإسلام بإعلان إسلامه سنة ١٩٢٦، وألف "أسد" كتبًا رائعة، عميقة، وطريفة، منها: "الطريق إلى مكة" و"الإسلام على مفترق الطرق". وشارك في وضع دستور باكستان، إلى جانب كبار علماء المسلمين، وبذلك أسهم في رسم صورة صحيحة للإسلام، وشارك في تهريب السلاح إلى ليبيا في نضالها ضد الاستعمار الإيطالي، وعاش معظم حياته بين فلسطين وباكستان والسعودية والمغرب، فكانت حياة عامرة بالعمل والكفاح والمغامرات أيضًا.

ومن الألمان الذين أسلموا الدكتور مراد هوفمان الذي كان سفيراً لبلاده في الرباط، وقد كتب عدداً من الكتب العلمية، وألقى عشرات المحاضرات في عواصم الشرق والغرب، يشرح الإسلام، ويزيل ما علق به من شوائب وأدران، ومن مؤلفاته:

"يوميات ألماني مسلم"[1] و "الإسلام كبديل"[2] وهو مثال رائع "للآخر" المتعاطف، المؤثر، حفظه الله وأطال في عمره.

وهناك أسماء أخرى لامعة للمتعاطفين مع الإسلام في الغرب. منهم "**زجريد هونكه**" مؤلفة كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" وهو عمل علمي نادر يصوِّر أثر تراثنا في حضارة الغرب.

ومنهم "**مريم جميلة**" الأمريكية اليهودية التي أسلمت سنة ١٩٦٢ وسافرت إلى باكستان وألَّفت العديد من الكتب التي تفضح "الحداثة" و"التغريب".

ومنهم "**محمد مارمادوك بكثول**"، الإنجليزي الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية، وبذلك أنقذ المسلمين المتحدثين بالإنجليزية من تضليل المترجمين المتحيزين الذين شوهوا معاني الكتاب العزيز.

ومن السياسيين يبرز اسم "بول فندلى" الأمريكي، عضو الكونجرس لمدة عشرين عامًا ابتداءً من يناير سنة ١٩٦١ والذي تصدى للتحيز الأمريكي ضد العرب، وألَّفَ "الخداع"، و"من يجرؤ على الكلام؟" و"لا سكوت بعد اليوم"، في مواجهة العنصرية والتحيُّز ضد المسلمين وضد العرب.

ومنهم "هيلموت شميدت" السياسي الألماني البارز الذي شغل منصب المستشارية فى ألمانيا مدة طويلة، وألَّف سبعة وعشرين كتابًا دفاعًا عن السلام والعدل والحفاظ على حُسن الجوار مع العالم الإسلامى.

ومنهم "روبن كوك" الإنجليزى الذى شغل منصب وزير الخارجية البريطانية في عهد حكومة العمال الحالية، ويشغل الآن منصب رئيس البرلمان عن العمال؛ وقد أظهر تقديرًا كبيرًا للثقافة الإسلامية والعربية وآثارها في الثقافة الأوروبية، ووقف ضد اشتراك

---

(١) ترجمة الدكتور عباس رشدي العماري؛ نشر مركز الأهرام للترجمة والنشر، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣.

(٢) ترجمة عادل المعلم؛ نشر دار الشروق؛ سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧.

بلاده في غزو العراق، فلم تصدر موافقة البرلمان إلا بتأييد حزب المحافظين الرجعي الاستعماري.

هذا "الآخر" الإنسان، المتسامح، المدافع عن تراثنا وعن حقوقنا يجب أن نسعى إليه، وأن تمد الجسور بيننا وبينه، لمقاومة "الآخر العدواني" الذي يسعى للاستغلال والهيمنة، ولا يتورع عن شن الغارات على مصانعنا ومدارسنا، واحتلال بلادنا، وطرد أهلها، كما حدث في مصر وفلسطين وأفغانستان والعراق، وكما حدث ويحدث للأقليات المسلمة.

الآخر العدواني

ولم تَجرِ المحاورات في الندوات والمؤتمرات العديدة التي ذكرناها فيما سبق في مناخ هادئ، بل كان: "**الآخر العدواني**" يعمل بكل طاقاته لإفساد الأجواء وتلويثها، لإفشال المبادرات الطيبة للتفاهم بين الطرفين، وكانت **حركة التنصير**، **وزرع الكيان الصهيوني**، هما أخطر ما صنعه "الآخر العدواني" في العصر الحديث، الأمر الذي حكم على المحاورات بالعقم والإخفاق.

ولن أتعرض لتاريخ حركة التنصير هنا بالتفصيل فذلك يخرج عن نطاق بحثنا، وأقدم عوضاً عن ذلك عدة أرقام عن التنصير في إندونيسيا سنة ١٩٧٥، أعتقد أنها تكشف حجم العدوان:

شيد المنصرون ٩٨١٩ كنيسة بروستانتينية،

يعمل بها ٣٨٩٧ قسيساً بروستانتينيًّا،

ومعهم ٨٥٠٤ منصِّرين متفرغين،

وللكاثوليك ٧٢٥٠ كنيسة،

يعمل بها ٢٦٣٠ قسيساً،

ومعهم ٥٣٩٣ منصراً متفرغاً،

وأحسب أن الأعداد تزايدت اليوم بنسب كبيرة.

وفي مجال التربية والتعليم:

يملك المنصرون ٣٤٣ مدرسة ابتدائية،

و ٥٤ مدرسة متوسطة.

وفي مجال الإعلام لهم صحيفتان يوميتان.

ويملكون ٧ طائرات مختلفة في سعتها (٤، ٦ ، ٨ راكب).

وحتى سنة ١٩٧٥ كانوا قد نجحوا في تنصير ربع مليون مسلم.

وهذا مع العلم بأن نسبة المرتدين عن المسيحية في إيطاليا بلغت ٦٣٪، وفي بريطانيا ٨٧٪، وفي ألمانيا ٨٨٪، كما جاء في إحصائية "لمعهد جالوب"[١].

وكان المسلمون المشاركون في الحوار الإسلامي المسيحي يذكِّرون الطرف المسيحي بهذه الحقيقة الأليمة، أملاً في ترك المسلمين على دينهم، وتنصير المرتدين عن المسيحية في الديار المسيحية، لكن عمليات التنصير استمرت في آسيا وإفريقيا وازدادت ضراوة، بفعل الأموال الأمريكية الباهظة التي رُصدت للتنصير.

ويقول الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ في ختام دراستهما الرصينة الوافية: "وهكذا يبدو لنا بجلاء... أن جميع أعمال البِر والإحسان التي يقوم بها المبشرون (= المنصرون)، إنما هي وسائل للوصول بالنصرانية إلى الشعوب غير النصرانية، ثم التسرب بالاستعمار الغربي إلى الشعوب الشرقية، إن جميع ما يتظاهرون به المبشرون من النّبْل إنما هو خداع ونفاق، حتى في الأعمال التي لا يسبق إلى وَهْمِنا أنها كذلك، كمشروع إنعاش القرى مثلاً".

ويضيف العالمان الكبيران قولهم: "إن المبشرين قد درسوا العالم الإسلامي من جميع نواحيه، ثم وضعوا الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة فيه، في كل ناحية

---

(١) الدكتور عبد الودود شلبي؛ رسالة إلى البابا بولس السادس؛ دار الأنصار بالقاهرة، (دون تاريخ)؛ ص ٤٥.

من تلك النواحي، لقد استغلوا في سبيل مآربهم كل وسيلة، من العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية، ومن الثقافة والأدب واللغة، لقد حرصوا على أن يسلبوا الإسلام كل مناحي الشخصية وكل أسباب الحياة"(١).

ولا ريب أن أعمال التنصير بددت آمال المثقفين المسلمين في قيام علاقات ودية بين الطرفين، وأغلقت نوافذ الانفتاح بين الطرفين، وإن كانت الجماهير العريضة ظلت بعيداً عن تلك الصورة البشعة التي عرفها المتعلمون المسلمون عن نشاط التنصير.

زرع الكيان الصهيوني

غير أن زرع الكيان الصهيوني في قلب العالم العربي، بدعم غير محدود من أمريكا وأوروبا، أوصَدَ كل المنافذ الثقافية والتعليمية التي كانت متفتحة أو يمكن أن تتفتح للحوار والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين واليهود، وأجَّجَ العداء الديني والقومي للغرب عامةً، وكيف يكون شعور المسلم حين يسمع خطاب "كنيدي" رئيس أمريكا يوم ١٥ /٨/ ١٩٦٠ في نيويورك حيث قال: "إن إسرائيل وُجدت لتبقى، وهذا التزام لا يقبل النقاش أو النقض، وإن الصداقة بين هذه البلاد وإسرائيل ستنمو وتزدهر على الدوام، وإذا كان الرئيس ترومان هو أول من اعترف بخلْق إسرائيل، ومنحها الدعم والمضمون في المجال الدولي، فأنا أزيد على ذلك بأنني أؤمن وألتزم بصورة قاطعة باستمرار هذه السياسة... وإننا سنعمل دائماً بسرعة وتصميم على حماية إسرائيل بكل ما في يدنا من قوة، **ولو أدَّى بنا ذلك إلى المغامرة بحرب عالمية ثالثة**"(٢).

ولا يزال رئيس أمريكا "بوش الابن" يردد مثل هذه التعهدات، وأكثر! (خطابه يوم ١٧ /٥ /٢٠٠٨ في الكنيسيت الصهيوني).

وأما دماء العرب المسلمين الذين سفكتها إسرائيل فلا قيمة لها!

ومن جهة أخرى، برأت الكنيسة الكاثوليكية اليهودَ من دم المسيح عليه

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية؛ ص ٢٦٣ - ٢٦٥.

(٢) سعد جمعة (رئيس وزراء الأردن في أيام نكسة ١٩٦٧): المؤامرة ومعركة المصير؛ كتاب المختار؛ القاهرة؛ دون تاريخ؛ ص ٩، ١٠.

السلام، وأدانت كل من اتهمهم بقتله، أي أنها أدانت ملايين المسيحيين من الأموات والأحياء، من كل الطوائف النصرانية! وحين ذهب وفد من اليهود لشكر البابا على ذلك قال لهم: "أنا يوسف أخوكم! أجل، إن ثمة فرقًا بين الذي لا يؤمن إلا بالعهد القديم (يعني اليهود) وبين الذي يؤمن أيضًا بالعهد الجديد".

الاستثناءات من دستور التسامح

التسامح هو المبدأ السائد لكن الحياة الواقعية لم تلتزم بالمُثل الإسلامية دائمًا، فحدثت انتهاكات عديدة في بعض فترات التاريخ.

ففي صفر سنة ٧٦٧هـ هاجم الفرنج الإسكندرية، وخرَّبوها، وأسروا كثيراً من أهلها. ولذلك غضب السلطان الأشرف بن الحسين، وأصدر مرسومًا باعتقال النصارى الشوام، وأخذ ربُع أموالهم لعمارة ما خَرَّبه الفرنج. وفي حكم الإسلام، هذا عمل غير شرعي، وعقاب لأبرياء. ولذلك أفْتَى ابن كثير بحُرْمَة ذلك المرسوم، طالما حَافظَ النصارى على عهد الذمة مع المسلمين. وبيَّن ابن كثير وجه الحُرْمَة لنائب السلطان في دمشق، لكنه لم يطع الشيخ الكبير ونفَّذ المرسوم الظالم[١] لكن السلطان تكرم وأمر برد ما أخذ من نساء النصارى؛ باعتبار ذلك: "أفحش وأبلغ في الظلم"[٢] وحكم الشرع واحد في "الغَصْب" سواء كان الضحية رجل أو امرأة. ووراء هذه الجريمة جهل المماليك واستبدادهم وظلمهم للمسلمين ولأهل الذمة جميعًا.

وفي عهد الملك صلاح الدين ابن الملك الناصر، سنة ٧٥٥هـ صدر مرسوم بمنع أهل الذمة من تولي الوظائف في دواوين الحكم وبأن لا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع، وبأن لا يركبوا الخيل والبغال! وليس لشيء من هذا مسوغ شرعي في الإسلام.

* * *

(١) البداية والنهاية؛ ١٤ / ٣٣٦ - ٣٣٨.
(٢) البداية والنهاية؛ ١٤ / ٢٦٨، ٢٦٩.

الفصل السابع

محمد نبي الرحمة

تمهيد

شخصية محمد ﷺ تجسد كل القيم الأخلاقية الرفيعة: من عدل وبر وصدق وشجاعة وصبر، ورحمة وعفو، وكرم وإيثار، ووفاء، وأمانة وعفة وتواضع وحلم وتسامح، وقد وصفه ربه جل شأنه فقال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤] وكل قيمة من هذه المنظومة الباهرة تستحق دراسة كاملة للوقوف على معناها واكتشاف أساسها وأبعاد تطبيقها وأهميتها الحياتية.

لكننا نركز على قيم الرحمة والتسامح في شخصيته، والحكمة في دعوته ﷺ، لدحض الافتراءات الموجهة إليه، غير أننا لا يمكن أن نَفْصِلَ هذه القيم عن بقية المنظومة الأخلاقية فصلاً تامًّا، لأنها تشبه الكائن العضوي الذي لا يعيش منه عضو معزولاً عن كيانه المترابط.

ولن نفهم الالتزام الصارم بهذه القيم إلا بالوقوف على أساسها الاعْتقادي، ولن ندرك قيمتها الحياتية إلا إذا تذكرنا الهوة السحيقة التي كان يتردى فيها الجاهليون العرب ومن جاورهم وخالطهم من اليهود والنصارى، فقد كانت العصبية الجاهلية، والعنصرية القبائلية في الجزيرة العربية، لا تكاد تعرف من التسامح والرحمة والحكمة إلاَّ أدنى درجاتها، وجاء محمد ﷺ لينتقل بالمجتمع الإنساني إلى آفاق رفيعة، فأخذ المسلم من المخالفين له في الدين وأعطاهم، دون حرج، ولم يعد يضيق بوجود المسيحي أو اليهودي إلى جانبه؛ ولم يعد ينكر عليه مزاياه الشخصية، بل شرع يصاهره ويؤاكله، بكل ما يقتضيه ذلك من المودة والتعاون والتسامح.

ولا تغيب الحكمة والموعظة الحسنة بطبيعة الحال عن أجواء التسامح هذه، فانقشعت سُحب الجفوة، وانتشرت العلاقات الودية، وما تعنيه من تراحم وتعاون بين أتباع الأديان السماوية من المسلمين واليهود والمسيحيين.

امتداح النبي ﷺ لملك الحبشة المسيحي

حين طال الأذى بالمسلمين في مكة على أيدي المشركين، حثهم النبي ﷺ على أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية، وامتدحها وقال: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فَرَجًا مما أنتم فيه"(١) فخرج ٨٣ رجلاً من المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم، ولاحَقَتْهم قريش إلى هناك، فَأَرْسلوا وراءهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ليحرِّضوا النجاشي ضدَّهم، لكن الملك المسيحي العادل واصل حمايته للمسلمين(٢).

وأرسل النبي ﷺ رسائل إلى ملوك عصره يدعوهم إلى الإسلام، منهم ثلاثة ملوك مسيحيون، هم: "قيصر الروم" و"النجاشي" و"المقوقس" عظيم القبط في مصر(٣) ومما يلفت النظر هنا رد "المقوقس" الذي كان وَدُوداً جداً، مع هدية قيِّمة. وقد احترم سفير رسول الله وأكرم وِفادَته، وقبلَ رسالته(٤).

الرحمة في شخصية محمد ورسالته

والرحمة كما تجلت في شخصية النبي محمد ﷺ هي التي وصفها القرآن الكريم والتي كانت **سعيًا نبيلاً لرفع العذاب عن كل كائن حي إنسانًا كان أو حيوانًا**. ومعلوم أن مصادر العذاب والألم عديدة، فقد يعذِّب الإنسانُ أخاه

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٣٢١ - ٣٣٠.
(٢) نفسه؛ ١ / ٣٣٣ - ٣٣٨.
(٣) نفسه؛ ٢ / ٦٠٧ - ويوصف المقوقس في بعض المصادر بأنه ملك الإسكندرية.
(٤) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٤ / ٢٦٦.

الإنسان دون رحمة أو شفقة، وقد تأتي الآلام من المرض أو العجز أو الفقر أو طغيان الطبيعة في طوفان أو زلزال أو وباء أو قحط.

ولم يقف محمد ﷺ في أية لحظة من حياته الشريفة موقف المتفرج الذي لا يأبه بآلام الآخرين، بل كان يبادر إلى درء الأذى عنهم، وقد أنكر القسوة على الإنسان والحيوان، لأن الحيوان يشعر بالعذاب ويعاني الآلام، وإن كان أكبر احتمالاً لها من الإنسان.

قال ﷺ: "ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء"(١) وقال أيضًا: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء". فقساة القلوب الذين يعذبون غيرهم لا يستحقون رحمة الله تعالى، وقال عليه الصلاة والسلام: "من لا يرحم لا يرحمه الله"(٢) وشَرَّع لأمته المسلمة أن: "من ضرب غلامًا له حدًّا لم يأته، أو لطمه، فكفارته أن يعتقه"(٣).

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "لعن الله من مثَّلَ بالحيوان"(٤) وكان ذلك من ممارسات الجاهليين البليدة، وأوجب عليه الصلاة والسلام على المسلمين الرحمة عند ذبح الحيوان، فقال: "وإذا قتلتم – الحيوان في الصيد – فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحُد أحدُكم شفرته وليرح ذبيحته"(٥) وقال أيضًا: "لعن الله كل مَن يتخذ شيئًا فيه روح غرضًا"(٦) ومن الجلي أنَّ الغرض من هذه التعاليم هو تجنيب الحيوان الألم، وذلك يحدث بسبب السلاح المثلوم، أو بسبب الإهمال في الذبح بحيث يعاني الحيوان أو الطير مدة طويلة من الآلام.

---

(١) رواه الطبراني؛ ورجاله رجال الصحيح.
(٢) البخاري؛ الأدب المفرد - باب ٧٧ - ص ١٣٥.
(٣) رواه مسلم من حديث ابن عمر.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه مسلم والترمذي في جامعه.
(٦) مسلم؛ ١٣ / ١٠٨.

وأكثر من هذا أمر الرسول ﷺ بالرحمة بالحية والعقرب والكلب والفأرة، وإن أذِن بقتلها إذا وُجِدَت في مساكن الناس (١) أما إذا وُجِدَت في بيئتها الطبيعية في الصحراء حيث لا خطر منها على البشر، فلا يجوز قتلها، كذلك نَهى ﷺ عن حَرقِ النمل وعن قَتلِ الحيوان عبثًا(٢).

وروي البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "عُذِّبت امرأة في هرة، حبستها حتى ماتت جوعًا فدخلت فيها النار؛ يُقال - والله أعلم - لا أنت أطعمتيها ولا سقيتيها حين حبستيها، ولا أنت أرسلتيها فَأَكَلَت من خشاش الأرض"(٣) وجاء رجل ببيضة يمامة فأمره بردها إلى عشها رحمةً بها(٤).

رحمته بفقراء الأسرى يوم بدر

ولقد آذى المكيون المشركون رسول الله ﷺ أشدَّ الأذى، ثمَّ جيَّشوا له جيشًا ليهاجمه في المدينة في غزوة بدر، وقد هزمهم شر هزيمة وأسر خمسة وسبعين رجلاً، وقتل مثلهم، ثم سمح لهم بفداء أسراهم بأربعة آلاف درهم للرجل، تخفض إلى ألف درهم، بحسب قدرة كل أسير، وتفضل ﷺ بالمنِّ على الفقراء الذين لم يكونوا يملكون شيئًا، منهم: أبو العاص بن الربيع، والمطلب بن حنطب، وصيفي ابن أبي رفاعة، وعمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب: "كان محتاجًا ذا بنات". فكان ﷺ مثالاً رفيعًا في العفو والتسامح والرحمة، حتى نظم أحدهم فيه شعراً يثني عليه(٥) وكان فداء بعضهم تعليم أبناء المسلمين الكتابة، وهو حل يسير لمشكلة أليمة ومهينة.

---

(١) رواه الذهبي في كتاب الكبائر؛ ص ٢٠٥.
(٢) نفسه؛ ص ٢٠٦.
(٣) البخاري؛ الأدب المفرد؛ باب ١٧٦؛ ص ١٣٨.
(٤) نفسه؛ باب ١٧٧ - ١٣٩.
(٥) ابن هشام؛ ١ / ٦٥٩، ٦٦٠.

وكان ﷺ رحيمًا بالحيوان؛ ومن ذلك أنه قال: " إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنة فأسرعوا عليها السير..."(١).

ويقول الإمام النووي: "معنى الحديث **الحث على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها**، فإن سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير فتأخذ حظها من الأرض بما ترعاه منها، وإذا سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها..."(٢).

ونهى ﷺ عن وَسْم الحيوان في وَجهه(٣) وهذا النهي يعني الرحمة والرفق بالحيوان واحترام وجهه كأنه شخص! ونهى ﷺ عن لعن الحيوان كما نهى عن لعن الإنسان(٤).

والله تعالى يقول﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] **فكيف كان عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين؟**

لقد عذب الإنسان نفسه في القديم والحديث بالمظالم المريرة التي اقترفتها الأمم والجماعات ضد غيرها، فعرفت البشرية الحروب التي لا تكاد تتوقف حتى تشتعل من جديد، واستباح الإنسان قتل أخيه وجرحه وتعذيبه وأسره ونهب ماله وإذلاله، وكلما تقدم البشر في الحضارة ازدهرت صناعة السلاح، حتى عُرفت الأسلحة النووية، واستعملت في اليابان في الحرب العالمية الثانية، دون أي مسوغات عسكرية، فأزالت مدينتي هيروشيما وناجازاكي من الوجود وقتلت مئات الألوف من البشر(٥).

وجاء محمد بالسلام للملايين ممن آمنوا به.

---

(١) مسلم؛ ١٣ / ٦٨.
(٢) مسلم؛ الشرح - ١٣ / ٦٩.
(٣) نفسه؛ ١٤ / ٩٨.
(٤) نفسه؛ ١٦ / ١٤٧.
(٥) أبو الحسن الندوي؛ السيرة النبوية؛ ط ٥، ص ٤١٥.

وجاء محمد ﷺ بتحريم الخمر، ونجح في إقناع الأغلبية العظمى من أتباعه بالتوبة عنه، على الرغم من إدمانهم الشهير لمعاقرة الخمور قبل بعثته، وتلك معجزة من معجزات محمد ﷺ، أنقذ بها الملايين، بل المليارات، من أبناء أمته في القديم والحديث، من عذاب الخمر، وهي أم الخبائث، وأشدها فتكًا بالأبدان والعقول والأرواح، وحتى اليوم، لم يعرف الخمور من المسلمين المعاصرين إلا من احتك بالغربيين وتابعهم.

وكما هو معلوم، معظم الغربيين يتعذبون بسبب معاقرة الخمر، وهذا لا يحتاج إلى براهين لأنه واقع ملموس ومشهود، وتعتبر معاقرة الخمر من أخطر المشكلات التي يواجهها الغربيون،[1] وقد انتشرت العيادات المتخصصة في مساعدة المدمنين على الإقلاع عن الخمر، وثبت للناس أن ذلك صَعْبٌ جداً.

وظل المسلمون الغربيون في مأمن من ذلك العذاب الأليم.

ولأن الخمر في متناول الجميع في بيوت الغربيين، فقد امتدت أيدي الأطفال إليها، وترددت أسماء أولاد الرؤساء ضمن قوائم المتعاطين والمدمنين، وقد وجد ابن بلير رئيس وزراء بريطانيا السابق مطرحًا على الرصيف في حالة سُكر شديد!

وقد عثرت السلطات على "جينا بوش" ابنة الرئيس "جورج بوش" في حالة سكْر في إحدى حانات واشنطن سنة ٢٠٠١، ولم تكن قد بلغت سن ٢١ سنة ليسمح لها بتناول الخمور، وقدمت أختها "نويل" وصفة طبية مُزورة لتحصل على حبوب "زاناكس" المخدرة، وقد عوقبت على ذلك بالسجن يوم ٧/٧/٢٠٠٢ لمدة ٧٢ ساعة.

وجاء في دراسة أجراها المعهد الملكي للأطباء النفسيين سنة ١٩٨٦ في لندن عن

---

(1) Toynbee; Civilization on Trial; London, 1957, pp.205-299.

الخمر وآثارها المهلكة، أنها أكثر ضرراً من الهيروين والكوكايين وكافة أنواع المخدرات، لأنها تسبب وفيات أكثر ومعاناة أشد وضرراً أبلغ، وأظهرت دراسة أجرتها وزارة العدل الأمريكية سنة ١٩٩٩م أن إدمان الخمر والمخدرات هو سبب اكتظاظ السجون الأمريكية بالنزلاء، لأن أكثر من نصف المسجونين اعترفوا بأنهم كانوا في حالة سكر عندما ارتكبوا جرائمهم، ونشرت دراسات عديدة في الدول الغربية أجرتها هيئات علمية عريقة تؤكد أن الخمر خطر عظيم، أو كما يعبر النبي ﷺ، أنها أخبث الخبائث، أو كما يقول رب العالمين: ﴿ **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة: ٩٠] وقد أفلح الذين أطاعوا نبيهم وكتابهم ونعموا بالسعادة ونجوا من الآلام والعذابات التي يجلبها الخمر لشاربيها، وذَاقَ العصاةُ الذين أدمنوها صنوفًا من العذاب والألم.

وأحسب أن هذا يكفي لبيان كيف كان محمد رحمة للعالمين، إذا أَصْغَوْا إلى حكمته واستجابوا لدعوته. (ولولا محدودية البحث لأضفت ضعف ما قدمتُ من بيانات تبرهن على أنه ﷺ أُرسل رحمة للعالمين).

وكان من العسير على المسلمين الجدد الذين كانوا يعاقرون الخمر أن يقلعوا عنها مرة واحدة، وتجلت الحكمة في دعوة محمد ﷺ في اصطناع التدرج لبلوغ الغاية العظيمة، فبدأ التحريم أولاً للسكر في أثناء الصلاة، فقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...** ﴾ [النساء: ٤٣].

وجاهد المجتمع المسلم كله للبراءة من الخمر وما تجلبه من شرور، وكان ذلك الجهاد عسيراً جدًا، لأنه جهاد ضد الذات، لا ضد عدو خارجي، لكن الإيمان الديني والغاية النبيلة من وراء التوبة، ووضع حد صارم للآلام والعذابات التي كانت تفتك بالمدمنين، ووصف القرآن لها بأنه رجس من عمل الشيطان، كل ذلك يسَّر للأمة تحقيق تلك النقلة الهائلة إلى مجتمع نظيف من الخمور، ولنتذكر أن الأمة الأمريكية أرادت أن تحقق تلك النقلة فلم تقدر، وقد حرمت الخمور وَوَضَعَتْ نص التحريم في صلب

الدستور الأمريكي، لكنها عادت وعدّلت الدستور ليبيح تعاطي الخمر، وقد فعلت ذلك لأن صناعة الخمور تحولت في فترة التحريم إلى صناعة سرِّية، لا تراقبها الإدارات الرسمية، وكانت أضرار التحريم بسبب ذلك أكبر من الإباحة.

ولا تزال البراءة من الخمر أمنية عزيزة للأطباء والمصلحين والحكماء الذين يعرفون أضرارها، لكن الغربيين أخفقوا في محاربتها، ثم أضيفت إليها المخدرات من كل صنف، ووقفت الحكومات عاجزة عن المقاومة!

وسرُّ نجاح محمد ﷺ أنه استند إلى دين وإلى عقيدة، في حين أخفق الغرب لأن الثقافة العلمانية السائدة في بلاده نبذت الدين، وتقبلت تعاطي الخمور على أنه سلوك حضاري سليم، فأوغل الناس في تعاطيها حتى تضخمت المشكلة وعجز الجميع عن حلها!(١).

رحمته بالأطفال والخدم

وعن أبي هريرة قال "قَبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع ابن حابس التميمي جالسًا فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: "من لا يرحم لا يُرحم"(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم! فقال النبي ﷺ: "أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة"(٣).

---

(١) راجع المسألة بتوسع في كتابي؛ البديل الأمريكي للإسلام؛ نشر دار التحرير؛ سنة ٢٠٠٤ - المبحث ٨.

(٢) فتح الباري؛ كتاب الأدب - باب ١٨ رقم ٥٩٩٧ - باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته - ١٠ / ٤٢٦.

(٣) نفسه؛ رقم ٥٩٩٨.

وعن عائشة أنه ﷺ "وضع صبيًا في حجره يحنكه فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه"(١).

ويقول أنس رضى الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشيِّع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار، وكان يوم قريظة والنضير على حمار، ويوم خيبر على حمار مخطوم برسنٍ من ليف، وتحته إكاف من ليف"(٢) وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ: "كان يعلف البعير، ويقمُّ البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معه إذا أعيا، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئًا، ولا يحتقر ما دعي إليه، ولو إلى حشف من تمر..."(٣).

قصة بُريرة

ومن الأدلة على رحمته وعطفه ورقته شفاعته عند جارية تُدعى "بُريرة" كي تراجع زوجها، قال لها ﷺ: "لَوْ رَاجَعْته؟" فقالت: أتأمرني؟ قال: "لا، إنما أنا شافع". فقالت"لا حاجة لي فيه.(٤) فقد كان عليه الصلاة والسلام آسفًا لما كان يعانيه الزوج المسكين ورقَّ له قلبه الشريف، لكنه لم يكن ليقسر المرأة على الحياة مع زوج لا ترضاه ولا تحبه.

وقال ﷺ: "اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تَخْلُفَنِيه، فأيما مؤمن سَبَبْته أو جلدتُه فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة"(٥).

ومن رحمته ورفقه وعطفه على الرقيق، شرَّع للتخفيف عنهم وقال لأتباعه

(١) فتح الباري؛ كتاب الأدب ؛ رقم ٦٠٠٢ - باب ٢١ وضع الصبي في الحجر؛ ١٠ / ٤٣٣ .
(٢) رواه ابن ماجه.
(٣) الرسالة القشيرية؛ ١ / ٤٣١ .
(٤) ابن القيم؛ زاد المعاد، ٤ / ٣٥ .
(٥) فتح الباري؛ رقم ٦٣٦١ - باب ٣٤ - ١١ / ١٧١ .

المؤمنين: "لا يقولَنَّ أحدُكم: عبدي و أَمَتي! كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل (أحدكم): غلامي وجاريتي وفَتَاي وفتاتي"(١).

رحمته بالأطفال

قال أبو قتادة: خرج علينا النبي ﷺ وأُمامة بنت أبي العاص (بنت زينب بنت النبي) على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وَضَعَها، وإذا رفع رفعها"(٢).

ونهى ﷺ عن تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان، وتوعَّد الذين يقترفون التعذيب فقال: "إن الله يعذب الذين يعذِّبون الناس في الدنيا"(٣).

ونهى النبي ﷺ عن تقنيط الناس من رحمة الله، وقد علم عليه الصلاة والسلام أن رجلاً قال: "واللهِ لا يغفر الله لفلان!" وقال الله تعالى: "مَنْ ذا الذي يتألى (يحلف) عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحبطتُ عملك، أو كما قال"(٤). وقال تعالى للمسرفين ﴿**لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣].

محمد: منقذ الإنسانية

وبسبب هذه الأخلاقيات السامية أعجب به كثيراً جورج برنارد شو George= Bernard Show وقال: "إنني أقدِّر دين محمد تقديراً رفيعًا بسبب حيويته المدهشة، إنه الدين الوحيد الذي يظهر لي وقد امتلك القدرة لمواجهة الأشكال المتغيرة للوجود، والتي تجعله جذابًا لكل عصر، ولقد درست حياة ذلك الرجل المدهش، **وفي اعتقادي بغض النظر عن كوني رافضًا للمسيحية أنه يجب أن يسمَّى منقذ الإنسانية The Saviour of Humanity** . وأعتقد أنه لو أن رجلاً مثله قد صار الحاكم المطلق للعالم الحديث، فإنه سوف ينجح في حل مشكلاته بطريقة تحقق له

(١) مسلم؛ ١٥ / ٥ - ٦.
(٢) فتح الباري: رقم ٥٩٩٦ - ١٠ / ٤٢٦.
(٣) مسلم؛ ١٦ / ١٦٧.
(٤) نفسه؛ ١٦ / ١٧٤.

السلام والسعادة التي يتوق إليهما: وأنا أتنبأ بأن دين محمد سيكون مقبولاً في أوروبا في المستقبل كما أنه بدأ يُقبل في أوروبا اليوم"(١).

والإحصاءات تشير إلى تحقق نبوءته، وفي الوقت نفسه تثير القلق لدى عدد من الدوائر الغربية!

وتبرز أخلاقيات الرحمة الحقة والتسامح العظيم في المواقف التي يحكم فيها النبي ﷺ على أعدائه، المهزومين الذين لا يملكون سوى الاستسلام الذليل لحكمه. فتكون الرحمة، ويكون التسامح من القوى القادر على الضعيف المستسلم آية من آيات الأخلاق النبوية الكريمة.

فهؤلاء بنو قريظة القبيلة اليهودية الكبيرة تدخل في عهد وتحالف وسلام مع النبي ﷺ ، ثم تدور الأيام ويأتي المشركون القرشيون مع أحلاف لهم من غطفان لغزو المدينة المنورة واستئصال محمد وأتباعه منها، وتحاصر المدينة، وتبحث عن طريقة لعبور الخندق الذي حفره المسلمون لحمايتها، فلا تفلح في شيء، ويذهب زعيم يهود بني النضير حيي بن أخطب إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد يغريه بخيانة العهد ونقضه والانضمام إلى المشركين ضد محمد والمسلمين، وفتح الطريق إلى قلب المدينة عبر مساكن قريظة، ويرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ إلى كعب ليتأكدا من موقفه، فيقابلهما بالإعلان الحاسم بنقضه للعهد.

كانت تلك كارثة عسكرية للمسلمين، لكن الله سلّم، وانسحب المشركون خائبين راجعين إلى ديارهم، فماذا يفعل محمد؟ هل يسكت على خيانة العهد وتعريض المسلمين لنكبة ساحقة؟ هل يترك قريظة الخائنة شوكة في خاصرة المدينة؟ أم ينزع تلك الشوكة لتأمين عاصمة الدولة المسلمة الناشئة؟

---

(1) Khurshid Ahmad; The Genuine Islam; Singapore,vol. 1. No.8, 1936. Islam Basic Principles; p.11

لقد سارع النبي ﷺ إلى قريظة وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، وقد عهد إلى سعد بن معاذ ليحكم فيهم؛ وقد التزم بحكم التوراة في مثلهم، وهو: القتل للمقاتلين وسبْي النساء والولدان (١).

وهذا هو الحدث الذي يُستخدم عادة لتصوير النبي ﷺ بصورة الرجل القاسي الذي لا يعرف الرحمة، وتلك صورة زائفة لا مسوغ لها في شئون الخيانات الحربية الخطيرة، وضرورات الأمن لأمة صغيرة تهددها الأخطار من كل جهة، وحكم سعد في قريظة هو حكم التوراة، كتاب اليهود المقدس، ولو أن المشركين هزموا المسلمين في تلك الغزوة لطبقوا حكم التوراة نفسه.

وفي غزوة بني المصطلق، وكان رسول الله ﷺ على رأس الجيش، وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول ضمن الناس، وقد تفوه بكلام مهين على رسول الله، ومن وراء ظهره، فقال ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وبلغت النبي ﷺ فغضب لذلك، وجاء إليه عبد الله ابن عبد الله بن أُبي، بعد أن علم بمقالة أبيه، وقال للنبي: أنا أقتله يا رسول الله إن كنت قاتله! فقال النبي ﷺ: "بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا"(٢).

فهذه هي أخلاقيات النبوية السامية إزاء الاعتداءات والإهانات، أخلاقيات التسامح والعفو والرحمة، وقد قدر النبي للابن حرصه على طاعته و غيرته على شخصيته وعرضه قتل أبيه، وقوله: أنت الأعز وهو الأذل يا رسول الله! فكان عفو النبي بالابن أكثر مما هو رحمة بالوالد.

ويوم مات عبد الله بن أبي بن سلول صلى عليه رسول الله ﷺ، وهكذا رحمه بعد مماته كما رحمه في حياته.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٢٢٢، ٢٤٠.
(٢) سيرة ابن هشام ؛ ٢ / ٢٩٣ .

وقصـة يهـود بني نضير قصة جريمة كبـرى، فقـد خرج النبي ﷺ إلى ديارهـم يستعينهم في دية قتل بني عامر، وهم يومئذ حلفاؤه، فتظاهروا بالموافقة، ولكنهم دبروا لقتله! وتكفل عمرو بن جحاش بن كعب،وهو أحدهم، بإلقاء حجر على رأس النبي وهو جالس إلى جوار بيت من بيوتهم، لكن الله تعالى بعث مَنْ أخبر النبي بالمؤامرة، فترك مكانه، ورجع إلى المدينة[1].

فماذا يصنع النبي بحلفاء متآمرين بقتله؟

لقد حاصرهم في ديارهم حتى نزلوا على حكمه، ومع ذلك لم يقتل أي واحد منهم، لا من زعمائهم، ولا الذي تكفل بإلقاء الصخرة على رأسه ﷺ.

وأثبتت المؤامرة الشنيعة لقتل النبي ﷺ أن هؤلاء الناس لا أمان لهم ولا عهد؛ وأن أمن الدولة الإسلامية الناشئة لا يتحقق مع وجودهم في قلب عاصمتها، ومن ثم قرر النبي ﷺ إجلاءهم عن ديارهم، وترك أموالهم لهم. وأسلم رجلان فتُركا في ديارهما، وهكذا رحمهم النبي مرة حين امتنع عن قتلهم، ومرة حين تركهم يجلون عن المدينة وهم يحملون أموالهم معهم، وكان قتلهم هو العقوبة العادلة للغدر بالحليف ونقض عهده والتآمر لقتل النبي ﷺ . ولا مجال للقول إن إجلاءهم عن ديارهم عقوبة قاسية، لأن أمن المدينة المنورة - عاصمة الدولة المسلمة الناشئة - لم يكن ليستقر في وجودهم كشوكة في خاصرتها، ولا يُتصور عقوبة أخف من ذلك، وتلك هي الرحمة من جانب القوي المنتصر القادر على كل عقوبة أخرى، ولو كان المنتصر قائداً عادياً لأبادهم، أو على الأقل: لَقَتَلَ المقاتلة وسبى النساء والذراري، وسلب أموالهم، فلا قتل ولا سبى ولا سلب للأموال، بل مجرد الجلاء عن الديار، فهل فوق هذا رحمة وتسامح مع عدو غادر متآمر لم يعرف للعهد حُرمة؟

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ٢ / ١٩٠

ولما شرع يهود خيبر في التآمر ضد الدولة المسلمة الناشئة غزاها المسلمون، وانهزمت خيبر، ومن رحمته ﷺ أن تركهم يزرعون أراضيهم : "ولهم شطر ما يخرج منها"[١] وهذه هي قواعد المزارعة بين المسلمين أنفسهم، وهي القواعد التي تطبق حتى اليوم في العالم الإسلامي بين المسلمين، لكن ملكية الأرض آلت للفاتحين، وهي أهون النتائج للحرب في ذلك الزمان.

وقد دَسَّتْ امرأة يهودية لرسول الله ﷺ سمًّا في لحم شاة لتقتله انتقاماً لقتلى اليهود، ولكنه ﷺ لم يسغه، ولفظه، ومات رجل أكل منه مسموماً، واعترفت المرأة بجريمتها، وكان جزاؤها القتل شرعاً،ولكنه عَفَا عنها، فكان ذلك مثلاً أعلى في التسامح والرحمة.

ويوم الحديبية بعثت قريش ٤٠ رجلاً، ليأسروا بعض جنود النبي ﷺ ، وقد : "رَمَوا في عسكر الرسول ﷺ الحجارة والنبل"[٢] وذلك عدوان صريح وخطير. لكن جنود النبي استطاعوا أن يأسروا المعتدين، وكان من حقه أن يطلب فدية لإطلاق سراحهم، لكنه لم يطلب شيئاً، فعفا عنهم وخَلَّى سبيلهم.

وكان ذلك مثالاً رفيعاً للتسامح والرحمة والعفو عند المقدرة.

وفي الطريق إلى مكة لفتحها حمل الراية سعد بن معاذ، ومرَّ بأبي سفيان ابن حرب، فقال سعد اليوم يوم الملحمة! واليوم تستحل الحرمة! (يعني الكعبة) فقال النبي ﷺ : "**بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة**" . وأمر بأخذ الراية من سعد وإعطائها لابنه كتأديب له[٣] .

وكان عقيل بن أبي طالب قد استولى على دار رسول الله بعد الهجرة؛ ثم

---

(١) فتح الباري؛ كتاب المغازي؛ باب ٤٠ ؛ رقم ٤٢٤٨ ؛ ص ٤٩٦ .
(٢) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣١٤ .
(٣) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٤ / ٢٨٨ .

باعـهـا، ولذلك سُـئل رسـول الله وهو في الطريق إلى مكة أين تنزل يا رسـول الله؟ فقال: "وهل ترك لنا عقيل من منزل؟" ونزل في خيـمة في شعب أبى طالب، وكان من حقـه أن يطرد السكان الذين اشتـروا داره، وأن ينزل بهـا ولكنه لم يفكر في ذلك، وليس بوسعنا أن نفهم ذلك السلوك السامي الكريم: وهل هو رحمـة بالسكان الذين اشتـروا الدار، أم هو احترام لعقيل ابن عمه وأمل في إسلامه؟ ولو كان الفاتح العظيم رجلاً عاديًا لأمر جنوده بإخراج السكان عنوة من الدار، لكي يعيش فيها، وكان ذلك حقه الذي لا ينازعه فيه أحد، **لكن أخلاقيـات النبـوة تأبى إلا أن تظهـر في كل مناسبة واضحة جلية.**

ودخل الفاتح الكريم مكة وهو راكع على ناقته، وحين اجتمع الناس حول الكعبة، وحطم المسلمون أصنامـهم، قال لهم النبي: **"مـا ترَون أني فـاعل بكم؟" قـالوا أخ كـريم وابن أخ كـريم، فـقـال: "اذهبـوا فـأنتـم الطلَقـاء!"** وأولئك كانوا هم الذين آذوه وقتلوا بعض أتباعه، واضطروهم إلى ترك ديارهم وأموالهم والهجرة إلى المدينة المنورة. وكان المتوقع أن يستبيح النبي دماءهم وأموالهم، وأن يخرجهم من مكة كما أخرجوه، وأن يعذبهم كما عذبوه هو وأتباعه، **لكن الأخلاق النبوية السـامية التزمت بالعفو والرحمة والتسـامح النبيل، فكان ذلك الموقف الرائع الفريد.**

فقط بضعة نفر من المجرمين العتاة الذين حاربوا المسلمين وقاتلوهم واعتدوا على شخص النبي وأهانوه، كمـا اعتـدوا على فاطمة وأم كلثوم، هم الذين أمرَ بقَتلهم، ولم ينفذ القتل إلا فى قلة منهم نظرا لهروب بعضهم، ثم عادوا إلى مكة فعفا عنهم!

وبعـد أن هزمت هوازن، وأُسِر من نسـائهـا وذراريهـا ستـة آلاف نفس وأعـداد كبيرة من الإبل والشاة، جاء زعماؤها إلى النبي ﷺ يرجونه أن يُعيد إليهم نساءهم وذراريهم ففعل، رحمة بهم، وأبى بعض المسلمين أن يُعيدوا نصيبهم من السَّبْي، فوعدهم النبي ﷺ بثواب الله، فرضوا وأعادوه، وهوازن هذه هي التي كانت على

وشك أن تهزم الجيش النبوي وتفتك بالمسلمين، والمسكنة التي أظهروها تُخفي وراءها عداءً مريرًا للمسلمين!

وكانت ثقيف قد صمدت لحصار المسلمين لها، وأمطرتهم بالسهام والنبل من وراء أسوار قلعتهم، وأوقعت في المسلمين إصابات عديدة، وأراد النبي ﷺ أن يضطرهم إلى الخروج ومواجهة المسلمين، فأمر بقطع أعنابهم! وعندئذ **توسلوا إليه أن يدعها "لله والرحم"، فكف عنهم شفقة بهم، لأن الأعناب كانت مصدر رزقهم الأساسي، وتعويضها يحتاج إلى سنوات**(١).

وعفا النبي ﷺ عن العبيد الذين طاردوه وأمطروه بالحصى والحجارة حين قدم لدعوة ثقيف إلى الإسلام أول مرة، وطلب أحد المسلمين من النبي أن يدعو على ثقيف، فقال عليه السلام: "اللهم اهْدِ ثقيفًا وأْتِ بهم"(٢) وقد تحقق ذلك بفضل الله، وأتوه مسلمين.

وكان عليه السلام في كل غزواته ينهى المسلمين عن قتل النساء والذراري والأجراء الذين لم يكونوا من المقاتلين، التزامًا بقول الله تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٠] ففي الإسلام قواعد شرعية تمنع الحرب من أن تنقلب إلى مجازر دموية تأتي على الأخضر واليابس، كما فعل الصليبيون حين فتحوا القدس وقتلوا كل من كان فيها من المسلمين، الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، المرضى والأصحاء، حسب وصف المؤرخ المسيحي "وليم".

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٤٨١.
(٢) نفسه؛ ص ٤٨٨.

الفصل الثامن

الرؤية الصحيحة للإسلام

الصورة الغربية الشائهة للإسلام

بصفة عامة يمكن أن نقول إن الصورة الغربية للإسلام هي على الأغلب نقيض الصورة الحقيقية المعروفة له، وقد شرع المسيحيون في رسم الصورة الزائفة للإسلام مبكرًا جدًّا، وواظبوا على الترويج لها إلى اليوم، وكانت معركة دائمة ضد الإسلام ميدانها الأساسي الكتب والخطب والرسائل، وتكثفت بعد اختراع الطباعة، ثم تفجرت في المواقع الإلكترونية التي لا تكاد تحصى!

وفي بداية القرن العشرين صدرت كتب ضخمة تهاجم الإسلام وتدعوا إلى المسيحية باللغة العربية واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، منها: كتاب الهداية (٤ مجلدات)، كتاب الباكورة الشهية، وكتاب تنوير الأفهام في مصادر الإسلام، وكتاب ميزان الحق، وكتاب الكفارة، وكتاب مصباح الهدى إلى سر الفدى، وكتاب البرهان الجليل في صحة الأناجيل، وكتاب دعوة المسلمين إلى مطالعة الكتاب المقدس الثمين، وهي: "ممتلئة طعنًا وافتراءً على الإسلام والمسلمين[١]".

وأثارت هذه الكتب حفيظة بعض العلماء المسلمين، ومنهم المرحوم الأستاذ محمد طاهر التنِّير، الذي ألف كتاب: "العقائد الوثنية في الديانة النصرانية" حيث بيّنَ أن عقيدة التثليث مأخوذة عن الوثنيين المصريين القدامى وعن الوثنيين الهنود[٢]

(١) محمد طاهر التنِّير؛ العقائد الوثنية في الديانة النصرانية؛ ص ١٥، ١٦.
(٢) نفسه؛ ص ٣٠، ٣١.

وكذلك **عقيدة تقديم أحد الآلهة فداءً** عن الخطيئة، وعقيدة **حدوث الظلمة عند موت المخلص**، وعقيدة ميلاد الإله من أم عذراء (الإله كرشنا وأمه برفاتي) عند الهنود[١] وعدة عقائد أخرى هي هي في الوثنية وفي المسيحية المُحرفة المعروفة اليوم[٢].

الرؤية المفتراة للإسلام ورسوله

وصوَّر الغربيون النبي محمد ﷺ في صورة مختلقة لا صلة لها بالحقائق، ولذلك أنا أسميها افتراءات لا شبهات.

يقول الدكتور محمد ماهر حمادة – أستاذ الحضارة في جامعة دمشق – إن صورة محمد لدى الأوروبيين هي صورة النبي الكاذب، مؤسس أشنع الفرق في تاريخ المسيحية[٣] وذلك لزعمهم أن محمداً كان كاهنًا مسيحيًّا ثم انشق عن الكنيسة!!

ولقد بلغ بهم الافتراء حد القول إن المسلمين يعبدون ثلاثة آلهة هم: (تيرماجان ومحمد وأبولو)![٤].

ويعترف "وات" الذي ألَّفَ كتاب "محمد في المدينة" بأنه: "لم يصوَّر أحد بمثل هذه الصورة القبيحة، ولم يؤذَ أحد كما صوِّرَ رسول الله وكما أوذي[٥] ولقد كانت غالبية أقاويلهم: "محض اختلاق"[٦].

يقول "بول فندلي" عضو الكونجرس الأمريكي لمدة عشرين عامًا، إن بداية تعرفه على الإسلام كانت سيئة: "ذلك أنني ضللتُ بشأن المسلمين والدين الإسلامي عندما كنت أدرس في مدرسة الأحد الأرثوذكسية في مدينة جاكسونفيل في ولاية إلينوى،

---

(١) محمد طاهر التنّير؛ العقائد الوثنية في الديانة النصرانية؛ ص ٧٨.
(٢) انظر فصول الكتاب من السادس إلى الأخير.
(٣) راجع كتابه: مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ؛ ص ٥٥.
(٤) نفسه؛ ص ٥٧. (٥) نفسه؛ ص ٥٥. (٦) نفسه؛ ص ٧٦.

واستقر ذلك التضليل في ذهني حتى بلغت خريف العمر". ويقول: "قالت لنا معلمتنا في تعريفها للمسلمين: "إن شعبًا أُميًّا وبدائيًّا وميالاً للعنف، يعيش في مناطق صحراوية في الأراضي المقدسة، ويعبد (إلهًا غريبًا)، وما زلت أذكر من طفولتي المبكرة أنها كانت تسميهم "محمديين" وتواظب على تكرار قولها: "إنهم ليسوا مثلنا"... وظللت معظم حياتي أحمل صورة عن "المحمديين" الغرباء الجهلة الذين يضمرون الأذى للآخرين"(١).

فهذه هي بعض الافتراءات التي تَرِد في الإعلام الغربي، اليوم، تقول للأطفال الصغار إن محمداً كان يعبد إلهًا غريبًا، في قوم من البدو الأميين الجهلة العدوانيين الذين يَضمرون الأذى للآخرين، إنهم ليسوا أصحاب دين سماوي، بل أتباع نبي كاذب، ولذلك سموا باسمه "المحمديين". وتلك هي صورة الإرهابي الذي رسمه الكاريكاتور الشهير في الدانمارك وغيرها من دول الغرب، وهي بذور السياسة التي قامت على غرض واحد هو: مقاومة "الإرهاب" - والحق أنها مقاومة للإسلام، وقد وَحَّدُوا بين الإرهاب والإسلام، وتولى إعلامهم نشر هذه الفكرة الشيطانية في العالم أجمع، وصوروا النبي محمدا ﷺ على أنه مخترع الإرهاب وراعيه!

هذه هي صورة محمد وأمته ودينه لدى الغربيين في إعلامهم وتعليمهم.

وقد تحرر بعض الغربيين من الأحكام المسبقة، واقتربوا من الحقائق، لكن الصورة الشائعة الطاغية للنبي محمد ﷺ والإسلام لم تتغير، وقد جمعت "كارين أرمسترونج" كثيراً من الافتراءات الزائفة في وصف النبي والإسلام، والتي تثير الاشمئزاز وفندتها! فهم يصفون النبي الكريم ﷺ بالدجال العظيم، والوحش، والفاسق! وزعموا أنه درَّب حمامة على التقاط حبات البازلاء من أذنيه ليوهم الناس أن

---

(١) انظر كتابه: لا صمت بعد اليوم"؛ الترجمة العربية منشورة في جريدة الحياة اللندنية في ٢٠٠١/٨/٢.

روح القدس يتنزل عليه! وأنه أجبر الناس بحد السيف على اعتناق دينه! وقالوا إن الإسلام مجرد صورة مشوهة من المسيحية، وإن المسلمين يعتنقون عقيدة كاذبة، وردَّة، وهرطقة خارجة على المسيحية!

ويلاحظ أن هذه الصورة للإسلام ورسوله تكاد تتطابق مع صورة المسيح والمسيحية كما صورها التلمود! كأنهم رفعوا اسم المسيح ووضعوا اسم محمد مكانه، ورفعوا لفظ المسيحية ووضعوا لفظ الإسلام محله!! والظاهر أنهم كانوا عاجزين عن إيجاد افتراءات شنيعة تشبع حقدهم على الإسلام ورسوله، فنقلوا افتراءات التلمود على المسيح والمسيحية! (انظر صورة المسيح في التلمود).

وكتب الدكتور عبد الرحمن بدوي كتابًا عن: "دفاع عن القرآن ضدَّ منتقديه" انتهى فيه إلى توكيد **"أن القرآن يخرج دائماً منتصراً على منتقديه"**[1] .

وبحث الأستاذ الكبير مسألة نقل القرآن الكريم عن التوراة والإنجيل، (وكان غرض المستشرقين منها إثبات أن النبي دعيٌّ وليس بنبي). ولقد حاول المستشرقون المعاصرون الكبار – من أجل ذلك – إثبات تشابه بعض الألفاظ القرآنية بألفاظ توراتية، وعلّقَ بدوي قائلاً (بعد البحث والتدقيق) إن المستشرق "هيرشفيلد" أصيب بهذيان حين زعم وجود تشابه![2] .

والنتيجة نفسها وصل إليها بدوي بعد مناقشة آراء "هوروفيتس" (١٨٧٣ – ١٩٣١م) وقال عنه بدوي – بحق – إنه أستاذ الضلال![3] .

إذن محاولات تشويه صورة الإسلام ورسوله لا تزال تجري في جميع المجالات، في الجامعات والإعلام و"النت" والمجلات والصحف والسينما والمسرح.

ومعظم تلك الشبهات ترديد لشبهات قديمة أثارها المستشرقون اليهود

---

(١) المقدمة؛ ص ١٦ . (٢) نفسه؛ ص ٣٠ . (٣) نفسه؛ ص ٤٣ .

والنصارى على امتداد القرون، وبعضها موروث عن الكهنة والقساوسة الذين ساءهم تحول الملايين من اليهود والنصارى إلى الإسلام في الشام ومصر وشمال إفريقية، والأندلس، وبعضهم شهد احتلال المسلمين للأراضي الشاسعة من أملاك الدولة الرومانية، وبعضهم عاش في ظل الحكم الإسلامي لعاصمة تلك الدولة، أعني القسطنطينية، وهذا كله يدرسه الغربيون في مدارسهم ويصبح عقائد راسخة عندهم.

وكما ذكرت غير مرة يزيد من غيظ الأوروبيين اليوم وجود **أعداد كبيرة من المسلمين** الذين هاجروا إلى الغرب واستوطنوه، وحافظوا على إسلامهم، بل شكلوا المنظمات العديدة للدعوة إلى الإسلام، ونجحوا في اجتذاب أعداد هائلة من الغربيين إلى اعتناق الإسلام، ومن بينهم عدد كبير من النخبة المثقفة ذاتها، حتى أن بعض الغربيين أخذ يتحدث عن "أسلمة أوروبا!" وعن "جرمانستان"! وهواجس أخرى من هذا القبيل!

فالشبهات التي تتردد في الإعلام الغربي **أصداء لذلك التراث** الطويل المتراكم من السباب والتجريح والرفض العشوائي.

وبصفة عامة، يتسم التراث الاستشراقي بالزيف والتحامل والبطلان، لأنه ليس علمًا موضوعيًّا، وأما أصداؤه في الإعلام فهي هراء مبتذل، وافتراءات حاقدة فارغة من الحقائق.

وفيما يلي أمثلة لتلك الشبهات التي جاءت في مقال بعنوان:

"Islam: A Critical Review" للمدعو "Steve Omega" نشر على "النت".

قال الكاتب الذي لم يعرف عمله أو مؤهلاته: "**إن محمداً نقل القرآن** عن

اليهود. **وأمه آمنة قالت إن ولدها يملكه شيطان**، والإسلام يستهين بحياة البشر. وقد فرخ الانتحاريين الذين يعدهم القرآن بالجنة، الإسلام يقضي بأن كل من ليس بمسلم يستحق القتل، "الله" ليس الاسم الصحيح للرب، الله لا يستطيع أن يتخذ ولداً، العنصرية جزء من الإسلام، الحج تقليد وثني، المسلمون يؤمنون بثلاثة آلهة، القرآن **يحرم التفكير الحر**، الإسلام يعتبر البشر جميعًا عبيداً، كان في الحجاز **٣٦٠** إله، **فاختار منها محمد إله قبيلته**، القرآن من إملاء الشيطان، **القرآن يخلو من الحكمة!!**

وأحسب أن القارئ الذي يملك أقل معرفة بسيرة النبي يشاركني الرأي بأن هذه الافتراءات لا تستحق الرد... إنها ليست شبهات، لأن الشبهة يكون لها مستند ما، فهل يوجد سند لما زعموا أنَّ آمنة قالت إن ولدها يملكه شيطان؟ وهل يوجد سند للزعم بأن النبي اختار إله قبيلته من بين ٣٦٠ إلهًا كانت موجودة في الحجاز؟ وهل توجد شبهة سند لزعمه بأن المسلمين يعبدون ثلاثة آلهة؟!

لقد كان المستشرقون دائمًا متحاملين ومضللين، لكنهم كانوا - غالبًا - دارسين للعربية والإسلام، ولذلك كانت آراؤهم شبهات تستحق الرد والتفنيد، أما هذا الهراء الذي تطفح به وسائل الإعلام الغربية اليوم فهو خرافات وخزعبلات، لكن من المؤسف أن الغربيين العاديين لا يعرفون عن الإسلام إلا أقل القليل، وذلك هو ما يسمح بقبول تلك الخرافات لديهم.

قضية المرأة: مدخل آخر للتهجم على الإسلام

ولقد أسهم المرتدون من أبناء المسلمين في الحملات الإعلامية على الإسلام ورسوله، وقبضوا الجوائز من دوائر إعلامية وثقافية أوربية وأمريكية. وكان من بين أولئك المرتدين امرأة إيرانية تدعى فاطمة غوشة، وتنتمي إلى العلمانيين المتطرفين.

في فبراير سنة ٢٠٠٢ عرضت "غوشة" ثلاث لوحات تهاجم فيها الإسلام، وتردد مزاعم الغربيين القائلة إن الإسلام يضطهد المرأة لأنه يعطيها نصف نصيب الذكر.

وعرضت "غوشة" لوحة أخرى في قاعة "ليليا فالسن"، تصور امرأة حاملاً معلقة على مشنقة، ولها جناحان ينزفان دماً، وفي خلفية المنظر يظهر عدد من المساجد، وهي تريد بذلك أن تحتج على حد الزنا، لكنها لم تلتزم الحقائق الشرعية التي تحرم تطبيق الحد على الزانية الحامل، وتؤجله إلى أن تلد وترضع ولدها، هذا فضلاً عن أن هذا الحد لا يطبق إلا بعد الاعتراف، أو شهادة أربعة شهود.

ولن نطرح مسألة الإباحية التي أحالت البلاد الغربية إلى ماخور كبير، وصرفت الشباب عن الزواج والإنجاب وتكوين الأسر، الأمر الذي أدى إلى انكماش عدد السكان في المجتمعات الغربية، وما يترتب عليه من آثار سلبية في كافة المجالات.

وأما مسألة الميراث فقد قتلت بحثاً بعد أن صارت ألعوبة لدى الإعلاميين، ورد المسلمون على "غوشة" وأمثالها فقالوا إن الذكر ينال ضعف نصيب الأنثى لأنه في نظام الأسرة الإسلامي الرجل هو المكلف شرعاً بالإنفاق على أسرته: الزوجة والأولاد، وليس على الزوجة أية مسئوليات مالية نحو زوجها؛ اللهم إلا إذا تبرعت بشيء عن طيب خاطر.

هذه هي الحقائق، لكن الدعاية، والسعي لنيل مرضاة المعادين للإسلام ونبيه الكريم ﷺ، لا تقف عند حقيقة ولا تتقيد بمنهج، ولا يهمها أن تحشو أذهان الناس بالأكاذيب، وفي البلاد الغربية ربما لا تجد "غوشة" وأمثالها العالم المسلم الذي يكشف أكاذيبها، فهي مطمئنة من النقد العلمي الصارم الذي يفضح أكاذيبها على الجماهير، ولهذا عادت إلى مهاجمة الإسلام فرسمت شكلاً على هيئة مقصلة (يذكر المشاهدين بالقرآن الكريم!) يستخدمها رجال دين مسلمون في إعدام امرأة، وهي تعلم أن السويد تحرم الإعدام، ومن ثم تبغي إثارة كراهية الجماهير للإسلام والقرآن!

ومعلوم أن عقوبة الإعدام تطبق على الرجال والنساء، في بلاد المسلمين وفي بلاد غير المسلمين، وقد أجازتها التوراة قبل أن يجيزها القرآن كعقوبة عادلة على جريمة

كبرى، بل أمرت به التوراة على من ضرب أباه أو أمه أو عمل يوم السبت! وفي ذلك إفراط في القسوة لا يرضاه الآباء والأمهات.

ومضت المرأة المرتدة في رسوماتها المعادية للإسلام، فرسمت امرأة وقد تسلل رجل مسلم تحت عباءتها لإغوائها على الفحشاء، وهي تستغيث للفكاك منه، ونسيت الرسامة المرتدة أن الغرب قد أزال عن الفحشاء كل سمات الإثم، فلم تعد العلاقات الجنسية "الحرة" موضع لوم أو نقد، لكن الجماهير الكارهة للإسلام تشجع "غوشة" وأمثالها بصرف النظر عن رداءة رسومها وتحاملها العدواني على الإسلام والمسلمين.

هذه الرسوم ليس لها صلة بحقيقة وضع المرأة المسلمة في المجتمع المسلم.

في حكم الإسلام المرأة هي شريكة الرجل في تكوين الأسرة، وتربية الأولاد الصالحين، والزوجة سكن للرجل، كما أن الرجل سكن للمرأة، فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم: ٢١] على هذه الأسس النبيلة، ومن أجل هذه الغايات الرفيعة تتأسس الأسرة المسلمة السليمة التي يبنى منها وعليها المجتمع الإسلامي الإنساني الراقي السعيد، وهذه الأسرة هي وحدها القادرة على تفريخ أجيال من الرجال والنساء الذين يواصلون إحياء المجتمع، واستمرار الحياة البشرية، وإعمار الكون.

والزوج، هو المسئول عن إعالة أسرته، من السكن والطعام واللباس، وسائر الاحتياجات المعيشية. ولذلك قلده الإسلام دور الراعي والمرشد والمربي، والقائد لأسرته، فقال الله تعالى ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ [النساء: ٣٤] والزوجة شريكة الرجل في القوامة على الأولاد وتربيتهم، والشورى منهج واجب الاتباع، فيقول الحق تبارك وتعالى في توجيه

الزوجين ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ...﴾ [البقرة: ٢٣٣] ففطام الرضيع يتم بالتشاور والتراضي، لا بالاستبداد برأي الأب أو الأم، وهذه هي - بصفة عامة - القاعدة الذهبية في الحياة الإسلامية، حقًّا الزوج هو الذي ينفق، ومن ثم يجب أن تكون له القيادة، لكن هذا لا يعني الانفراد بالقرار، وإنما اتخاذ القرار بعد التشاور والتراضي، وبهذا تتحقق السكينة والمودة والرحمة للأسرة كلها.

والأخلاقيات الحاكمة لعلاقة الرجال بالنساء تسمى في الإسلام "**أخلاقيات العفاف والستر**". وفي هذا يقول الأستاذ المودودي: "الصيغة المشروعة لعلاقة الرجل والمرأة في حكم الإسلام هي الزواج الذي ينهض فيه الزوجان بالمسئوليات الاجتماعية على أتم وجه ممكن والذي يسفر عن ظهور أسرة، ولا يغفر الإسلام لأحد الانحلال الجنسي والسلوك الشائن الذي قد ينظر إليه في مجتمع غير مسلم على أنه متعة بريئة أو إثم عادي يسير"(١).

هنا يشير المودودي إلى المجتمعات الغربية التي استحلت ضروب الفحشاء: من الزنا واللواط، وزنا المحارم، ولهذا أعلن الكبراء في الغرب دون حياء عن ممارساتهم الآثمة، وأحسب أن الغربيين قبل غيرهم يذكرون إعلان الأمير تشارلز عن علاقته الآثمة مع المدعوة كاميلا باركر، والتي تزوجها أخيراً، وكذلك يذكر العالم كله إعلان الأميرة ديانا عن مغامراتها الآثمة، وبعد مقتلها رفعها الإعلام الغربي إلى درجة الملاك! وكانت فضيحة "كلينتون" رئيس أمريكا الأسبق الشغل الشاغل للغرب حوالي عام.

ولم يكن أمراء بريطانيا وحدهم هم الذين مارسوا الفحشاء وجاهروا بها، بل شاركهم أمراء وزعماء أوربيون وأمريكيون ورجال دين في ذلك.

---

(١) منهج الحياة الإسلامية؛ ص ٥٨ .

وكانت المرأة مجرد متاع رخيص في تلك الممارسات.

وصعدت نسبة أبناء السفاح فبلغت ٥٠٪ في دول شمال أوربا، وكل ولد من سفاح مشكلة لأمه، ولذلك لجأت نساء كثيرات إلى الإجهاض بعد فشل أقراص منع الحمل، وتذكر الصحف الأمريكية أن مليون عملية إجهاض تتم في الولايات المتحدة سنويًّا، وربما دخل الأجنة في تجارة نقل الأعضاء!

ومع شيوع الفحشاء لم يعد الأزواج على يقين من أن أولادهم هم حقًّا أولادهم! لأن الخيانة الزوجية صارت سلوكاً عاديًّا لدى الأغلبية، وقد بلغت نسبة الزوجات الخائنات لأزواجهن ٥٢٪ في السويد، وخيانة الأزواج بلغت أرقاماً فلكية!! ولا تختلف الدول الغربية الأخرى عن السويد إلا قليلاً.

وبلغ حجم التجارة في البغاء في أوربا ١٣ مليار دولار سنويًّا.

وتتعرض النساء للاغتصاب؛ وتزداد الحالات عاماً بعد عام(١).

لا يريد الإسلام للمرأة هذه المهانة، ولا ترضى النساء ولا الرجال اقتباس "إباحة الاستباحة "permissive cornucopia وما تجلبه من كوارث على المجتمع البشري. والإسلام ييسر الزواج إلى أقصى حد ممكن، وفي الوقت نفسه يحرم الزنا ويعاقب عليه أشد عقوبة، فيقول الله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] هذا إذا كانا غير محصنين؛ أما إن كانا محصنين فالعقوبة هي الرجم حتى الموت، لكن هذه العقوبة لا تطبق إلا بالاعتراف أو شهادة أربعة شهداء، وهذه الشروط جعلت العقوبة ردعية زجرية فقط، وفي المملكة العربية السعودية التي تطبق الشريعة، لا يُرجم كل عام إلا حالات نادرة جداًّ، لاستحالة تحقق الشروط.

---

(١) راجع كتابي: البديل الأمريكي للإسلام؛ ص ٤٧ - ٧٠.

ومن أجل تنظيف المجتمع المسلم من الفحشاء وضمان الطهارة والعفاف لأكبر عدد ممكن من النساء والرجال، منع الإسلام الخلوة بين الرجال والنساء الأجنبيات، وحرَّم التبرج، وأحل تعدد الزوجات، وأباح الطلاق، والخُلع، لكيلا تعيش المرأة مقهورة مع زوج تكرهه، وشرَّع الإسلام من التدابير الوقائية ما يجعل الفنون والآداب والموسيقى وسائل للرقي بالإنسان، وليست أداة للهدم والغواية، وزادت مسئوليات العالم كله اليوم لضبط الفضائيات لصالح البشرية جمعاء، وعلى الدول المسلمة أن تنادي بترقية البث الفضائي لتكوين المجتمع البشري النظيف لا أن تنغمس فى الأوحال!.

الرؤية الصحيحة

ولتصحيح الصورة الغربية للإسلام ورسوله يجب أن نذكر - أولاً - أن علماء وزعماء وكتاباً أحراراً في الغرب رفضوا تلك الصورة الشائهة المختلقة للإسلام ورسوله، وبحثوا ودققوا، وعرفوا أن محمداً ﷺ نبي صادق، وأن الإسلام دين صدق وحق. (وقد رأينا في هذه الدراسة الدين الحق في مقابل الدين الباطل). فهذا "كارلايل" يقول إنه اختار محمداً لدور البطل، وأنه ينظر إليه كزعيم ديني عظيم قاد البشر إلى الله العلي القدير"(١) وفي خِضَم الثورة ضد المسلمين بعد ٢٠٠١/٩/١١ سافرت "كارين أرمسترونغ" إلى الولايات المتحدة الأمريكية لكي تقدّم الصورة الصحيحة للإسلام، في محاضرات عديدة ألقتها في عواصم الولايات المختلفة، وهذا الدكتور "مراد هوفمان" الذي كان سفيراً لألمانيا في المغرب يكتب عن الإسلام عدة كتب، ويطير عبر أوروبا وأمريكا آلاف الأميال لكي يقدّم الصورة الصحيحة عن الإسلام، بغية إحلال الاحترام بدلاً من الكراهية، وتمهيد التربة لقيام

(١) الدكتور ماهر حمادة؛ السابق؛ ص ١٢٣ .

علاقات طيبة بين المسلمين والغربيين [1] وكان محمد أسد، وهو مفكر ألماني مرموق قد سبق هوفمان بربع قرن تقريباً، قد قدّم الإسلام إلى الغربيين، واعتنق الإسلام، وعاش بين المسلمين، وصار واحداً من كبار المفكرين المسلمين، رحمه الله.

ولقد قدَّمْتُ فيما سبق من فصول هذه الدراسة الكثير من الحقائق عن النبي ﷺ وعن الإسلام، لكنها لا تكفي لبيان الصورة الصحيحة الكاملة لذلك النبي الكريم ولدينه العظيم، ولذلك سأحاول تقديم المزيد من الحقائق لتوضيح الصورة في خطوطها العامة، لإشباع رغبات القراء الحريصين على المعرفة الصحيحة من المسلمين ومن غير المسلمين على السواء، ولَدَيَّ اقتناع بأن كل الافتراءات التي تخيم على الناس في الغرب خاصةً لن تمنع قطاعات واسعة من المثقفين من إدراك زيفها، ومن ثمَّ تدفعهم إلى البحث عن الحقائق، وعلينا أن نتوجه إلى تلك القطاعات بحقائق الإسلام، بكل وسائل الاتصال الممكنة، ودون كللٍ أو ملل، والعقلية الغربية تأسرها الحقائق وتجذبها الموضوعية والمنهجية، فليكن هذا طريقنا إليها.

* * *

(١) من هذه الكتب: يوميات ألماني مسلم، والإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود، والإسلام كبديل، والطريق إلى مكة.

أَلِفْ : العقائــــد

الوحي : المرجعية العليا للإسلام

إن أهم مكونات الرؤية الصحيحة للإسلام **أنّ الوحْي هو المرجعية العليا لعقائده وتشريعاته وأخلاقياته**. ولقد جاء جبريل عليه السلام بالوحي من عند الله، وتلقاه محمد ﷺ، وحفظه المسلمون في المصاحف دون زيادة أو نقصان.

والله تعالى يأمر النبي والمسلمين باتباع الوحي، فيقول عز وجل: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [الأعراف: ٣] ويتوعد سبحانه وتعالى من لم يحكم بما أنزل الله ويقول: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤].

والمؤمنون عرفوا القرآن من النبي ﷺ. فهو الذي يبلغ القرآن عن ربه، ويشرحه للمؤمنين، ولهذا قال النبي ﷺ: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله"(١) والرسول هو الذي يحكم فيما يشجر بين المؤمنين لقول الله تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥] وبعد وفاة النبي صار الحكم للقرآن والسُّنة.

بهذه الآيات وغيرها صارت سُنَّة الرسول ﷺ المكون الثاني في المرجعية العليا للإسلام.

والقرآن والسنَّة لا يتناقضان مع المعارف العقلية والعلمية، وإذا حدث تعارض

---

(١) ابن ماجه؛ حديث رقم ٣ .

فإما أن تكون المعلومة العلمية خاطئة، وإما أن يكون النص القرآني قد أسيئ تفسيره، وإما أن يكون الحديث موضوعاً.

ولا يغطي القرآن والسنَّة كل تفاصيل الحياة البشرية، فثمة قطاعًا واسعًا غير خاضع لأحكامهما لأنه لا توجد لمسائله أحكام، وهذا هو المجال الواسع للعقل والتجربة، للإبداع فيه؛ وهو ما يسمى مجال "العفو" أو "ما لا نص فيه". وسوف أفصِّل القول فيه بعد قليل.

وللعقل مجالاته المشروعة، لكنه ممنوع من مجالات أخرى، وقد صوّر الإمام الشافعي هذه الحقيقة بقوله: "إنّ للعقلِ حداًّ ينتهي إليه كما أنّ للبصرِ حداًّ ينتهي إليه"(١) وهذه الحقيقة هي التي توصل إليها "كانط Kant " فيلسوف ألمانيا الأكبر، في كتابه الشهير: "نقد العقل المحض"(٢).

وفي القرن الماضي حاول بعض أبناء المسلمين المتأثرين بالفلاسفة الماديين الغربيين تنحية الوحي كمرجع لحياة المسلمين والاعتماد كلية على التجربة الحسية والجهد العقلي، الأمر الذي أحدث شرخًا هائلاً في المجتمعات المسلمة، وانتهى إلى أن صار المجتمع المسلم هجينًا من أحكام الوحي ونظريات البشر، وانشطرت الشعوب المسلمة إلى إسلاميين يصرّون على أن تكون السيادة للوحي، وإلى علمانيين ماديين يسعون إلى أن تكونَ الكلمة العليا للتجربة والعقل، ولا يزال هذا الانشطار يعمل عمله التخريبي في حياة الأمة المسلمة، ويسبب صدامات فكرية وثقافية، وعسكرية أحيانًا، ويقف الغرب دائمًا مع المادّيين.

المشكلة الكبرى: الثوابت الإسلامية

إن الوحي كما هو معلوم للجميع عبارة عن نصوص قرآنية وحديثية ثابتة.

(١) آداب الشافعي ومناقبه؛ ص ٢٧١ .

(2) Critique of Pure Reason; pp. 249 - 281

والحياة تتغير من عصر إلى عصر، وقد وقعت تطورات هائلة في حياة البشر في العصر الحديث خاصة، وظن بعض الغربيين أن من الضروري للإسلام أن يتطور، وإلا كان مصيره الفناء، وانبهر عدد من أبناء المسلمين بفكرة التطور، وحملوا على الثوابت الإسلامية حملات عنيفة متواصلة ووصفوها بالتحجر والجمود، وطالبوا بتجاوزها، وإغفال النصوص القرآنية والحديثية التي تفرضها، والاكتفاء بـ"جوهر" الوحي، أو روح "النصوص"! وهكذا تعرضت المرجعية العليا للإسلام للنقد والاعتراض والرفض من قبل أعداد من النخبة الثقافية وقادة الفكر على مستوى العالم الإسلامي. وقد واجههم المفكرون الإسلاميون بالرفض، ودافعوا عن "الوحي" – وهو القرآن والسُّنة – وبذلك اشتعل الصدام الفكري بين الفريقين، ولا يزال إلى اليوم مشتعلاً.

تبنى دعاة التطور الثقافة الأوربية، بوصفها المثل الأعلى في مجالات الفكر والعمل، وبغيرها لن يكون للإسلام مستقبل، بحسب تعبير المستشرق الإنجليزي الكبير هاملتون جيب Gibb.

والمثال الصارخ لنبذ الثوابت الإسلامية هو الدكتور زكي نجيب محمود، أستاذ الفلسفة والكاتب الشهير الراحل، فهو يرى أن عصرنا هذا هو عصر النسبية – أي التغير والتطور المتواصل في كل شيء، ويقول: "إن نظرة العصر تحيل كل قيمة إلى وجهة نظر ذاتية". ثم يقول: "ولقد وجدنا عصرنا متميزاً بالنظرة النسبية التي ترفض المطلقات (وهي الثوابت) حتى في المجال العلمي الدقيق نفسه، بَلْه أن يرفضها فيما هو نسبي بطبيعته كالقيم، فقبلنا النسبية في الفيزياء وما إليها، لكننا تشبثنا بالقيم المطلقة الموضوعية التي تزعم أنها حقائق أزلية لا سبيل إلى الاختلاف عليها بين إنسان وإنسان"(١).

---

(١) ثقافتنا في مواجهة العصر؛ سنة ١٩٧٩؛ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤.

وتبعًا لهذا الرأي لم يجد مسوغًا للثوابت الإسلامية العقدية أو العملية. لكن الفلسفة الغربية المعاصرة اتخذت وجهة مناقضة للوجهة النسبية التطورية، وهي التي تسمى المذهب المطلق Absolutism، أو مذهب الثبات، وجاء "كانط" على رأس هذا المذهب. [١] وتابع "كانط" فلاسفة كبار من أمثال "سيدجويك" و"بتلر" و"مور". لكن نيكولاي هارتمن هو الذي أكد أن الثوابت موجودة في مجالات العلوم والأخلاق، وأنها مثل البدهيات الرياضية في ثباتها [٢]. فالعدالة، والوفاء بالعهد، وبر الجار، قيم أخلاقية إيجابية، خالدة مطلقة، ثابتة، ويستحيل أن تتحول إلى قيم سلبية، أو تتطور أو تعدل.

والعدالة هي روح التشريع، بمعنى أن كل قانون يجب أن يكون عادلاً لكي ينال احترام البشر، سواء في الإسلام أو في غيره من النظم والشرائع، وليس بوسع أنصار التطور أن يثبتوا أن العدالة بالمعنى الإسلامي يجب تطويرها أو تغييرها. إنها تنص على ان "**لكل عامل ثمرة عمله، وعلى كل مخطئ تبعة أخطائه**"، فهل يمكن أن يقال: إن لكل عامل بعض ثمرة عمله؟ إن هذا هو ما حاولت الماركسية تحقيقه، فكانت النتائج خراب المعسكر الشرقي الشيوعي وانهياره، وهل يمكن أن يقال: إن المخطئ لا يتحمل تبعة أخطائه، بل يتحملها شخص آخر؟!

وصفوة القول إذن إن ثوابت الشريعة تلقى التأييد من العقل البشري الذي يتمثل في المذاهب المطلقة، هذا فضلاً عن النصوص الدينية التي يؤمن بها المسلمون والتي تؤكد الثوابت الشرعية في مجال القانون والأخلاق.

وهذا الثبات لا ينفي التطور نفيًا باتًّا. فاختراع وسيلة نقل جديدة عمل مشروع ومطلوب؛ لأنه يوفر الجهد والوقت للناس، واختراع مادة كيميائية لمعالجة مُلوحة الأرض الزراعية تطور محمود ومرغوب، ولا يتعارض مع الثوابت الإسلامية.

---

(1) Brehier (Emile); Histoire de la Philosophe; vol 2; p.551

(2) Hartmann (Nicolai); Ethics; vol. 1; p207

ولكن هل الزعم بالمساواة الكاملة بين الذكر والأنثى تطور مفيد؟ إن الاختلاف البيولوجي بينهما معروف للجميع؛ فليس لدى الذكور رحم ولا مبيض! ومن ثم لا يستطيع الذكر أن يحمل ويلد ويرضع، وليس لدى الإناث خصية تفرز الحيوانات المنوية. فالذكر والأنثى متمايزان ومتكاملان، ولا حياة لأحدهما دون الآخر، والادعاءات بمساواتهما المطلقة تسببت في ظهور مشكلات عديدة تعاني منها المجتمعات الغربية، وقد تحدث عن بعضها برزنسكي في كتابه الشهير Out of Control.

وهل الاعتراف بسلامة الممارسات الجنسية "الحرة" تطور مفيد من أي ناحية؟ إنه أدى إلى انتشار الفحشاء وزيادة مخيفة فى أعداد أبناء السفاح، وإلى انتشار الأُسر المثلية؛ وهي أُسر عقيمة بطبيعتها، وبذلك أسهم في تفاقم مشكلة الانكماش السكاني في البلاد الغربية.

إن أعداء الثبات يخلطون خلطًا مشينًا بين معاني التطور الحقيقي والتطور الزائف.

وفي العالم الإسلامي يخلط أعداء الثوابت الإسلامية بين تطور المعرفة لدى العلماء والفقهاء وبين تطور الثوابت، ويخلطون بصفة عامة بين "الحقيقة" و"المعرفة". و"الحقيقة" **ثابتة، لكن المعرفة متغيرة**، فمن ذلك زعمهم أن الثوابت تغيرت لدى الإمام الشافعي بعد إقامته بمصر، والحق أنه ازداد علمًا ونضجًا وتحصيلاً، فيصح القول إن معرفته بالإسلام تطورت، لكن لا يجوز القول إن الإسلام ذاته تغير أو إن بعض الثوابت تغيرت.

ويصنف الإمام الشاطبي رحمه الله أعمال المكلفين إلى: أفعال أقرها الدليل الشرعي، أو نفاها: "ومعنى ذلك أن يكون الشرع أمر بها إيجابيًا أو ندبًا، أو نَهى عنها كراهة أو تحريمًا، أو أذن فيها فعلاً وتركًا". وهذه هي الثوابت الإسلامية[1].

---

(١) الموافقات؛ ٢ / ٢٨٣، ٢٨٤.

وفي الشريعة الإسلامية: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج، وصيام رمضان، وبر الوالدين، والوفاء بالعهود، والجهاد في سبيل الله، وقول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الثوابت التي تستند إلى نصوص قرآنية وحديثية قطعية، وفي المقابل نجد المحرمات: الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور، وشرب الخمر، والميسر والأزلام والأنصاب، وقطيعة الرحم، والفرار يوم الزحف، وأكل أموال الناس بالباطل، والزنا واللواط وقذف المحصنات، من الثوابت المستندة إلى نصوص قطعية في القرآن والحديث.

وفي الشريعة الإسلامية يستند العلماء إلى "المصالح" في الحكم على أعمال عديدة في مجالات شتى، لأنها لم تكن ضمن الأعمال التي تحكمها نصوص، ولذلك تسمى "العفو" أو "ما لا نص فيه". وهذا المجال الواسع هو مجال التغيير والتطوير. وهكذا يزول خطر الجمود والتحجر. وفي العصر الحديث نظم المسلمون مجالات واسعة للصناعة والتجارة والزراعة والتعليم والصحة وتشييد المدن والاتصالات والإعلام، على أساس المصالح، ولم تقف الثوابت حجر عثرة أمام التطوير والتغيير.

وفي هذا يقول ابن القيم إن هذا (أي الاستناد إلى المصالح): "موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام .. فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيقوا الحقوق، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد .."(١) وهذا حق، ولنتخيل كيف يكون الحال إذا صمم الفقهاء على تنظيم الدورات الرياضية - مثلاً - استناداً إلى نصوص من القرآن أو السنة! أو تنظيم الإدارات الطبية والهندسية؟! عندئذ سيقول الجهال إن الشريعة لا تقوم بمصالح العباد، ولا بد من الخروج عليها لتحقيق تلك المصالح! وهذا يعني تجاوز الوحي المرجعية العليا للإسلام.

---

(١) إعلام الموقعين؛ ٤ / ٣٧٢، ٣٧٣.

وقد اتفق العلماء المسلمون الكبار: "على أن المصلحة معتبرة في الفقه الإسلامي، وأن كل مصلحة يجب الأخذ بها ما دامت: ليست شهوة ولا هوى، ولا معارضة فيها للنصوص تكون مناهضة لمقاصد الشرع"(١) والإمام مالك الذي حمل لواء الأخذ بالمصالح، اشترط لصحتها: "الملاءمة بين المصلحة التي تعتبر أصلاً قائمًا بذاته وبين مقاصد الشارع، فلا تنافي أصلاً من أصوله، ولا تعارض دليلاً من أدلته القطعية"(٢).

إذن مجال التغيير واسع جدًّا، لكنه منضبط وليس سائبًا، ولا منفلتًا، وذلك حتى لا يتورط المسلمون في الانفلات من أحكام الشريعة الثابتة، والقضاء على خلودها، وإحلال النسبية السوفسطائية محل الثوابت الشرعية، وهو يعني الخروج من الإسلام، وذلك هو ما دعا إليه دعاة "التغريب" و"مسايرة" الغرب في كل شيء، في الفكر والعمل والأزياء والعمارة واللغة والتقويم، وأصناف الطعام وطريقة تناوله! بصرف النظر عما يقوله "الوحي" في الكتاب والسُّنة!

والحق أن محاولات الانفلات من الثوابت الإسلامية قديمة، وقد زعم أحدهم أن الخمر حلال للمؤمنين في عهد الفاروق عمر بن الخطاب، لكن عهود الاحتلال الغربي للبلاد المسلمة شهد جهوداً جبارة لتنصير المسلمين، ونجحت البعثات التنصيرية في آسيا وإفريقيا في تنصير أعداد كبيرة من أبناء المسلمين، لكنها فشلت في تنصير أعداد معتبرة من العرب، وتشكل تيار ينادي بالتغريب، ومسايرة الغرب في كل شيء، ونجح إلى حد كبير في بعض البلاد وإلى حد محدود في أخرى، وانتشرت الخمارات في العواصم والمدن المسلمة، وافتتحت بيوت للدعارة رسميًّا، وتأسست البنوك الربوية، وهذا كله هدم للثوابت الإسلامية، وانتهى بنا الأمر إلى ما يسمى

---

(١) محمد أبو زهرة؛ أصول الفقه؛ ص ٢٨٣ .

(٢) نفسه؛ ص ٢٧٩ .

بتطوير الخطاب الديني، ومعناه تطوير الإسلام، وجوهر التطوير هو تخطي الثوابت الإسلامية وإحلال الثقافة الغربية محلها.

وكان الأستاذ الإمام محمد عبده (توفي سنة ١٩٠٥م) قد تصدى لتيار التغريب، وقال إن إصلاح أحوال الأمة: "يتم إذا سلك قادتها سبيل التربية والتثقيف، لا سبيل تقليد الغرب من غير فهم ولا إدراك عميق، أو التمسك بظواهر المدنية المادية مع الغفلة عن صميم المدنية الروحية"(١) ولقد وضع شروطًا للبس البرنيطة بدلاً من الطاقية أو العمامة، فأجاز ذلك: "إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دينٍ غيره"؛ "وإذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه، أو تيسير مصلحة"(٢).

ودعا الأستاذ الإمام إلى: "تحرير الفكر من التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى"(٣).

وهذا يعني واجب الالتزام بالوحي - بالكتاب والسنة - المرجعية العليا للإسلام عقيدة وشريعة: "فأمر الله في كتابه، وسُنة رسوله الثابتة القطعية التي جرى عليها ﷺ بالعمل، هما الأصل الذي لا يُرد، وما لا يوجد فيه نص عنهما ينظر فيه أولوا الأمر إذا كان من المصالح"(٤).

ومن الثوابت التي رفض الإمام انتهاكها: تحريم الربا.

فقد أنشأت الحكومة المصرية، وكانت حكومة علمانية - صندوق توفير البريد، وتأثم المسلمون من وضع أموالهم فيه بسبب أرباحه الربوية، واستفتوا الأستاذ

---

(١) رشيد رضا؛ تاريخ الأستاذ الإمام؛ ١ / ١٣٧.
(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده؛ ٣ / ١١٥.
(٣) مذكرات الإمام محمد عبده؛ نشر دار الهلال بالقاهرة؛ ص ١٨.
(٤) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده؛ ٥ / ٢٣٨، ٢٣٩.

الإمام: "هل توجد طريقة شرعية لجعل هذا الربح حلالاً؟ فأجاب بأن ذلك ممكن: "بمراعاة أحكام شركة المضاربة في استغلال النقود المودعة في الصندوق"(١).

ولقد ثارت مشكلة الربا منذ بضع سنوات، فلم تجد أستاذاً كبيراً مثل الإمام محمد عبده ليقول للناس كلمة الحق فيها، وللأسف وجدنا من يسعى إلى إثبات أن أرباح المصارف الحديثة حلال، ووجدنا من يهاجم المصارف الإسلامية، ويشكك المسلمين فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن الثوابت الإسلامية سندها الوحي، والتنصل منها معناه التنصل من الوحي – المرجعية العليا للإسلام – وهذا هدم للإسلام من أصوله وجذوره ذاتها، والحفاظ على الثوابت حفاظ على القرآن والسُّنة، ووصل وثيق بين المسلمين اليوم والمسلمين في عهد النبوة، والمتغيرات هي التي تستوعب الجديد في كل نواحي الحياة، وما الحديث عن التحجر والجمود إلا وسيلة مراوغة للانفلات من دين الله.

ولْينظر من شاء إلى الشعوب التي انفلتت من ضوابط الدين فاستباحت كل شيء، وهل سعد الناس بذلك حقًّا؟ هل صاروا أكثر إنسانية؟ هل أحب أحدهم جاره ومال إلى مساعدته؟ وهل تمتع الناس بالأمن على أنفسهم وعلى أموالهم وأعراضهم؟ وهل توثقت الروابط الأسرية ونعم الأزواج والأولاد بحياة مستقرة هادئة دافئة؟ وكيف حال المجتمع العلماني ككل؟ كيف حال النساء؟ وكيف حال العالم بأسره تحت القيادة العلمانية؟ كم من المليارات ينفق على التسليح؟ وكم ينفق على مرض الإيدز؟ وعلى إصلاح الأراضي لإطعام الملايين من الجياع في آسيا وأفريقيا؟

لنجب على هذه التساؤلات لكي نعرف قيمة الدين وثوابته ومتغيراته أيضاً.

وبعد الجمود والتحجر ننتقل إلى:

---

(١) الأعمال الكاملة: ١ / ٦٧٩.

يذكر الدكتور مراد هوفمان أن: "أكبر ضحايا التحريف في التاريخ هو رسول الإسلام"(١) وقد أصبح تشويه محمد تقليداً غربياً.

ولكن من بين آلاف المحرفين والمضللين، يخرج على العالم باحث نزيه يثبت أن مكانة محمد هي على رأس قائمة المائة شخصية الأكثر تأثيراً في تاريخ البشرية، لأنه الشخصية الوحيدة التي حققت نجاحًا هائلاً دينيًا ودنيويًا. ذلك الباحث النزيه هو "**مايكل هارت**" الذي ظهرت دراسته سنة ١٩٧٨.

وكل ما يخص النبي ﷺ حُرِّف تحريفًا وقحًا! ويكفي أنهم حرفوا شهادة "لا إله إلا الله" وجعلوها "أشهد أن لا إله إلا محمد"!!!(٢) ونشرت مجلة "دي زايت Die Zeit" الألمانية بتاريخ ٢٦/٥/١٩٩٥ حكاية مهينة للإسلام ولرسوله ﷺ، فقالت: "لم يكن عند محمد ثلاجة، وكان يقضي حاجته أمام النساء، وكان يسكر بعد تناول كوبين من البيرة. هذا هو الإسلام كله"(٣).

إلى هذا الحد بلغ بهم الفجور والهبوط والوقاحة والإسفاف!

ومن الجلي أن هذه الاتهامات مجرد افتراءات فاجرة لا سند لها، وكل من له إلمام يسير بسيرة محمد ﷺ يعلم يقينًا أنه كان مثلاً أعلى في الحياء، وقد رسم للمسلمين قواعد شرعية تسمَّى "أحكام التخلي" التي تكفل للمسلم الستر والبراءة من البول والغائط، وأما السُّكْر فقد طهر محمد أمته منه بعد أن كانت غارقة فيه، وصارت طهارة المجتمع المسلم خصيصة أساسية فيه، بقدر ما ظل السُّكر ومعاقرة الخمر داءً وبيلاً يشكو منه المسيحيون مُرَّ الشكوى بعد أن تحول إلى وباء مدمر بسبب نبذهم للدين واعتناقهم الإلحاد وانفلاتهم من القيم الأخلاقية.

---

(١) الإسلام كبديل؛ ص ١٥٥. (٢) نفسه؛ ص ١٥٦.

(٣) الدكتور مراد هوفمان؛ الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود؛ ص ٨٤

إن مجلة "دي زايت" يجب أن تحاكم وتغلق أبوابها لأن ما نشرته تضليل فاضح وجهل مشين يجب وقاية الشعب الألماني منه.

وفي الولايات المتحدة تطاول قسيس أمريكي يدعى جيري فالويل على النبيﷺ بأن وصفه بأنه: **إرهابي ودموي**، في حديث تليفزيوني، مع رزمة من السِّباب المشين، وهذا القسيس واحد ممن يتزعمون ما يسمى بحركة المسيحية الصهيونية، التي تمتلك وسائل إعلامية كبرى تروج لافتراءاته.

وقد أدانه مجلس الكنائس العالمي إدانة شديدة ووصفه بأنه مخرب وعدواني، ومجلس الكنائس يمثل ٣٢٤ كنيسة في مائة دولة، وكذلك اتخذ المجلس الوطني لكنائس المسيح في نيويورك - وهو يمثل ٣٦ كنيسة ينتسب إليها حوالي خمسين مليون أمريكي - موقفًا قويًّا رافضًا لإسفاف "فالويل" الأمر الذي أرغمه على سحب بذاءاته والاعتذار عنها.

وتهمة الإرهاب هي الشائعة اليوم في الغرب، وخاصة على لسان رئيس أمريكا جورج بوش السابق، وقد وحَّدوا بين الإرهاب والإسلام، بحيث يتاح للإعلام التهجم على الإسلام تحت قناع الإرهاب، ولكن "فالويل" لم يستخدم القناع وهاجم النبيﷺ صراحة، مما أدى إلى احتجاجات واسعة للمسلمين الأمريكيين والمسلمين في العالم أجمع، في حين أن أمريكا بحاجة إلى تسكين المسلمين حتى تفرغ من حروبها الإمبراطورية في أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان. وبصفة عامة، تشجع السياسات الأمريكية الإعلام على مهاجمة الإسلام (= الإرهاب)، والغربيون عمومًا يتقبلون تلك التهجمات، فيشجعون الإعلاميين والسياسيين والفنانين على مواصلتها، ولذلك تكررت تهمة الإرهاب في الصحف الدانماركية والفرنسية، والأمريكية، فنشرت جريدة "تالاهاسي ديموقراسي" رسم شاحنة محملة بالمتفجرات، ويقودها سائق اسمه محمد! وعلقت على الرسم بقولها: إلى أين يا محمد؟ وكانت الرسوم الكاريكاتورية

الدانماركية هي أسوأ ما نشرته الصحف الغربية، وقد أثارت ضجة واسعة في العالم الإسلامي، وخلقت هُوة عميقة واسعة لا يمكن عبورها بيننا وبينهم.

وقبل أن نمضي قدمًا مع افتراءات وشبهات الإعلام الغربي **نتوقف عند تهمة الإرهاب.**

فبعد تدمير البرجين الشهيرين في نيويورك يوم ١١/٩/٢٠٠١ على أيدي مجموعة من الشباب المسلم، قامت قيامة أمريكا والغرب عامة ضد كل ما يمت للإسلام بصلة، وأعلن بوش الحرب على الإرهاب الإسلامي على مستوى العالم، وسخر كل إمكانات بلاده للقضاء عليه - على الإرهاب الذي وحَّدوا بينه وبين الإسلام، ورفضوا تعريفه لتمييزه من نضال الشعوب المقهورة تحت الاحتلال الأجنبي، واستفادت الصهيونية من ذلك الخلط المتعمد في حربها ضد المناضلين المطالبين بالحرية لبلادهم، وصار كل معارض لسياسة بوش الإمبراطورية إرهابيًّا، وقد ظهر بوضوح أن المعارضين للسياسات الإمبراطورية الأمريكية هم المسلمون، ففي كل مجتمع مسلم تقبَّل العلمانيون - غالبًا - السياسات الأمريكية، ووقف الإسلاميون ضدها، وذلك لأن الإسلام يغرس في قلب المسلم إرادة الاستقلال ورفض الخضوع للأجانب، وكان القرآن الكريم والسُّنة المحمدية هما مصدر الطاقة المحركة للقوى الإسلامية، ولم تكن هذه الحقيقة خافية على أحد، وهذا هو ما يفسر التهجمات الإعلامية الحادة المسفَّة على النبي محمد ﷺ: إنه إمام المسلمين المقاتلين ضد أطماع الأمريكيين في كل مكان، وقدوة المجاهدين في فلسطين ولبنان والعراق وإيران وأفغانستان وباكستان وفي كل بلاد المسلمين.

فهؤلاء المعارضون لأمريكا وإسرائيل إرهابيون وقائدهم الأول لابد أن يكون بطبيعة الحال إرهابيًّا، بل صار كل مسلم إرهابيًّا بحكم إسلامه الرافض للسياسات الإمبراطورية العدوانية، ورحَّبت الشعوب الغربية بتلك الحرب العالمية ضد كل ما هو

إسلامي، باستثناء فئات قليلة من الأحرار الحريصين على الحقائق، وعلى السلام العالمي وعلى العلاقات السلمية العادلة مع العالم الإسلامي.

وشجعت الحكومات الغربية كل من لديه كلمة تسيئ إلى محمد وإلى الإسلام. إنها حرب عالمية، ولا يجوز ادخار أي سلاح مهما كانت طبيعته اللاأخلاقية، فلابد من هزيمة الإسلام الذي بدأ ينتشر في أوروبا وأمريكا بسرعة مزعجة، **وكل هجوم على محمد هو هجوم على الإسلام، والعكس صحيح أيضاً**، والمهم هو صرف المسلمين وغير المسلمين عن هذه الرسالة، عن الإسلام وعن نبيه الكريم ، ونزع إرادة الاستقلال من قلوبهم.

وهذه الحقائق تتجسد في حكاية الكاتب الهندي المرتد سلمان رشدي، لقد ألَّف رواية ساقطة بالمعايير الأدبية والأخلاقية، لكنها لقيت حفاوة منقطعة النظير من جانب المسئولين والإعلاميين في أوربا وأمريكا لسبب واضح وبسيط وهو الكمية الهائلة من الافتراءات والتحريفات التي شوه بها سيرة رسول الله (وأهل بيته الشريف) ومنحته الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب، وقام الإعلام بالترويج للرواية بكل الطرق الممكنة.

ولم تتوقف حفلات التكريم لرشدي؛ وقد توَّجَها توني بلير رئيس وزراء بريطانيا السابق بإقامة حفل لتكريمه في منزله الريفي بمناسبة مرور تسعة أعوام على صدور فتوى الخميني بإهدار دمه، وأقيم الحفل في ١٤ / ٢ / ١٩٩٨ لإغاظة المسلمين، وتوكيد مساندة بريطانيا للحرب على الإسلام ورسوله وتحت غطاء رعاية حرية الرأي.

ودعا وزير خارجية بريطانيا إيران للتفاوض لإلغاء فتوى الخميني، لكن إيران رفضت وأكدت استمرار الفتوى، ولذلك أحيط الكاتب المرتد حيثما ذهب بحماية كثيفة، ولم يفلح أحد في قتله حتى اليوم، وواصل الإعلام تأييده الكامل له.

ووقعت اختلافات كثيرة بين المسلمين من مؤيد لقتل الكاتب، ومن معارض له. غير أن جميع المسلمين غضبوا للافتراءات الظالمة على نبيهم ودينهم، ومنعوا نشرها في بلادهم، وكانت الطبعة الأولى من الرواية قد أثارت المسلمين ثورة عارمة، وقد عبَّر بعضهم عن غضبه بتفجير عدد من مقار شركة "فايكنج بنجوين" التي نشرتها، ولهذا تنازلت الشركة عن حق نشرها في طبعة شعبية، لكن دار "فينتاج" للنشر أصدرت الطبعة الشعبية سنة ١٩٩٨ غير عابئة بمشاعر المسلمين، بل لنقُل: ابتغاء الإساءة إلى مشاعرهم، ولولا ترحيب القراء الغربيين المتحدثين بالإنجليزية لما نشرت الرواية الساقطة أصلاً، وهو ما عبر عنه الإعلام الغربي صراحة.

ولنتذكر أن كل هذه الأحداث وقعت قبل حادثة تدمير البرجين في ٢٠٠١/٩/١.

وفي سنة ٢٠٠٢ مُنح رشدي "جائزة لندن الدولية" السنوية التي يحدد الفائز بها عددٌ من الكُتاب البريطانيين، وهذا يدل على أن العداء للإسلام ولنبيه ﷺ يسيطر على القارئ البريطاني العادي وعلى النخبة الأدبية أيضاً.

وقد أفصح "دانييل بايبْس" محرر مجلة Middle East عن سبب تقدير الغرب لرشدي فقال إنه: تصدى للأصولية، وأظن أن ذلك الاقتناع الخاطئ هو الذي ضمن لرشدي التقدير الأدبي – بما في ذلك لقاء الرئيس السابق لأمريكا بيل كلينتون، فهي الحرب ضد الإسلام إذن، ورشدي أسهم في هذه الحرب، فكانت له الجوائز وحفلات التكريم. والحق أن رواية رشدي أسهمت في توعية الشعوب المسلمة بما يُحاك ضد دينهم ونبيهم، ولم تزدهم إلا تمسكًا به وتحفزاً للدفاع عنه، ولم نسمع أنها كانت سببًا في ردة مسلم واحد عن دينه، وإن لم يُعْنَ أحد بقياس آثارها الإيجابية والسلبية بين المسلمين، أما ترحيب المسيحيين بها فهو مسلك طبيعي بسبب

المواريث العدائية المتحكمة في توجهاتهم منذ الحروب الصليبية، وبسبب انتشار الإسلام حاليًا في بلادهم.

ولم يقتصر التكريم لرشدي وروايته على بريطانيا وأمريكا، ففي ١ / ١١ / ١٩٩٦ دعته وزارة الثقافة الدانماركية إلى "كوبنهاجن" ليتسلم جائزة أدبية. وفي ٣ / ٤ / ٢٠٠١ زار رشدي الرئيس التشيكي "فاسلاف هابل" بالقرب من المقر الرسمي للرئيس في "براغ"، وذلك بمناسبة المهرجان الحادي عشر للأدباء، وأحيط رشدي بحراسة مشددة طوال الزيارة خوفًا على حياته، وربما نتبين من هذا كله الخلفيات التي سمحت بالرسوم الكاريكاتورية سنة ٢٠٠٦ ومزقت علاقة الدانمارك بالعالم الإسلامي، ففي ذلك البلد بنية تحتية خصيبة للعداء للإسلام ورسوله، أظن أنها تمتد إلى الحروب الصليبية، (لأنها لم تسهم في الاستعمار الحديث كما هو معروف). يضاف إلى السبب الآخر المهم الذي تكررت الإشارة إليه وهو تمسك المسلمين المهاجرين بالإسلام وممارسة الدعوة إليه، ونجاحهم الكبير فيها، ورفضهم الاندماج في المجتمع بترك دينهم.

ويجب أن نتذكر أن الإعلام الغربي استقبل رواية رشدي بالثناء العطر، وروج لها، ولم تفته أية حركة تتصل بها، على الرغم من تواضع قيمتها الفنية، وقام بحملة هائلة ضد فتوى الخميني.

جائزة نوبل لمتعصب هندي

وعلى خُطى سلمان رشدي سار "فيد باهارد نايبول" الكاتب الهندوسي المتطرف، وفاز مثله بجائزة نوبل للآداب سنة ٢٠٠١ . وإحقاقًا للحق نقول إن الإعلام السويدي رفض مسلك الأكاديمية السويدية، وقال نقيب الصحافيين السويديين "جان جيللو": "إن اختيار نايبول لجائزة نوبل في هذا الوقت بالتحديد هو اختيار بالغ التعاسة، خصوصًا في الظروف التي يعيشها العالم الآن. نعم، كان من الممكن منح

هذا الأديب جائزة نوبل منذ أربع سنوات، أما الآن فإن هذا الاختيار محزن للغاية. وما كان لنايبول ليحصل على الجائزة لولا أنه أعلن آراء عنصرية ضد الإسلام والعرب".

ولهذا الاختيار التعس تعرضت الأكاديمية السويدية لانتقادات عنيفة من كبار الكتاب المسلمين وغير المسلمين، باستثناء بعض الكتاب والصحافيين العرب العلمانيين المعادين للإسلام، وكان المرحوم الأستاذ رجاء النقاش أقوى النقاد الرافضين لاختيار الأكاديمية السويدية، حتى قال إنها: "لم تبرأ من الرشاوي والجاسوسية والإغواء الجنسي وفساد الضمائر والمصالح الأنانية والفردية".

ولكن لماذا هاجم نايبول الإسلام؟

لقد هاجم الإسلام وهو لا يدري عنه شيئًا! كل معلوماته مجرد انطباعات بعد زيارة بعض البلاد المسلمة الفقيرة، منها بنجلاديش وباكستان، ولم ير فيها غير نواحي القصور ومظاهر التخلف، واعتبر ذلك هو الإسلام!

ومن المؤكد أن هذه الحقائق كانت معروفة لأعضاء الأكاديمية، فإذا أعطوه الجائزة على الرغم من ذلك، حق لنا أن نصفهم بالتعصب الممقوت ضد الإسلام ورسوله ﷺ.

حتى المرتد سلمان رشدي أدان أعضاء الأكاديمية، وقال: "إن نايبول هندوسي متطرف يموِّل الهندوس المتطرفين بالأموال لبناء معبد "الملك رام" على أنقاض المسجد البابري الذي دمره المتعصبون الهندوس، وبذلك يساعد على إشعال حرب شعواء بين الهندوس والمسلمين"(١).

---

(١) جريدة الحياة الدولية، يوم ١٢/٣/٢٠٠٢.

وهذا عضو في الكونجرس الأمريكي عن الحزب الديموقراطي، وقد ألقى كلمة أمام المؤتمر السنوي لمنظمة "إيباك" اليهودية، وأراد أن يتملق أعضاءها الذين يمولون أعضاء الكونجرس أو يحجبوا عنهم التمويل، وبذلك يُنجحون من يشاءون ويسقطون من يشاءون، ولم يجد "لانتوس" كلامًا يقوله سوى موضوع صلح الحديبية الذي عُقد بين النبي ﷺ وبين مشركي مكة. ومن كلامه ندرك أنه لا يملك أي قدر من المعلومات الصحيحة عن ذلك الصلح.

قال "لانتوس" لا فُض فوه إن ذلك الصلح كان معاهدة غادرة! وهذه العبارة غير مفهومة، لكننا نستنتج أنه يقصد أن النبي ﷺ لم يحترم المعاهدة وأنه غدر بالمشركين! وقد وصف ياسر عرفات بأنه يقتدي بمحمد في الغدر بالصهاينة في فلسطين.

وهذا الكلام محزن حقًا، فلم أكن أتصور أن يكون من بين أعضاء ذلك الكونجرس إنسان على هذا القدر من الجهل ومن الجسارة على الحقائق، والبجاحة والوقاحة التي تسمح له بالحديث عن نبي الإسلام دون أن يعرف شيئًا عما يتكلم عنه أو فيه!

والحق الذي لا ريب فيه أن تمسك النبي ﷺ بذلك العهد يُعد مثلاً أعلى لاحترام العهود، وقد سجل التاريخ كل المراحل التي انتهت بعقد الصلح، وسجل التاريخ أيضًا أن رجلاً من المسلمين اسمه "أبو جندل" طلب اللجوء إلى المسلمين فرارًا من اضطهاد المشركين له، فرفض النبي قبوله احترامًا لنص العقد، وقال له: " ... إنا لا نغدر بهم"[1] وجاء رجل آخر اسمه "أبو بصير" إلى المدينة يطلب اللجوء ويشكو

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣١٨ .

الاضطهاد، فقال له النبي ﷺ : "يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر"(١).

لكن قريشًا نقضت العقد بأن قتلت بعض رجال خزاعة شركاء النبي في ذلك الصلح، وبذلك سقط العقد؛ فتلك طبيعة العهود: إذا نقضها طرف، تحتم أن يتحلل منها الطرف الآخر.

واستنجدت خزاعة بالنبي ﷺ فأنجدها بأن فتح مكة في شهر رمضان المبارك سنة ٨ للهجرة، فأين الغدر هنا؟ هل هو غدر النبي أم غدر قريش؟

ومن المؤسف أن أحدًا لم يعارض "لانتوس"، ولم تعلق الصحف التي نشرت كلامه بما يصححه، ويحمي القراء من ضلالاته!

التوحيد: جوهر الإسلام

وعلى النقيض من الافتراءات التي زيفت الرؤية الغربية للإسلام، وعلى الأخص قول بعضهم إن المسلمين يعبدون ثلاثة آلهة (!!!)، يمثل التوحيد المنزه عن الشريك والمثيل جوهر الرؤية الصحيحة للإسلام، وقد نشأ عند المسلمين علم واسع عميق اسمه علم التوحيد.

ويتأكد التوحيد في عدد كبير من آيات القرآن الكريم، من ذلك قول الله تعالى ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الحشر:٢٢] وقوله سبحانه ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ** ﴾ [الحشر: ٢٣] وقوله جل جلاله ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ويجادل القرآن المشركين جدالاً عقليًا فيقول ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهذا حق، فالتدبير المعجز للكون والنظام المدهش العجيب، لا يمكن أن يوجدا وأن يستمرا إذا تعددت الآلهة!!

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣٢٣ .

ويلخص الإمام أبو الحسن الأشعري عقيدة التوحيد عند أهل السنة - أكبر طائفة مسلمة في العالم - فيقول: "جملة ما عليه أهل السُّنَّة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله.. **وأن الله سبحانه إلهٌ واحد فرد صمد لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً**، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور"(١).

وهذه العقائد الصحيحة تتناقض مع عقائد المسيحيين الذين آمنوا بالتثليث، وبأن الله تعالى اتخذ ولداً، كما تتناقض مع عقيدة التوراة التي تنفي البعث والحساب، وعلى الرغم من هذا يقول المفترون إن محمداً نقل القرآن عن التوراة والأناجيل!

عقيدة البعث بعد الموت

ومن أهم مكونات الرؤية الصحيحة للإسلام الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء والجنة والنار، وهذه العقيدة هي التي ترفضها التوراة، والتي يكفر بها الماديون المعاصرون، كما كفر بها الجاهليون العرب.

قال تعالى ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [الحج: ٦، ٧] وقال تعالى أيضاً ﴿ **قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] وقال جل جلاله ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [غافر: ١٧].

وبحسب الرؤية التوراتية، لابد أن يكون الثواب والعقاب في هذه الحياة الدنيا. وهكذا ينهدم ركن ركين في الدين، فمن ذا الذى يستطيع أن يحيط بأعمال العباد، ويحاسبهم الحساب العادل؟ هل يعمل البشر دون انتظار لجزاء؟ وهل انتفاء الجزاء الأخروي يحث على عمل الخير، أم العكس؟

---

(١) مقالات الإسلاميين؛ ص ٣٤٥.

ولقد كشفت التطورات الحديثة من علاقات المسلمين بالغرب وانتهى الأمر إلى تكوين جاليات إسلامية كبيرة في الدول الغربية، وقد واجهت تلك الجاليات متاعب عديدة بسبب اختلاف عقائدها الإسلامية عن اليهودية والمسيحية، والإلحاد، من ذلك:

عرقلة بناء المساجد.

تحريم الحجاب في بعض الدول؛ ورفض تعدد الزوجات.

الاعتراض على **ذبح الأضاحي** في عيد النحر، ولا اعتراض على ذبح اليهود لأضحياتهم!

فَرْضُ مناهج الدين الإسلامي المحرفة في المدارس دون موافقة المسلمين.

إقدام السلطات غير المسلمة على **تفسير القرآن للمسلمين!** (وتلك تفسيرات خاطئة ومغرضة ومضللة)[١].

وفي العقائد يظهر تقارب المسيحيين من اليهود، ورفضهم لعقائد الإسلام، وهذا يرجع إلى كون التوراة كتاباً مقدساً لدى الفريقين، واتحادهما في قيم عديدة.

ولا تزال الكنيسة أسيرة إنكارها القديم لنبوة محمد ﷺ، ولهذا لم تجرؤ على محاولة تصحيح صورته حتى اليوم، على الرغم من مبادرتها تطبيع علاقتها مع الإسلام[٢] ولقد شاركت في بعض المؤتمرات فوجدت أن المسألة مجرد مجاملات وسفريات وعزوف عن معالجة القضايا الأساسية.

وهم يحاولون تسويغ مواقفهم الرافضة للإسلام بكلام كثير يرددونه عن: حقوق الإنسان، والديموقراطية وحقوق المرأة، في حين أن البواعث الحقيقية للرفض موروثة منذ الحروب الصليبية وما قبلها من صدامات كان النصر فيها للمسلمين، وهم يرون الآلاف من الغربيين يرتدون عن المسيحية ولا يبحثون عن أسباب ذلك في العقائد التوراتية الإنجيلية وبدلاً من ذلك يتهمون الدعاة المسلمين بأنهم السبب في تلك الردة، ويقيدون نشاطهم الدعوي.

---

(١) مراد هوفمان؛ الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ٢٥٤ - ٢٥٨.
(٢) نفسه؛ ص ١٦٤.

(ب) العبـــادات

توطئــة

يعطي النبي ﷺ صورة مركزة للرؤية الصحيحة للإسلام في حديث واحد مشرق، يشمل العقائد والعبادات.

قال ﷺ: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان"(١).

والملاحظة الأولى المهمة هي أن **هذا الحديث الشريف ينص على العقيدتين الأساسيتين، وعلى العبادات المفروضة على المسلم.**

والملاحظة الثانية هي أن الحديث لا يذكر كل العقائد، ولا كل العبادات، وقد عرضنا فيما سبق لبعض العقائد، من حيث اختلافها عن العقائد اليهودية والمسيحية. وسوف نضيف هنا حقائق أولية عن العبادات، ولكن الرؤية الصحيحة للإسلام تحتاج إلى المزيد من الدرس والتمحيص، وعلى كل راغب في معرفة الحقيقة ألاَّ يكتفي بما وجده في هذه الدراسة، وإنما يتخذ منها مقدمة لمزيد من المعرفة عن الإسلام ورسوله وكتابه العظيم، وهذه المعرفة متاحة باللغات الأوروبية وبأقلام باحثين غربيين كبار. ولابد لعشاق الحقائق أن يحذروا من الكذابين المفترين الكارهين للإسلام، والذين يملأون المواقع على "النت" دون حسيب أو رقيب!

---

(١) صحيح البخاري؛ (فتح الباري)؛ كتاب الإيمان؛ عن ابن عمر.

الصلوات الخمس وشروط صحتها

والصلاة هي العبادة اليومية الواجبة على كل مسلم، يؤديها خمس مرات في اليوم، وهي: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال له: "خمس صلوات في اليوم والليلة". قال الرجل: هل عليَّ غيرهن؟ قال عليه الصلاة والسلام: "لا، إلاَّ أن تتطوع". فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: "أفلح إن صدق"(١).

وهذه الصلوات تُؤدَّى في حوالي ساعة، فهي لا تُعَطِّل المسلم عن عمله، بل هي تنشِّطه، لأنه يتصل فيها بخالقه.

وطهارة البدن والثياب ومكان الصلاة شرط لصحتها، وكذلك الوضوء لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وكتب الفقه الإسلامي تبين كيفية أداء هذه الواجبات.

الزكاة الواجبة

والزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي عبادة مالية مهمة، وهي فرض على الرجال والنساء الكبار والصغار، والعقلاء والمجانين من المسلمين، ولا تؤخذ من كافر(٢).

---

(١) ابن حزم؛ المحلى؛ رقم ٢٧٥ - ٢ / ٢٢٨.

(٢) ابن حزم؛ المحلى؛ مسألة رقم ٦٣٨ - ٥ / ٢٠١.

والقرآن الكريم يفرض الزكاة في آيات عديدة منها قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] والتطهير والتزكية مطلوبان لجميع المسلمين.

والزكاة فرض في المال الذي بلغ النصاب (ومقداره يتغير بحسب الأحوال المالية للعصر)، وبشرط أن يكون مدخراً وحال عليه الحول، أي أن الفقراء الذين ليس لديهم مثل هذا المبلغ، ليس عليهم زكاة، وربما يكون من حقهم أخذ جزء من زكاة إخوانهم. وقد قال رسول الله ﷺ ما معناه إن الله افترض الزكاة على الأغنياء لكي تُرد على فقرائهم. وهذا يعني أن الزكاة لا تنقل من بلد إلى بلد آخر، إلا بشروط خاصة.

واليوم تستثمر بعض الجمعيات الإسلامية أموال الزكاة لإقامة مشروعات اقتصادية كبيرة، يوظف فيها الفقراء، وتوزع أرباحها على الأرامل والأيتام والمعدمين والمرضى.

وإلى جانب الزكاة الواجبة يحث الإسلام أبناءه على التصدق؛ وهو ليس فرضاً، لكنه مندوب، ويعد من أفضل العبادات الإسلامية، وهو ليس محدداً بمبلغ معين، بل هو متروك لأريحية المسلم، ومدى حاجة الآخرين إلى المساعدة. وعلى المسلم زكاة يسيرة أخرى عليه أن يخرجها في أواخر أيام شهر رمضان، وهي صدقة الفطر، وهي واجبة على الغني والفقير المستحق للزكاة، فهو يأخذ زكاة ويعطي زكاة.

صيام شهر رمضان

وصيام شهر رمضان كل عام ركن من أركان الإسلام، وفرض على كل مسلم ومسلمة، والصيام في الإسلام يقتضي الامتناع عن الطعام والشراب، ومعاشرة النساء في أثناء الصيام فقط. وعلى المسلم أيضاً الامتناع عن الآثام، كالكذب، والتطفيف في الميزان، والسباب، وتعطيل أعمال الناس، وغير ذلك من المعاصي.

ومدة الصيام شهر، (٢٩ أو ثلاثون يومًا) . من وقت الفجر إلى وقت المغرب . وبعد المغرب يباح للصائمين الطعام والشراب والمعاشرة الزوجية .

يقول الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة:١٨٣] فالتقوى هي الثمرة المرجوة من الصيام . ويقول سبحانه ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٤] فأجاز الله تعالى الإفطار للمريض والمسافر، على أن يقضي عدة أيام إفطاره بعد الشفاء أو انتهاء السفر.

وقال تعالى ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

ونستفيد من هذا أن الصيام كُتب على الذين من قبلنا، لكننا لا نعرف كيف كانوا يصومون، والمسيحيون يصومون عن كل طعام أصله كائن حي، ويأكلون ما عدا ذلك، وهذا يختلف تمام الاختلاف عن صيام المسلمين، وأنا أحسب أنه أيسر من صيامنا، وإن كان المسيحيون لا يوافقونني على ذلك .

ويندب الصيام نَفْلاً في عدد من الأيام، ويحرّم أيام العيدين ويوم الشك .

الحـــج

والحج ركن من أركان الإسلام، وهو فرض على كل مسلم عاقل بالغ، إذا توفرت له الاستطاعة .

قال تعالى ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [آل عمران: ٩٧] والاستطاعة صحية ومالية واجتماعية، لأن الله تعالى يقول ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

ويجب على المسلم أن **يخطط للوصول إلى الاستطاعة**، وحرام عليه أن يبدد الاستطاعة أولاً بأول، بالإسراف المالي، والمعاصي التي تضر صحته .

وعلى الحاج أن يكون عونًا لإخوانه الحجاج، وخصوصًا كبار السِّن والضعفاء، لقوله تعالى ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وعلى الحاج أن يهتم بدراسة المحظورات في أثناء الإحرام، حتى لا يفسد حجه بارتكاب أحد المحظورات دون علم.

وقد اختلف الفقهاء في وجوب العمرة، واختار ابن حزم القول إنها واجبة، استنادًا إلى قول رسول الله ﷺ: "دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة"[١].

وللمرأة أن تسافر لأداء الحج دون زوج أو محرم، والأفضل أن يكون معها محرم[٢].

ويجوز أن يمارس الحاج التجارة في الحج إذا احتاج إلى ذلك، لكن يجب أن يكون الحج أصلاً بنية الحج، لا بنية التجارة.

* * *

(١) المحلَّى؛ المسألة رقم ٨١٢ - ٧/ ٤٢.
(٢) ابن حزم؛ السابق؛ المسألة رقم ٨١٣ - ٧ / ٥١.

(جـ) المقاصد العليا للشريعة

والرؤية الصحيحة للإسلام تتضح أكثر بالوقوف على المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، وهذه المقاصد هي: حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال والعرض.

ومن البدهي أن الحياة البشرية لا يمكن أن تستمر بدون حفظ هذه المقاصد.

حفـظ الديـن

فبدون حفظ الدين ينزلق البشر إلى الإلحاد أو إلى معتقدات باطلة، كما هو حاصل الآن في بعض المجتمعات، وتبعًا لذلك تنهار القيم الأخلاقية المطلقة الثابتة، ويسود المذهب اللّذي والبراجماتي، والأناني، وتنحصر حياة البشر في الطعام والشراب واللباس والمسكن والمركب، والمصالح المادية عامة، وتندثر الحياة الروحية أو تنكمش إلى أقصى الحدود، وعندئذ يصح القول إن الدنيا غابة كبيرة، والإنسان ذئب أو وَحْش يعيش بين وحوش. ولعل المجتمعات الشيوعية هي التي تمثل الحياة بغير دين، وقد كان الدين يحارب بكل الأسلحة الممكنة في تلك المجتمعات، ولهذا فشلت الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، وفي الدول التي سارت على نهجه.

وبدون الدين تنتشر الأمراض النفسية، والجريمة، ويقبل الناس على النشاط الجنسي خارج رابطة الزواج، وتنخفض أعداد المواليد، مما يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية كبيرة. وتعاني دول عديدة في الغرب اليوم من الانكماش السكاني[1].

ولتحاشي هذه الكوارث يحرم الإسلام الإلحاد والوثنية، ولا يسمح لأحد أن

(١) راجع القضية بالتفصيل في كتابي: البديل الأمريكي للإسلام؛ المبحث الأخير.

يعيش في مجتمعه بدون ديانة سماوية (يهودية أو مسيحية) . والله تعالى يقول ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] وينهى القرآن الكريم والسُّنة النبوية اليهود عن العمل يوم السبت لأنه محرم عليهم بحكم التوراة .

ونظرًا للأهمية البالغة للدين في حياة البشرية، شدد الإسلام عقوبة الردة، فإذا كان الدين هو أعظم القيم كانت الردة أفحش الآثام، وكانت العقوبة عليها أشد عقوبة .

يقول الإمام النووي، شارح "صحيح مسلم" : "إن مذهب أهل الحق أنه لا يُكَفِّر أحدٌ من أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع؛ وإن من جَحَدَ ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة حُكِم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه، ممن يخفى عليه، فيعرَّف ذلك، فإن استمر حُكِم بكفره، وكذا حكم من استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة"(١) .

وهذا منتهى التسامح، والتماس الأعذار، والرفق بالجهال؛ ويلاحظ التفريق بين اقتراف الآثام، كشرب الخمر، وبين استحلال شربها، فالشرب له عقوبته، أما القول إنه حلال ففيه تكذيب للنصوص التي حرمته .

حفظ النفس

حفظ النفس يعني الحفاظ على أرواح البشر وصون دمائهم، فإن "الأنفس" هم الذين يعبدون الله في هذه الحياة، وإذا قتلت نفس عُدِمَ متعبد لله تعالى، والله تعالى كرَّمَ الأنفس البشرية حين خلقها بنفخة من روحه العلية، وقد حرَّم قتلها في الأديان السماوية، وشدد العقوبة على قتلها .

---

(١) صحيح مسلم؛ ١ / ١٥٠ - الهامش.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٨] ومجَّدَ الله تعالى القصاص فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩] وقد أثبتت الأيام – خصوصًا في العصر الحديث الذي حرَّمَ القصاص – أنَّ في القصاص حياة حقًّا، فتحريم الإعدام في بعض الدول شجع المجرمين على القتل، وهَوَّنَ من قيمة "النفس" البشرية؛ فزادت حوادث القتل زيادة كبيرة(١).

يرفع الإسلام من قيمة حفظ النفس حتى تصير من أسمى القيم الأخلاقية، ويفصِّل ابن حزم الواجبات التي يفرضها حفظ الأنفس فيقول: "ومما كتبه الله تعالى أيضًا علينا استنقاذ كل متورط من الموت إما بيد ظالم كافر، أو مؤمن متعدٍّ، أو حية أو سبع، أو نار أو سيل، أو هرم، أو حيوان، أو من علة صعبة نقدر على معافاته منها، أو من أي وجه كان، فوعدنا على ذلك الأجر الجزيل الذي لا يضيعه ربنا تعالى الحافظ علينا صالح أعمالنا..."(٢).

وتسمو هذه القيمة الإسلامية إذا عرفنا أن النفس مطلقًا، لا النفس الزكية، هي غاية الحفظ والرعاية، فلا تفرقة عنصرية في الإسلام.

حفـظ النســـل

يحرص الإسلام على عمارة الأرض، وبقاء الجنس البشري؛ والسبيل إلى ذلك هو الزواج والإنجاب، فالزواج هو النظام الذي يكفل كثرة النسل، واجتناب اختلاط الأنساب، وتمكين كل مولود من معرفة أبيه وأمه وإخوانه وأخواته، وأجداده، وأعمامه وأخواله الذين يرتبطون به بروابط الدم والرحم، ويكفلون له التربية الاجتماعية الصحية، ويكونون له كفلاء وأعوانًا، في السراء والضراء.

---

(1) Crime in Britain Today; 25

(٢) المحلى؛ ١١ / ١٩ .

ومن أجل تحقيق هذه الغاية العليا أعني حفظ النسل، يحث الإسلامُ على الزواج وينهى عن العزوبية والرهبنة، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]. ويقول النبي ﷺ: "يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء"(١).

ولا ريب أنَّ النسل مسئولية كبيرة ونفقات باهظة، لكن الأولاد متعة لآبائهم وأمهاتهم لا تعدلها متعة، وبخاصةً البارِّين منهم، والله تعالى يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] ومن المؤسف أنَّ كثيراً من الشباب والشابات في الغرب خاصة، يتهربون من مسئوليات الزواج والأولاد، ويزين لهم الشيطان أنَّ الحياة دون زواج أفضل وأمتع، لكن سرعان ما تحل الشيخوخة فلا يجد الواحد منهم من يسأل عنه مجرَّد سؤال بالهاتف، وهو في أمس الحاجة لذلك.

حفـظ العقـل

والحياة العقلية تُعد من أبرز مكونات الرؤية الصحيحة للإسلام، والعقل هو الذي يميز الإنسان من الحيوان، وبه يدرك الإنسان صدق النبي ﷺ وصحة الرسالة الإسلامية، ويفهم القرآن والسنة وما فيهما من عقائد وشرائع وعبادات وأخلاقيات، قال تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] وقال أيضاً: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

---

(١) الهيثمي؛ الزواجر؛ ٢ / ٢.

والعقل هو مناط التكليف، وغياب العقل يسقط التكليف، فالمجنون ليس عليه واجب، ولا عليه عقاب إذا فعل إثماً، وكل الكائنات التي لا تعقل لا تكاليف عليها، والصغار من البشر غير مكلَّفين، إلاّ عند البلوغ، أي بلوغ درجة من النضج العقلي، اتفق العلماء على الشواهد الدالة عليها.

ويحرص الإسلام على الحقائق التي هي غذاء العقول، ويدين الكذب والتضليل والباطل، وهو يشرِّع من أجل أن يملأ عقل المسلم بالحقائق، ويطهره من الأباطيل والخرافات، وحرم الإسلام الخمر لأنها تذهب بالعقول وتنزل بالبشر إلى مرتبة الحيوانات.

وحث الإسلام على التعليم، وأكد فضل العلماء، فازدهرت العلوم العقلية والدينية والدنيوية في البلاد المسلمة، حتى صارت مقصد الطلاب من الغرب والشرق على السواء، وفي الوقت نفسه اقتبس المسلمون العلوم الصحيحة من اليونان والهنود والفرس، وردوا ما فيها من أخطاء وخرافات، وأضاف المسلمون حقائق جديدة ومهمة لما كان معروفاً عند غيرهم، وأبدعوا علوماً جديدة ذات طابع عقلي إسلامي فريد، أهمها علم أصول الفقه الإسلامي.

حفظ المال

والمال جانب مهم جداً في الرؤية الصحيحة للإسلام، إنه قوام الحياة، وتنظمه شرائع عديدة كسباً وادخاراً وإنفاقاً ووراثة، قال تعالى ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الكهف: ٤٦] وقال سبحانه ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٢٨] ونبَّه المؤمنين إلى واجب الحذر في معاملة السفهاء فقال جل جلاله ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ [النساء: ٥] وحذر العباد من أكل الأموال بالباطل فقال سبحانه ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** ﴾ [البقرة: ١٨٨]

وحث الإسلام أبناءه على العمل وكسب المال فقال جل شأنه: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]

وأحاط الإسلام الأموال التي أحرزها مالكوها بالطرق الشرعية بسياج متين من التعاليم والتشريعات، فحرَّم السرقة والغَصْب والغش والاحتكار والتطفيف، وأعطى المالك حرية التصرف في ماله في نطاق الشرعية، حتى وجدنا رسول الله ﷺ يرفض التسعير ويقول إن: "الله هو المسعِّر." أما المال الحرام فلا حرمة له، ويجب التصرف فيه على نحو يعيد إليه شرعيته.

وأباحت الشريعة الإسلامية للمالك الحق في الدفاع عن ماله ضد أي لص أو مغتصب، بما في ذلك قتله إذا لم يندفع إلا بالقتل، وإذا قُتل المالك دفاعًا عن ماله فهو شهيد بحسب نص الحديث الشريف.

حفظ العِرْض

والعِرْض من أثمن ما يملكه الإنسان، والمقصود هو سمعة المرء أو سيرته بين الناس، وسيرة أهله أيضًا، ويستند احترام الناس للمرء على حسن سمعته، وكثير من المعاملات المالية والاجتماعية يعتمد على السمعة الحسنة للمرء المسلم، والسمعة السيئة تصرف الناس عن التعامل مع صاحبها، تجاريًّا واجتماعيًّا، وقد يفشل مشروع زواج لأن أحد الطرفين عَرفَ أمرًا مشينًا في سيرة الطرف الآخر، وربما كان ذلك الأمر المشين مجرد كذب لا حقيقة له، وقد يحدث العكس أيضًا.

فالعِرْض يتعرض للتزييف سلبًا وإيجابًا، فتُختلق السلبيات والمعايب كما تختلق الإيجابيات والمفاخر، ويعتبر رمْي المحصنات، من أفحش الآثام التي تدمر السيرة الحسنة للرجل أو المرأة، وقد أدان القرآن الكريم ذلك الإثم فقال جل جلاله ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ

﴿شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤] ولا ريب أن ضياع ثروة من المال أهون من ضياع السمعة الطيبة للرجل أو للمرأة.

والنيْل من عِرْض المرء المسلم يتدرج في الشدة، ورَمْي المرأة المحصنة هو أشد درجاته أذًى، وكذلك رمْي الرجل المحصن، لكن اتهامات كثيرة متدرجة قد تلحق بسيرة المرء المسلم فتصوره للآخرين في صورة سيئة، وقد تكون اتهامات باطلة أو مبالغ فيها، يرددها الجاني من وراء ظهر المجني عليه، فعلى المجتمع المسلم أن يحبط هذه الآثام، بعدم سماعها وزجر المروجين لها ومعاقبتهم، وتذكير الجماهير بواجب احترام أعراض الآخرين.

* * *

الفصل التاسع

النظـام الاجتمـاعي

تمهيـــــد

هذا المكون في الرؤية الصحيحة للإسـلام هـو "النظـام الاجتماعـي الإسلامي" أو "فلسـفة الإسلام الاجتماعية" . وهو يقوم على مبدأيْـن عظيـميْـن هما : العدل، والإيثار، ولسوف نرى أنهمَا أكفأ كثيراً من البدائل الحداثية التي ضَجَّت بها الساحة السياسية في العالـم الإسلامي في القرن الماضي، وكان تراثنا المقدس هو الذي حفظ لنا هذين المبدأين في وضوح مبهر.

وفي العصر الحديث فقط واجه المسلمون محاولات إحلال النظم الغربية محل النظم الإسلامية، وكان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) في تركيا، ثم ابنه عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) من بعده، والخديوي إسماعيل في مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) نماذج للحكام الذين أرادوا ذلك الإحلال وشجعوا عليه لكي تصبح بلادهم قطعة من أوربا![١].

ونحن نعرض هنا - في إيجاز - الخطوط العامة للنظام الاجتماعي الإسلامي الذي يحقق العدل ، ويضمن الحياة الكريمة لغير العاملين، مستندين إلى القرآن الكريم.

المبدأ الأول : العدل

ومعناه : أن ينال كل عامل ثمرة عمله، وأن يتحمل نتائج أخطائه، والظلم تبعاً

(١) انظر : الرافعي ؛ عصر إسماعيل؛ ٢ / ٨١ .

لهذا هو: أن يأخذ أي إنسان ثمرة عمل غيره بغير رضاه، أو يُلقي تبعة أخطائه على غيره زوراً وبهتاناً، وتأمُّل هذا المبدأ يقنعنا بأنه بدهية اقتصادية يستحيل نقضها أو نقدها أو استبدال مبدأ آخر بها، فهو مبدأ صحيح صحة مطلقة تتخطَّى الزمان والمكان ولابد أن تسود في المستقبل كما سادت في الماضي.

والدليل الإسلامي على هذا المبدأ هو قول الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥] وقوله جل شأنه ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩] وقول النبي ﷺ: "مَنْ أحْيَا مَوَاتاً فهو لـه"(١).

والعدل بهذا المعنى ينظم علاقات العاملين المنتجين فيعطي كل أحد ثمرة عمله ويُحَمِّل كل أحد تبعة أخطائه، وعلى المجتمع المسلم أن ينظم نفسه بحيث يتم تنفيذ مقتضيات العدل ومنع الظلم.

المبدأ الثاني: القيم الأخلاقية

لكن مبدأ العدل لا يعالج أوضاع غير العاملين من الشيوخ والعجزة والأطفال، والعاطلين، فهم لا يعملون لأسباب عديدة معروفة، وتبعاً لذلك لا ينتجون، فكيف يضمن لهم النظام الإسلامي الحياة الكريمة اللائقة؟

لابد من مبدأ آخر يكفل ذلك، ويكمِّل النظام الاجتماعي، **هذا المبدأ هو: الإيثار أو الغَيْرية، أو العطاء بدرجاته المتفاوتة التي تبلغ الذروة في الإيثار على النفس من أجل الآخرين**، وهو يضم الزكاة الواجبة، والصدقات التطوعية، ونفقات الأقارب وتكافلهم، وبر الوالدين، وبر الأولاد، وصلات الأرحام، وكفالة اليتيم والأرملة، وسَدُّ الخَلاَّت (أي إشباع حاجات الآخرين)، ومواجهة الطوارئ والكوارث

---

(١) وفي رواية أخرى: "من أحيا أرضاً فهي له"؛ ابن سلام؛ الأموال؛ ط ٣؛ ص ٢٦٤ (دون تاريخ).

والقَحْط والحرب والجدب، **فكما يأمر الإسلام أبناءه بأن يأخذ كل أحد ثمرة عمله، يأمرهم بالإنفاق من هذه الثمرة لتوفير الحياة الكريمة لغير العاملين**، ويحدد لهم نظام الإنفاق المنشود.

والتراث الإسلامي عامر بالأدلة على صحة هذا المبدأ الثاني، فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله ﴿ **مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ يشير إلى أن الإنفاق المأمور به من كل رزق: من المال والجاه والعلم والمشاركة الوجدانية، لا من المال فقط، وهذا هو التكافل الشامل الذي يضمنه الإسلام، ويشكو غير المسلمين من افتقاده.

والمسلم الذي يمارس الغيرية يجب ألا ينتظر جزاءً من غير الله تعالى، وإلاَّ حبط عمله، والله تعالى يقول ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً** ﴾ [الإنسان: ٩] **فهذا هو أدب العطاء والبذل لوجه الله.**

المشكلة الاجتماعية

وكانت مسألة الفقر والغنى والتفاوت الكبير بين الأفراد والطبقات من أهم المشكلات التي طرحها العلمانيون للمزايدة على الإسلام ونظمه الاقتصادية والاجتماعية، وتزعم الشيوعيون الفئات العلمانية وأخذوا يغازلون الطبقات الفقيرة، ونجحوا في تشكيل أحزاب سياسية كبيرة في عدد من البلاد المسلمة، وجاءهم الدعم السوفيتي السياسي والمالي.

لكن الأفكار الغربية التي روَّج لها العلمانيون كانت تصطدم بالتراث الإسلامي، وحاول البعض إيجاد مسوغات تراثية للرأسمالية والاشتراكية لكنها أخفقت!

وتطورت الخلافات بين الفريقيْن، وركز عدد من الإسلاميين على بيان النظام الاقتصادي الإسلامي، وأبرزوا ميزات التكافل الاجتماعي، ثم هاجموا الأفكار البديلة وأساسها الفلسفي المادي الإلحادي، ثم أنشأوا المصارف الإسلامية.

والحق أن الفلسفات المادية لا مكان فيها للتكافل الأُسري والاجتماعي الذي قد يبلغ حد الإيثار على النفس، لأنه لا مكان فيها للإيمان بالجزاء الأخروي العظيم.

وقد حلل بعض الفلاسفة الغربيين علاقات الإنسان بالإنسان، وانتهوا إلى أن "العداء" هو جوهرها، وأنكروا البواعث الاجتماعية والغيرية الإيجابية. وهكذا هيأوا التربة الثقافية لتفشي الأنانية الشرسة!

قال الفيلسوف الإنجليزي الشهير "هُوبْز" (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) إن البشر "ذئاب" وإن المجتمع البشري غابة تمرح فيها الوحوش المفترسة. وانتهى دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) إلى نتيجة مشابهة، فالبشر في صراع دائم، والبقاء فيه للأقوى والفناء للضعيف. وأما "فرويد" (١٨٥٦ - ١٩٣٩) صاحب منهج التحليل النفسي فقد انتهى إلى الزعم بأن "الآخر" هو العدو! وعلى كل إنسان أن يواجه ثلاثة أعداء: المرض، والمصاعب البيئية، و"الآخرين" من بني الإنسان.

وعبَّر الفيلسوف الألماني "نيتشه" (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) عن هذه العلاقة العدائية السائدة بين البشر بعضهم ببعض؛ وقد صنف الناس إلى: سادة، وعبيد! وأكد أن من حق السادة، أو "السوبر بشر!" أن يستبيحوا العبيد الضعفاء: "من تنكيل وتعذيب وقسوة واعتداء على كرامتهم والحط من مركزهم. وهم - أي السادة - يعتبرون الضعفاء ميداناً واسعاً لإبراز حب السطو والغزو وإظهار السيطرة."[١] وعلى أساس هذه الأفكار أدان "نيتشه" مساعدة الأغنياء للفقراء، وأنكر القيمة الأخلاقية للعطاء والغيرية والتكافل الاجتماعي الذي تحثُّ عليه الأديان.

وحاولت الماركسية القضاء على الفقر، فألْغَت الملكية الفردية، وقررت أن: "**لكلٍ على قدْر حاجته**" في مقابل المبدأ البدهي القائل "**لكلٍ على قدْر عمله**".

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي؛ نيتشه؛ ص ١٨٠

وانتهى بها المطاف إلى تدمير المجتمعات التي طبقتْها، وأحالت الجميع إلى فقراء، حتى انهار المعسكر الشيوعي، وعادت الرأسمالية إلى روسيا ومعظم البلاد التي نكبت بالشيوعية.

هذا هو المكون الأساسي في الرؤية الصحيحة للأمة المسلمة، وهو يشكل نظامها الاقتصادي والاجتماعي على أفضل الأسس الكفيلة بضمان العدالة والتكافل، وحماية الأمة من الاضطرابات التي تنشأ عن المظالم، وغياب التكافل، وانتشار الفقر المدقع والغنى المُتْلِف.

وإن أية مقارنة بين هذا النظام الرباني والنظم البشرية الرأسمالية والاشتراكية لكفيلة بإثبات تفوقه عليها في تحقيق الحياة الإنسانية الكريمة لبني البشر، روحيًّا وماديًّا، وعلى أساس هذه الحقيقة يحق لنا أن نأمل في نهوض هذا النظام وسيادته، بقوته الذاتية.

الوَسَط

سوف نواجه في دراسة هذه السِّمَة الأساسية في الرؤية الصحيحة للإسلام ظرفاً غير عادي، فالتراث الإسلامي البشري لم يُوفق غالباً في بيان المعنى الحقيقي للفظ "الوسط" الذي وُصفت به الأمة المسلمة في قول الله تعالى ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣] والأرجح أن عدم التوفيق مَرَدُّه إلى تأثير الفلسفة الأرسطية التي زعمت أن الفضيلة وسط بين الإفراط والتفريط[١] فكانت صيغة جاهزة احتلت مكان الصيغة الصحيحة والمشروعة في كتابات عربية عديدة.

ولابد أن نضيف أن لفظ "الوسط" لفظ مشترك، فأسْهَم ذلك في البعد عن الصواب.

(١) أرسطو؛ الأخلاق؛ ك ٢ - ب ٦ - ف ١٤ .

لكن المفسرين - وهم الأقرب إلى نصوص الكتاب العزيز - أخذوا "الوسط" بالمعنى السديد بالاستناد إلى الآيات التي ورد فيها، وإلى بعض الأحاديث النبوية، فقال القرطبي: "الوسط العدل، وأصل هذا أن أحْمَدَ الأشياء أوْسَطُها، وروى الترمذي عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال: "عدلاً". قال: هذا حديث صحيح، وفي التنزيل ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعدلهم وخيرهم". "وفُلان من أوْسَطِ قومه .. أي من خيارهم وأهل الحسب منهم."(١).

فالأمة الوسط - إذن - هي الأمة الممتازة، وليست الأمة التي يقع مستواها عند نقطة المنتصف على الخطوط الأفقية أو الرأسية في الفكر والعمل.

أما التراث الفلسفي فقد تلقى مقولة أرسطو بالقبول، فقال ابن سينا إن الفضيلة: "نوع وسط"(٢) وقال الجاحظ: "ولكل شيء من (الفضائل) إفراط وتقصير."(٣) وقال أبو حامد الغزالي قبل أن يبلغ طور النضج إن لكل فضيلة طرفين وواسطة، والإنسان: "مأمور بالتوسط والاستقامة بين طرفي الإفراط والتفريط في جملة ذلك."(٤).

هذا القبول الواسع لمقولة أرسطو استمر إلى العصر الحاضر، فقال الدكتور محمد عبد الله دراز الأستاذ بجامعة الأزهر: "إن النظرية الإسلامية تجمع مختلف المبادئ اللازمة للحياة الأخلاقية في تركيب منسجم بحيث يجعلها جميعاً تتجه نحو الوسط العادل."(٥) وأثبت تقارباً بين النظريتين(٦).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن؛ تفسير آية البقرة رقم ١٤٣ .
(٢) انظر كتابه: علم الأخلاق؛ ص ٢٤٥ .
(٣) مجموع رسائل الجاحظ؛ نشر لجنة التأليف والترجمة؛ ص ١٨ .
(٤) ميزان العمل؛ (وهو من مؤلفات الشباب)؛ ص ٢٨٦ .
(٥) الدكتور محمد عبدالله دراز؛ دستور الأخلاق في القرآن؛ ص ٥٣١ .
(٦) نفسه؛ ص ٦٧٠ .

ولكن الشخصية الإسلامية للأمة كأمة، وكأفراد، هي شخصية "وسط" بالمعنى القرآني للكلمة، فيجب أن تمتاز بأقصى ما تستطيع في التمسك بمرجعيتها المنزلة في الكتاب والسُّنة، وبأقصى درجة من التنزيه في توحيدها لربها، وأن تجاهد ما وسعها الجهاد لتحقيق وحدتها، وفَرْضِ العدل على شعبها، وبذْل أقصى الجهد لممارسة العطاء والبذل والإيثار، والحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحماية اللغة العربية، وممارستها، فتلك هي "الوسطية" الإسلامية التي تشكل سمة أساسية في شخصية الأمة، وبطبيعة الحال، المسلم مُطالب بكل ذلك والأمة مَأمورة به، بقدر الاستطاعة ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والنبي ﷺ لم يتحرَّ الوسط بالمعنى الأرسطي الخاطئ. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: "ما عندي شيء، ولكن ابْتَعْ عليَّ، فإذا جاءنا شيءٌ قضيناه." قال عمر فقلت: يا رسول الله، ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، قال: فكره النبي ﷺ (ذلك مني). فقال رجل: انْفِق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً. فتبسم النبي ﷺ وعُرف السرور في وجهه."(١).

الأمرُ بالمعْروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إسلامي عظيم مميز لشخصية الأمة وهويتها، وضامن لاتصافها بالخيرية بحكم القرآن الكريم الذي يقول للمسلمين ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠] ويقول لهم ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومن الجلي أن التقاعس عن أداء هذا الواجب يَحْرِم الأمة المسلمة من "الخيرية"،

(١) انظر: أخلاق النبي للأصفهاني ص ٥٤ (وعند أحمد أن الحديث للنبي - كتاب الزهد؛ ص ٩).

ويسمح بشيوع المنكرات واختفاء الطاعات، وتبعاً لذلك تنطمس معالم الأمة وتنقلب إلى أمة أخرى لا خير فيها.

وأصل المنكر ما أنكره الله، ورآه قبيحاً فعله، ولذلك سُمِّيت معصية الله منكراً، لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون ركوبها"(١).

لكن التيار العلماني الذي نجح في إحلال كثير من القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية، كإباحة الربا والقمار والخمر والدعارة، أحدث اضطراباً كبيراً في المجتمعات المسلمة عند تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمنكر شرعاً قد أصبح معروفاً في حكم القانون في بعض البلاد، والمعروف أصبح منكراً، فكيف ينهى المسلم عن شرب الخمر إذا كان صاحب الخمارة لديه ترخيص رسمي ببيع الخمور وتقديمها لشاربيها؟! والموقف نفسه يواجه المسلم وهو يرى المصارف الربوية، ومحلات الدعارة الرسمية، وفي مجال التعليم يضطر المعلِّم المسلم أن يمارس المنكر بنفسه لأن المقرر الدراسي الذي يقدمه إلى تلاميذه يقول عن قصة نبي الله نوح إنها أسطورة بابلية! وفي المجال الإعلامي تُقترف المنكرات، وتُزيَّن للناس، والقوانين تبيح ذلك.

وليس لهذه المشكلات من حل سوى تحكيم شريعة الله في حياتنا كلها، ليصبح المنكر منكراً والمعروف معروفاً، وتزدهر - عندئذ - معالم الرؤية المسلمة وتتسق أوضاع الأمة، وتتحد جهود أبنائها في البناء والنهضة، لكن هذا الحل مرفوض لدى العلمانيين المعاصرين الذين يسعون لطرد الشريعة من الحياة كلها، لإفساح المجالات لاستيراد البدائل الوضعية.

ومع ذيوع الثقافة الغربية في المجتمعات الإسلامية تضاءل استعداد الأفراد لقبول النصيحة، بعكس ما نجده في تراثنا الإسلامي، وقد كان الرجل من المسلمين يقول

---

(١) تفسير الطبري؛ ٥ / ١٠٥.

لأمير المؤمنين "اتق الله !"، فكان يُصْغِي إليه ويشكره، طالما أنه أمَرَ بمعروف، أو يردُّه برفق إذا لم يكن كذلك، واليوم لا يستطيع الفرد المسلم أن ينْهى عن منكر مهما تلطف في الخطاب [١]. والإجابة الجاهزة الشائعة هي قول الواحد منهم في غضب واستنكار: وما شأنك أنت؟! ولذلك يُسْمَعُ السِّبابُ وفحش القول، ويُرى التطفيف في الموازين والغش والتدليس في الأسواق والأندية وسائر الأماكن، فلا يستطيع مسلم أن ينهى عنه، وهكذا تضيع على الأمة المسلمة فوائد كبيرة.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "وسيلة من وسائل تكوين الرأي العام الفاضل، وتوليد الحياء العام، وللرأي العام الفاضل رقابة صارمة ومؤثرة على الفرد، وللحياء دور قوي يردع الفرد عن الاستهتار والتحدي والتردي والانحراف، وبشيوع هذه المعاني في المجتمع تقل بغير شك فرص ارتكاب الجريمة"[٢].

وفي إيجاز أقول إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **أداة فعالة لتحقيق أمن المجتمع المسلم**، وتدبير وقائي مهم لمنع الجريمة قبل وقوعها، وتلك أماني عزيزة لشعوب العالم أجمع، لكن غير المسلمين، الذين استبدَّت بهم الفردانية المتطرفة، لا يملكون وسيلة لإشراك الجماهير في صيانة الأمن العام، وقد صار كل فرد أشبه بكوكب مغلق على نفسه لا صلة له بغيره إلاَّ الاحتكاك الذي يتولد عن حركة التنافس العنيفة[٣] **فإذا اقتنعت أمتنا بفعاليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان لنا أن نأمل في مستقبل ننعم فيه بالأمن والسكينة**، وإذا لم نقتنع علينا أن نتوقع طوفان الجرائم الذي دَهَم الأمم الأوربية، وأقضَّ مضاجع الأمة الأمريكية.

---

(١) أطلق ضابط شرطة مفصول النار على سائق سيارة فأرداه قتيلاً يوم ١٨ / ١١ / ٢٠٠٣م - ٢٤ / ٩ / ١٤٢٥هـ في مدينة الجيزة بمصر، لأنه تجاسر ونهاه عن المنكر!

(٢) من التقرير النهائي للندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي وأثره في مكافحة الجريمة؛ الرياض؛ شوال عام ١٣٩٦هـ ص ١٨٣

(3) N. Hartmann; Ethics; the introduction

وهذه مقتطفات من نشرة مكتب البحوث الفيدرالي الأمريكي الخاصة بالجريمة؛ حيث يذكر أن:

جرائم العنف زادت في المدة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠ بنسبة ٤٠٪ (في خمس سنوات).

وفي عام ١٩٩٤ قُبض على ١٤,٥ مليون أمريكي في جرائم مختلفة.

ويبلَّغ عن ٤١,٦٪ من جرائم العنف فقط. (فالحقيقة أبشع كثيراً!)

ومن جميع الجرائم تبلَّغ الشرطة عن٣٥,١٪ ولا تبلَّغ عن ٦٤,٩٪.

يُجرح مليونان من الأمريكيين كل عام في جرائم عنف.

وفي المدة من ١٩٧٣إلى ١٩٩١ (١٨ عاماً) جُرح ٣٦,٦ مليون شخص(١).

ويقول برجنكسي إن الجريمة هي إحدى المشكلات الكبرى التي تواجه أمريكا(٢).

ولا ريب أن العالم كله يعاني من الجريمة، ونحن المسلمين نعاني منها، لكن النسب تتفاوت تبعاً للعوامل المحلية، والأمة المسلمة للأسف "تغرَّبت!" إلى حد كبير بتأثير الاستعمار ثم الغزو الثقافي ونشاط العلمانيين، فأَخذت نصيبها من الجريمة بقدر "تغربها"؛ وبقدر تمسكها بإسلامها وتراثها العريق نَجَتْ من كثير من الآفات المهلكة، كوباء "الإيدز" وإدمان الخمور والمجاهرة بالفحشاء، وأولاد الزنا الذين زادت أعدادهم في كثير من دول الغرب عن ٥٠٪!(٣).

ويستطيع قادة الشعوب المسلمة أن يلعبوا دوراً كبيراً في إحياء الأمر بالمعروف

---

(1) Bureau of Justice Statistics; 1993

(2) Out of Control; p.106

(٣) ٥٠٪ في دول شمال أوربا، ٧٠٪ في جزر سيشل، ٤٠٪ في بريطانيا و ٣٠٪ في أمريكا.

والنهى عن المنكر، بوصفهم قدوات حسنة لشعوبهم، بممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتنظيمه، وبممارسة القبول السمْح إذا أمروا بمعروف أو نُهوا عن منكر.

قيل للحسن البصري (توفى سنة ١١٠هـ) : ألاَ تدخل على الأمراء فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؟

قال : ليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه! إن سيوفهم لَتَسْبِقُ أَلْسِنَتِنا! إذا تكلمنا قالوا بسيوفهم هكذا ! (ووصف ضَرْب السيوف للرقاب).

واعتزل الحسن البصري السياسة حين كان الأمراء مستبدين، فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه (٩٩ - ١٠١هـ) كتب إليه الحسن البصري ١٢ رسالة يعظه فيها[١].

لكنه كان يصدع بكلمة الحق إذا طُلب إليه أن يحكم في أمر ما. ففي عهد يزيد بن معاوية، إستدعاه ابن هبيرة - وَالِى البصرة - وسأله عن طاعة يزيد فقال : "يا ابن هبيرة! خَفِ اللهَ في يزيد، ولا تخف يزيداً في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيداً لا يمنعك من الله!" وشدد عليه في الوعظ، فأعطى الأمير لابن سيرين والشعبي اللذيْن شهدا اللقاء صامتين نصف عطاء الحسن، قال ابن سيرين للشعبي : لماذا أَضْعَفَ للحسن دوننا؟ قال الشعبي : سَفْسَطْنا له فَسَفْسَط لنا![٢].

يستطيع كبراء المسلمين أن يقتدوا بعمر بن عبد العزيز، وعندئذ سيتقدم إليهم العلماء والحكماء والأخيار من أبناء أمتهم بالنصيحة المخلصة والرأي السديد وهم في مأمن من غضبهم، **وهكذا تنعم البلاد بمناخ من الديموقراطية الإسلامية، وتنتهي العزلة الفاصلة بل الهُوَّة الكبيرة التي أورثت كثيراً من الأقطار المسلمة الجفوة بين الرؤساء والمرءوسين.**

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوى؛ تاريخ التصوف الإسلامى؛ ص ١٥٤ - ١٥٧
(٢) يعنى حَقَّرْنَا أنفسنا بالصمت فاحتقرنا!

أخلاقيات الستر والعفاف

وأخلاقيات العفاف والسَّتْر مَعْلَم مميز في الرؤية الصحيحة لأمتنا المسلمة. والعفاف يقتضي من المسلم أن لا يشبع حاجته الجنسية إلا عن طريق الزواج، وكذلك المرأة المسلمة. والسَّتْر معناه الالتزام بلباس يستر الجسد، حسب مواصفات التراث المقدس لهذا اللباس.

فقد حرَّم الإسلام كل ضروب الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث خارج إطار الزواج الشرعي، واعتبرها فاحشة، وعاقب عليها أشد عقوبة، فقال تعالى ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢] وقال جل جلاله ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النور: ٢].

وعن السَّتْر يقول النبي ﷺ: "احْفَظْ عَوْرَتك إلا من زوجَتك أوْ ما مَلَكَتْ يمينُك." فسأله سائل فقال: فالرجل يكون مع الرجل؟ (يعني هل يجوز للرجل أن يرى عورة رجل آخر؟) فقال عليه الصلاة والسلام: "إن استطعتَ ألاَّ تراها فَافْعَل" فعاد الرجل يسأل: فالرجل يكون خالياً؟ (هل يجوز أن يكشف المسلم عورته في خَلْوَته؟) فقال ﷺ: "اللهُ أحق أن يُستحيا منه." وقد تحدثتْ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن حالها مع زوجها الكريم عليه الصلاة والسلام فقالت: "ما رأيتُ ذلك منه، وما رأى ذلك مني."[1] وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ينهى الرجال عن دخول الحمام العام إلا بمئزر[2].

---

(١) تفسير القرطبي؛ ٦ / ٤٦١٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد؛ ٥ / ٤٢٧.

ويقول الحق تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩] ويقول أيضاً ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠، ٣١]

فبالعفاف والسِّتْر أغلق الإسلام سُبل الفحشاء، وفتح أبواب الإشباع الحلال، فَيَسَّر الزواج، وأباح تعدُّد الزوجاتِ، كما أباح الطلاق، ونَهَى عن الخلوة وعن عَضْل النساء وعن التبتُّل والرهبانية، فضمن لأمته هذه السمة من الطهارة والنظافة، ووفر الحماية للأسرة والأولاد، وللمجتمع ككل، على امتداد العصور وحتى اليوم. ولا ننسى وباء "الإيدز" الذي انتشر في الشرق والغرب والذي وقانا الله منه بفضل العفاف والسِّتْر، فأثبت فعالية الأوامر القرآنية في حماية الأمة من الوباء.

ولكي ندرك قيمة العفاف والسِّتْر نورد بعض الحقائق عن المجتمعات التي تخلت عنهما وانخرطت في "**إباحة الاستباحة**". فيقول برجنسكي إن إباحة الاستباحة هي التي تهدد مكانة أمريكا القيادية في العالم، وليس الصين ولا الاتحاد الأوربي(١).

وعلى النقيض من مزاعم علم النفس الفرويدي الذي صور العفاف الجنسي كسبب للاضطرابات النفسية وسماه "الكبت الجنسي"، تكشف إحدى الدراسات الحديثة عن أن الإباحية هي أحد أسباب تلك الاضطرابات(٢).

ومن المفارقات المثيرة انتشار اغتصاب النساء في المجتمعات الإباحية التي تسمح بممارسة كل ضروب الفواحش، ففي تقرير كَنَدي رسمي صدر في منتصف عام ١٩٩٣ ظهر أن أكثر من نصف نساء العينة كن ضحايا الاغتصاب أو محاولات

---

(1) Out of Control; p.146

(٢) الأهرام يوم ٣١/٥/١٩٩٥ .

الاغتصاب، وأثبت التقرير أن ٩٨٪ منهن تعرضْن لاعتداءات جنسية، و٥٤٪ أكدْن تعرضهن لتجارب جنسية بالقوة قبل بلوغهن سن السادسة عشرة. والأوضاع في الولايات المتحدة مثلها في كندا، وكذلك أوضاع أوربا، ولولا خشية الإطالة لأوردت تقارير رسمية عديدة تؤكد ذلك، وما هو أسوأ منه!

وقد جَرَتْ محاولات عديدة دَءُوبَة لِمَحْوِ سمة العفاف والسَّتْر من الرؤية الصحيحة لأمتنا المسلمة ابتداء من عهد الاستعمار العسكري إلى اليوم، بدأها المحتلون أولاً، ثم تابعها الحداثيون.

واستمرت المحاولات، ونجحت في البيئات المتغربة وفشلت في البيئات الإسلامية. وآخر ما شاهدناه من ذلك مؤتمرات المرأة والسكان التي عقدتها الأمم المتحدة في التسعينيات من القرن الماضي، في حملة عالمية ضد أخلاقيات العفاف والسَّتْر بوصفها اعتداء على حرية المرأة وحقوقها! والإعلام والتعليم في عالمنا الإسلامي ماضيان في طريقهما، ينشران "الهجين" الثقافي الذي يخلط القيم الإسلامية بالقيم الحداثية ويثير الاضطراب في حياة الأمة ويزعزع إيمان أبنائها بالعفاف والسَّتْر.

ويلعب الأدب الحداثي دوراً مخرباً متمماً لدور الاستعماريين ومؤتمرات الأمم المتحدة للسكان.

وعُرضت عشرات من الأفلام والمسرحيات التي تتاجر بأجساد النساء.

وإعلانات التلفاز والقنوات الفضائية التي تعتمد على "الثدي والفخذ" تحتل الشاشات ليل نهار.

وغير هذا كثير جداً.

فإذا استطاعت أمتنا أن تقاوم ذلك الطوفان من الغواية، وتعود راشدة إلى رحاب العفاف والستر كما نرى بشائره في صحوتها الأخيرة، كان لنا أن نستشرف المستقبل حيث الهزيمة للعلمانيين والانتصار المظفر لأخلاقيات العفاف والستر ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١].

الإسلام في سطور

- الإسلام ينظر إلى الوجود بوصفه مادة وروح.
- كلمة إسلام تعني الخضوع والطاعة لكل أوامر الله تعالى.
- الإسلام دين توحيد، منزه عن المثيل والشريك.
- الإسلام هو الدين الذي جاء به النبي ﷺ وجاء به كل الرسل.
- ومحمد بشر كسائر البشر، لكنه أُوحيَ إليه القرآن الكريم.
- الإسلام دين شامل للدنيا والآخرة؛ والدنيا طريق إلى الآخرة، وهو ينظم حياة المسلم، في فكره وعمله، وأخلاقياته، وقوانينه.
- الإسلام يحث المسلم على العمل والكسب والحياة السعيدة الآمنة.
- الإسلام يحرم العدوان على الآخرين .
- الإسلام يقرر أن التباين بين البشر إرادة إلهية لكي تتعارف الشعوب.
- الإسلام يؤكد دور العقل إلى جانب الوحي بلا طغيان أو استئثار.
- الإسلام يقدر العلم والعلماء، ويحث على تحصيل المعارف النافعة.
- وشريعة الإسلام تقوم على العدل، فلكل إنسان ثمرة جهده.
- وأخلاق الإسلام تقوم على الغيرية والإيثار - وهو العطاء بلا مقابل.
- والشريعة تكفل تحقيق التوازن الدقيق بين الفرد والمجتمع.
- والشريعة تحرم كل طعام أو شراب يضر الإنسان وتبيح كل شيء يفيده.

المراجع

* إبراهيم عوض (دكتور)؛ مصدر القرآن؛ نشر مكتبة زهرة الشرق، بالقاهرة، سنة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

* إبراهيم عوض (دكتور)؛ إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية، مكتبة زهراء الشرق، بالقاهرة، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م

* ابن تيمية (شيخ الإسلام تقي الدين)؛ منهاج السُّنة النبوية؛ نشر المطبعة الأميرية الكبرى، بالقاهرة، سنة ١٣٢٢هـ

* ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد)؛ المحلَّى، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ببيروت (دون تاريخ)

* ابن حزم؛ الرد على ابن النَّغريلة اليهودي ورسائل أخرى، تحقيق إحسان عباس، مكتبة دار العروبة، بالقاهرة؛ سنة ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م

* ابن حجر (أحمد بن علي)؛ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة (دون تاريخ)

* ابن خزيمة (أبو بكر محمد بن إسحق)؛ سنن ابن خزيمة؛ تحقيق دكتور محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي، سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

* ابن سعد (محمد)؛ الطبقات الكبرى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر المكتبة العصرية، بيروت (دون تاريخ)

* ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبي بكر)؛ إعلام الموقعين عن رب العالمين؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد؛ نشر المكتبة العصرية: صيدا - لبنان.

* ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، نشر دار الحديث بالقاهرة؛ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م

* ابن هشام؛ السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي؛ نشر مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة؛ ط ٢ سنة ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م

* أحمد عبد الرحمن (دكتور)؛ نقد الاستشراق – دراسات تطبيقية؛ نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، سنة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٠م

* أحمد عبد الوهاب؛ المسيح في مصادر العقائد المسيحية؛ نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، سنة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

* الأشعري (علي بن إسماعيل)؛ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد؛ نشر مكتبة النهضة المصرية؛ ط ٢ سنة ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م

- Khurshid Ahmad; Basic Principles and Characteristics; Islamic Foundation; United Kingdom; 1947

* الرازي (عبد الرحمن بن أبي حاتم)؛ آداب الشافعي ومناقبه؛ تحقيق عبد الغني عبد الخالق، نشر مكتبة التراث الإسلامي؛ حلب – سوريا (دون تاريخ)

* زغلول النجار؛ تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم؛ نشر مكتبة الشروق الدولية، بالقاهرة؛ ط١ سنة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م

- Sayyed Abul A'la Maududil, Towards understanding Islam, Islamic teaching centre, Indiana, 1977, trans By khurshid Ahmad

* الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى)؛ الموافقات في أصول الأحكام؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد؛ نشر مكتبة محمد علي صبيح (دون تاريخ)

* الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)؛ الملل والنحل؛ نشر الحلبي وشركاه بالقاهرة (دون تاريخ)

* عباس محمود العقاد؛ مطلع النور، نشر المكتبة العصرية، بيروت.

* عبد الرحمن بدوي (دكتور)؛ دفاع القرآن ضد منتقديه؛ ترجمة كمال جاد الله؛ نشر دار الجيل للكتب والنشر؛ ط١ سنة ١٩٩٧م
* عبد المجيد الزنداني؛ تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنة؛ نشر رابطة العالم الإسلامي؛ سنة ١٤٠٨هـ١٩٨٧م
* الغزالي (الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد)؛ المستصفى؛ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا؛ نشر مكتبة الجندي (دون تاريخ)
* الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)؛ تاريخ الطبري؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم؛ نشر دار سويدان؛ بيروت (دون تاريخ)
- Schuom (Frithiof) Understanding Islam, Amandmal Book, United Kingdom, second Imprission, 1966
* القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري)؛ الجامع لأحكام القرآن؛ تفسير القرطبي؛ طبع الشعب. (دون تاريخ)
* القشيري (أبو القاسم عبد الكريم)؛ الرسالة القشيرية؛ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف؛ دار الكتب الحديثة (دون تاريخ)
* الماوردي (أبو الحسن)؛ أدب الدنيا والدين؛ مكتبة محمد علي صبيح؛ القاهرة؛ (دون تاريخ)
* مراد هوفمان (دكتور)؛ يوميات ألماني مسلم؛ ترجمة د.عباس رشدي العماري؛ نشر مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١ سنة ١٤١٤هـ١٩٩٣م
* مراد هوفمان؛ الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود؛ تعريب عادل المعلم ويس إبراهيم؛ مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة؛ ط ١ سنة ١٤٢١هـ ٢٠٠١م
* مراد هوفمان؛ الطريق إلى مكة؛ مكتبة الشروق الدولية؛ ط ١ سنة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م
* مراد هوفمان؛ الإسلام كبديل؛ تعريب عادل المعلم؛ مكتبة الشروق الدولية؛ ط ١ سنة ١٤١٨هـ١٩٩٧م

* محمد أبو زهرة؛ أصول الفقه؛ نشر دار الفكر العربي بالقاهرة؛ (دون تاريخ)
* محمد توفيق صدقي (دكتور)؛ الدين في نظر العقل الصحيح؛ نشر مطبعة المنار بالقاهرة، ط ٢ سنة ١٣٤٦هـ
* محمد حسين هيكل (دكتور)؛ حياة محمد؛ مكتبة النهضة المصرية، بالقاهرة؛ ط ٩ (دون تاريخ)
* محمد عبد الله دراز (دكتور)؛ مدخل إلى القرآن الكريم؛ ترجمة محمد عبد العظيم علي؛ نشر دار القلم بالكويت؛ سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م
* محمد عبده (الأستاذ الإمام)؛ رسالة التوحيد؛ نشر دار الهلال بالقاهرة، سنة ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م
* محمد ماهر حمادة (دكتور)؛ مراجع مختارة عن حياة الرسول ﷺ؛ دار العلوم للطباعة والنشر، بالرياض؛ سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م
* محمد طاهر التنير؛ العقائد الوثنية في الديانة النصرانية؛ (حققته لجنة علمية) سنة ١٩١٢م
* محمد فريد وجدي؛ السيرة المحمدية؛ نشر الدار المصرية اللبنانية؛ مكتبة الأسرة.
* مصطفى صادق الرافعي؛ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية؛ دار الكتاب العربي؛ ط ٨ (دون تاريخ).
* (أبو الحسن علي) الندوي (أبو الحسن علي الحسني)؛ السيرة النبوية؛ دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة؛ جدة؛ ط ٥ سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
- Hartmann, (Nicolai), Ethics, trans. by Stanton Coit, London, George Allen and Unwin LTD, 1932
* هاملتون جيب؛ دعوة تجديد الإسلام؛ دار الوثبة؛ دمشق (دون تاريخ).

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الفصل الخامس: علاقة رسالة النبي برسالات الأنبياء السابقين (عليهم السلام) (٩٧ - ١٣٠)

الموضــــــوع	الصفحة

الفصل السادس : محمد رسول التسامح

(١٣١ - ١٥٢)

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام؛ نشر مكتبة دار العلوم بالرياض، سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م. ونشر دار الوفاء بالمنصورة، طبعة ثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) نقد الثقافة الإلحادية؛ نشر دار هجر- مصر، سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

(٣) خُلُق القرآن؛ نشر المؤلف؛ سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

(٤) موقف الإسلام من الدنيا؛ نشر دار هجر؛ مصر؛ سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٥) الإسلام وأمن المجتمع (التدابير الوقائية فى الإسلام)، نشر دار الاعتصام؛ مصر؛ سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٦) أساطير المعاصرين؛ نشر بيت الحكمة؛ مصر؛ سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٧) الإسلام والقتال؛ نشر دار الشرق الأوسط؛ مصر؛ سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٨) من ينتهك حقوق الإنسان؟ الإسلام أم الأمم المتحدة؟ نشر مركز الإعلام العربى؛ سنة ١٩٩٣م (كتيب).

(٩) العلمانية والخداع الثقافى؛ نشر مركز الإعلام العربى؛ سنة ١٩٩٣م (كتيب).

(١٠) رسالة إلى خطيب مسجدنا؛ نشر دار الاعتصام؛ سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(١١) قانون النصر فى العقيدة القتالية الإسلامية؛ نشر دار الوفاء؛ المنصورة؛ سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.

(١٢) "السماء تمطر ذهباً"؛ مسرحية فى فصل واحد؛ نشر دار سفير؛ مصر؛ سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(١٣) من أخطاء المستشرقين وخطاياهم، نقد الاستشراق - دراسات تطبيقية - مكتبة وهبة سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(١٤) مفهوم القلب فى القرآن الكريم نشر المؤلف؛ سنة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م (كتيب).

(١٥) "ملهاة آل الطيب" مسرحية فى ثلاثة فصول؛ نشر دار هجر؛ سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(١٦) نقد الإسلاميين المعاصرين؛ نشر المؤلف؛ سنة ٢٠٠٠م.

(١٧) كيف ولماذا التشكيك فى السُّنة ؟ نشر وزارة الأوقاف، قطر - على الإنترنت Islam Web- سنة ٢٠٠١م ، مكتبة وهبة ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.

(١٨) مرض كراهية الإسلام؛ دار التحرير بالقاهرة؛ كتاب الجمهورية؛ جزءان، أغسطس وسبتمبر؛ سنة ٢٠٠٣ .

(١٩) البديل الأمريكي للإسلام؛ نشر دار التحرير، سنة ٢٠٠٤ .

(٢٠) نقد أعلام الفكر المصرى المعاصر؛ مكتبة وهبة ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.

(٢١) إبداعات المسلمين فى العلوم الاجتماعية؛ مكتبة وهبة ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

(٢٢) الشيعة والسنة دراسة مقارنة؛ مكتبة وهبة، ط. أولى ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م، ط. ثانية ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.

(٢٣) جاذبية الإسلام الروحية لماذا أسلم هؤلاء ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.

(٢٤) قضية تطوير الخطاب الدينى :

* تطوير الدعوة إلى الإسلام؛ مكتبة وهبة؛ ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.
* تطوير الخطب المنبرية ٢٥ خطبة مطورة؛ ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م
* هل يمكن تطوير الإسلام؟ مكتبة وهبة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.

(٢٥) فى رحاب السيرة العطرة - افتراءات المضلين فى ضوء الحق المبين. مكتبة وهبة، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.

(٢٦) الرد على افتراءات القمنى : الصورة العُلْوية للبعثة المحمدية؛ مكتبة وهبة؛ سنة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م .